الروائي:

رواية

الكتاب: الروائي

الكاتب: وفاء البوعيسى

الطبعة الأولى: 2019

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الناشر: دار الزمان
للطباعة والنشر والتوزيع
فايبر وواتس آب:
00964 772 4223169
موبايل: 00964 750 3598630
E-mail: zeman005@hotmial.com
Website: www.darzaman.net

الإخراج الداخلي: **دار الزمان**
تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

Copy Right © Dar Zaman Publishing
لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه
إلا بإذن خاص ومسبق من المؤلف
All right reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted.
without permission in writing from the Author

وفاء البوعيسى

الروائي:

رواية

إلى ماكس...
الذي ذهب ولم يعد!.

مستعدةٌ دائماً لربط أحلامي بالبحر، ففي خيالي ثمة حوت مسجون، يستميتُ في العودة إليه.

وفاء

الفصل الأول

- 1 -

ذهب جودي وحسّان إلى هناك، ومعهما وعدي لهما بحياةٍ جديدة وبدايةٍ جديدة، وكم كنتُ عظيماً وسخياً حين أعنتهما على رحلتهما، وخففّت عنهما كل مشقة.

لأسابيع طويلة سافرا عبر المحيط، لم يريا شيئاً سوى الأفق الفارغ، أبحرا تحت قبضة الخوف من العواصف والدوار، ومن الامتداد الشاسع للمدى الأزرق، صلّيا كثيراً لأجل ريحٍ صافية وأملٍ خالصٍ بالوصول، كانا مؤمنين جداً وشجاعين جداً، قرآ خرائطهما بحرص، ووجّها بوصلتهما صوبها بكل دقة.

في بادئ الأمر لم يكن أمامهما سوى سديمٌ هائل ورخو، ثم صار ضباباً كثيفاً ثم هشاً، ثم تحوّل أشكالاً مموهةً كظلالٍ على المياه المترامية، وبعد عدة أيام انتشرت من بعيد بقعةٌ من اليابسة على شكل نصف هلال، تحيط بالمياه التي تفقد دُكنتها كلما اقتربا، لتصير فيروزيةً برّاقة، فتجرّآ على الهمس بعد صمتٍ طويل:

ـ هل يوجد مكانٌ في العالم يتسلّط على الحواس أكثر من هنا؟.

قالت جودي بصوتٍ مبحوح.

ـ هذا هو المكان الذي يجب أن نبدأ فيه من جديدٍ كل يوم.

كما لو أنهما قد بزغا هنا من العدم، أو ولدا بعد مخاضٍ عسير من الأمل، حبسا أنفاسيهما وهما يقتربان، شعرا كما لو أن رأسيهما قد مُلِئا بنبع ماءٍ باردٍ ونظيف، وأمام ذلك المكان الفسيح والطبيعي، شعرا بأنهما ضئيلان جداً وتساءلا بخفوت: هل هما من اكتشف هذا المكان أم أن المكان هو الذي اكتشفهما؟.

أطربهما كثيراً الفراغ المستحوذ على الشاطئ، وضوء النهار المتراقص على الأرض يرسم أشجاراً وطيوراً وسُحباً بطيئة الحركة، غارتْ أقدامهما في الرمل الساخن، وأشعة الشمس تخللت أصابع يديهما ونهايات شعرهما، ودفعتهما روائح حطب مشتعل مع توابل ودُهن قديم، للشعور بالفضول والبهجة، ومن البعيد لاحت شابةٌ سمراء صغيرة، تخوّض في رمال البحيرة بقدميها المفلطحتين، أمالت رأسها الكثيف الشعر نحوهما، كما لو أنها ظبيٌ شاردٌ يُصغي في مهب الريح لصوتٍ ما.

كانت عاريةً تماماً، تحمل خدوشاً حديثة على ذراعيها البضتين، وبجوارها تراكض سبعة أو ثمانية أطفال عُراة، بدا كما لو أن كل واحدٍ منهم يغني أغنيةً تخصه، يدورون في حلقاتٍ ويتبادلون القفز في دائرة مُتخيلة بالمنتصف، لا يأبهون للغريبين الآتيين من عالمٍ آخر لا ينتمي حتماً لعالمهم الفطري هذا.

تقدّمت جودي من الفتاة بحذر وابتسامة، فلم تفزع الفتاة ولم تجفل كما توقعت، وحين مدت يدها مصافحةً، احتوتها الفتاة فوراً بأصابعها القاسية والطويلة، دقائق وأخرجت جودي حُلةً كاملةً من حقيبة الظهر التي تحملها، قبعةً صغيرةً وبلوزاً مُقلماً وتنورةً مع جوربين طويلين وحذاء، عرضتها عليها بلطفٍ شديدٍ وأدب، وهي تنظر في عينيها مباشرةً.

. خذيها إنها لكِ، لا تترددي يا صغيرة.

ترددت الفتاة قليلاً، ثم مدت يديها المعفرتين بالتراب وأخذتها جميعاً بمودةٍ عالية، وركضت بعيداً.

- 2 -

تحركت جودي وحسّان في الجوار، وهما يحملان حقائبهما المثقلة بالأغراض غير المنسجمة مع المكان، ولم يكن على ما يبدو ثمة ما يترك للإيحاء إيحاءً، بأن الطبيعة راحت تتهيأ لهما بكل بهائها الطفولي.

المكان على الشاطئ أجمل من أن يكون حقيقة، كان كشيء طيب يأتي بعد انتظارٍ للصابرين، لم يكن باذخاً في روعته، بل كان مقتصداً في ألوانه وتفاصيله، حين كان الاتساع والفراغ يحتضن المكان تقريباً، بل إن جماله بالذات كان في أنه قليل التفاصيل.

الرمال ندية وساخنة رغم ذلك، ناعمة جداً ونظيفة، كانت تنساب في مواضع وتتكثب في مواضع أخرى، وأشجار رفيعة وطويلة تحوّط المكان حتى شاطئ البحيرة، وطيور الهدهد كما لو كانت تغازل الأغصان، وأحجار كبيرة متناثرة تسلقتها سُحليات صفراء صغيرة وسرخس بري لم ينمُ كثيراً بعد، لكنه أرسل عَبَقاً مميزاً يشبه رائحة العطن، وحشرات الدعسوقة تقفز من صخرةٍ لأخرى، والأحراش المجاورة كما لو أنها تصفّق لها.

مكانٌ نظيف، مذعنٌ ومتناغم، كما لو أن كل شيء يعيش خلوته المباركة على نحو ما، صفاءٌ غريب وفرادة لا يمكن للعين أن تخطئها، تنساب على الأرض، على الأجساد السمراء التي لوّحتها الشمس ومياه البحر، وعلى مياه البحيرة الرائقة بالجوار.

الشمس كانت مرتفعةً يومها، وقد علا الحرُّ على اليابسة، وصخب القرود والطيور يأتي من كل مكان، وعلى الشاطئ كان ثمة مصائد مُعدة لصيد سمك الشبوط، وشباك صيد منشورة في الشمس متعلقة بالصخور المسننة، وشابٌ نحيل عارٍ مُسرفٌ في الهُزال، يضع

قدميه في الماء حتى ركبتيه، رفع رأسه إليهما متمعناً حين اقتربا، دون أن يفاجأه وجودهما أو يأبه إن كان عُريّه قد يُحرجهما، لكنه اضطر إلى أن يلّوح لهما بإحدى يديه، في حين ظلت الأخرى مثبتة على الشبكة كي لا تفلت منه إلى الماء.

كان على الشاطئ وحل، وآثار أقدام مفلطحة وكبيرة لجاموس ضخم، وطيور نورس تتجمع في صفوف تنتظر أن يتلطّف أحدهم ويُلقي إليها بشيء لتأكله، والأمواج تتقدم وتنحسر عن جروف من الاردواز، وقصص كثيرة تأتي من العمق، والأطواف الصغيرة المربوطة إلى بعضها بحبالٍ للصيد مصطفة جانباً، محجوزة بحجارة كبيرة لئلا يجرفها الجزر، وعلى بعضها عِشش للنوم وحبال وبعض الكلاب تمرح بالجوار، وإلى البعيد هناك حيث ظللتْ جودي عينيها بيديها اتقاءً للشمس، لاحت جدران متواضعة من الطين والخشب، قائمة بمستوى منخفض، ومن شبابيكها غير المستوية أطلّ أطفالٌ موفورو الصحة جداً ومعافون، لوّحوا لهما وهم يصيحون، كانوا عراةً أيضاً وهم يجلسون على حواف النوافذ، بين الأزهار المزركشة الكثيرة التي تتدلى منها، وبعض أقنان الدجاج أسفل الحيطان تجاهد دجاجاتها للإفلات منها دون جدوى، وإلى البعيد مساحات شاسعة أخرى من الرمال الساخنة، حيث جياد قاتمة تركض على هواها في المكان، تستدير حول نفسها ثم تتوقف وتتشمم بعضها وتصهل بقوة ثم تعود فتركض من جديد.

همست جودي لحسّان:

. ما بال الناس عُراة هنا، الكبار كالصغار تماماً؟.

رفع كتفيه علامة الحيرة، وجذب ذراعها، وتمشيا باتجاه الدغل القريب.

- 3 -

ما لبث أن ظهر أن طقساً جماعياً سيبدأ الآن، وأن الجميع يحرص على حضوره بلا تأخير، إذ شاهدا معاً جماعاتٍ صغيرة من الأهالي، تهبط تلةً صغيرةً ومعشبة.

تقاطر على المكان مجموعةٌ من النساء والرجال العُراة، وانتبهت جودي إلى أن أحد الشباب كان يضع التنورة التي أهدتها لفتاة البحيرة حول عنقه، في حين تشارك رجل ثالث مع امرأة جواربها مرتدين إياهما في أيديهما، وذهبت البلوزة إلى امرأة عجوز واضعةً إياها على رأسها بدل أن ترمي بها على كتفيها.

لم يعرف حسّان وجودي هل يبقيان في مكانهما أم يتقدمان للمشاركة في ذلك الطقس؟، لكن بدا أن أصحابه لا يمانعون في حضورهم له، وإن كانوا يستغربونهما، ويتطلعون بفضول ودهشة لمظهريهما، المكسو بالثياب والمثقل بالأمتعة، لكن أنا بالذات طلبتُ منهما التقدم، قلتُ بحزم:

. جودي وحسّان، امضيا بلا خوف، وتذكرا دائماً أنني أوصلتُكما إلى هنا بسلام، أضمن لكما الأمان على هذه الجزيرة فلا تقلقا.

*****

بدا الطقس الجماعي كسباق مصارعة بين مجموعة من اليافعين، يستعرضون عضلاتهم في دوائر صغيرة مغلقة، ثم يشتبك الفتية في كل دائرة بالعراك بالأيدي والأرجل، يتبادلون الركلات واللكمات كيفما اتفق، ومن تَخُور قواه ينسحب من الدائرة، حتى يتبقى عددٌ يسمح بتكوين دائرة جديدة تبدأ عراكاً آخر، وهكذا حتى انتهى الأمر بفتيين اثنين، هدّهما الإعياء وهما يلهثان من التعب، وقد تورمت كتف

أحدهما في حين تخضّب وجه الآخر بالدماء، فتقدمت العجوز التي تضع بلوزة جودي على رأسها، وطلبت منهما أخذ قسطٍ من الراحة ليستأنفا القتال بعد قليل، فتفرّق الجميع وذهبوا من حيث أتوا، تبددوا في المكان بسرعة، ليعودوا وكل واحدٍ يحمل في يده شيئاً صغيراً، يضمه بين يديه بحبورٍ وتواضع واضحين.

أحدهم كان يضم يديه على حباتٍ من التين، والآخر على سمكةٍ مقددة، وثالث على قصبةٍ خضراء مقطوعة حديثاً، ورابع على مدية، وخامس على طاسٍ كبيرة، حتى الأطفال قطفوا بعض الأعشاب والنباتات التي صادفتهم في الطريق، وهم يحملونها كالكبار، ثم وقفوا بصبر يكاد ينفد وهم ينتظرون الفائز.

ما إن أعطت العجوز إشارة البدء للفتيين، حتى سدد أحدهما ضربةً عاجلةً للشاب الآخر على كتفه المتورمة، فسقط وهو يتمرغ على الأرض.

أعلنت العجوز نهاية الصراع، فتقدم الشاب الفائز من خصمه الواقع على الأرض يساعده على النهوض، وتبادلا العناق، ثم تبادل جميع المتصارعين عناقاً حاراً وصادقاً والتفوا حول الفائز، وإذا بشابةٍ فرعاء ممشوقة، جسدها الأسمر المتوهج في الشمس يلتمع من أثر دُهن ما، وشعرها الغجري الملبد يطوق وجهها الدقيق بوجنتيه البارزتين، تتقدم وتتأبط ذراع الشاب الفائز في الصراع، فهرع الرجال والنساء والأطفال بتقديم الهدايا لهما، لكن بدا أن أحد الأطفال قد أعجبته دمية صغيرة على شكل حصان بيد الفتاة، فاختطفها منها وعاد بها لامرأة أخرى كان يتمسك بذراعها، فالتفت الكل نحوه بقوة وهم يهمسون ببعض الكلمات، وللفور طلبت منه المرأة إعادة الدمية، وحين بدا عليه الخوف وأوشك على البكاء، نهرته من جديد، فتحرك ليعيد الدمية للفتاة التي كشرت في وجهه، ولم تنفرج أساريرها حتى أعاد إليها دميتها.

- 4 -

. اسمح لي؟.

. مرحباً.

رد الرجل الذي يضع تنورة جودي حول عنقه على حسّان حين سأله.

. لماذا تضع تنورة امرأة حول عنقك؟

. ما معنى تنورة؟

بادرته جودي:

. هذه التي تضعها حول عنقك اسمها تنورة.

. هي لامرأة؟

. لا تعرف؟

. ما معنى امرأة؟

. لا تعرف ماذا يعني امرأة؟

سألته جودي باندهاش.

. لا.

. كيف تنادي زوجتكَ؟

. ما معنى زوجتي؟

. كيف تنادون بعضكم هنا؟.

. لا أفهمك.

. كيف تتعرفون على بعضكم؟.

. كما تتعرف سائر الكائنات على بعضها، هل رأيتِ يوماً كائناً ما يجهل أنثاه أو صغيره؟.

. كيف تنادي أنثاكَ إذاً؟.

. قرينتي؟.

. هكذا تناديها؟.

. لا يحتاج الأمر إلى أن أناديها.

. يجب أن تميزها عن مثيلاتها على الأقل.

. لماذا؟.

ارتبك حسّان فتدخلتْ جودي.

. والبقية كيف تناديهم؟.

. من تعنين بالبقية؟.

. الذين يعيشون معك بهذا المكان هنا.

. كثيرٌ من الكائنات تعيش هنا.

. قصدتُ الناس، لا يعقل أنكم لا تحملون هويات؟.

. ما هذه هويات؟.

. وصف للذين يختلفون عنك، هذه هي الهويات.

. نحن كلنا هنا واحد.

. لكنك تختلف عن قرينتك.

. بماذا؟.

. بكل شيء.

. حقاً؟ غريب لم ألحظ هذا.

. هل ثمة حكيم هنا نتكلم معه؟.

. ما معنى حكيم؟.

تحلّق عدد من الفضوليين حول جودي وحسّان ورجل التتورة، اقتربت مجموعة نساء وشابات ممشوقات، ميزتْ جودي من بينهن فتاة الشاطئ فسألتها فوراً:

. لم أنتِ عارية؟.

. ما معنى عارية؟.

. لِمَ لم ترتدِ الأشياء التي أهديتُها لكِ؟.

. لقد تقاسمتها مع البقية.

. هم أهلك؟.

. ما معنى أهلي؟.

لم تكد الفتاة تنهي سؤالها، حتى ركض قردٌ صغير بفردة حذاء جودي، قبل أن يختطف قلماً معلقاً بجيب حسّان ويهرب به.

. وهذا أيضاً من أهلك لهذا منحته الحذاء؟.

. مرحباً.

قالت العجوز التي تضع بلوزة جودي على رأسها، وهي تقترب بفضولٍ محبب.

. أنتِ حكيمة الجزيرة؟.

. ما هذه حكيمة؟.

. مسؤولة.

. ما معنى مسؤولة؟.

. مَنْ أكبر إنسان هنا؟.

. ما هو الإنسان؟.

. هل رأيتم أحداً غريباً مثلنا من قبل؟.

. أنتم غرباء؟.

. نحن لاننتمي إليكم لهذا نحن غرباء، أتفهميننني؟.

. كيف لا تنتمون إلينا ألستم مثلنا؟.

. ثيابنا، شعرنا، أغراضنا، كلامنا.

. هذه مظاهر وجلود فقط، أنتم مثلنا تماماً لا فرق.

. أحدس الآن أنكِ أنتِ حكيمة هذه الجزيرة.

. تعالا معي لابد أنكما متعبان.

. إلى أين؟.

. للمهجع.

. تنامون جميعكم في مهجعٍ واحد؟.

سألتْ جودي، وهي تسير معها وتشد على يد حسّان، كأنها تقول له إنه ليس دوراً سهلاً أبداً ذلك الذي أقنعتُهما به.

. الآن مطرٌ غزير، ولا يمكن أن ننام في العراء فالصغار قد يمرضون.

في الطريق هتف حسّان:

. ما أروع الأشجار هنا، انظري يا جودي إنها باسقة وهائلة الظل.

تدخّل أحد المرافقين:

. ما معنى أشجار؟.

. هذه النبتة الكبيرة جداً انظر، كل هذا من حولكَ نسميه أشجاراً.

سألت جودي بحيرة:

. أيعقل أنكم لا تعرفون هذه الأشياء، أنتم من أهل الجزر بالأساس؟.

تدخلت العجوز قائلة:

. نعرف خصائصها، نعرف أن بعضها سام، وبعضها صالح للأكل، وبعضها يصلح للبناء، وبعضها يصلح لطهي الطعام، لكننا لا نحفل بتسمية الأشياء هنا، لا يمكن إحصاء عدد إخوتنا من بقية الكائنات، فلماذا يجب أن نسمي كل أخ من إخوتنا بِاسْمٍ خاصٍ به؟.

. تعتبرون الأشجار والحيوانات والحشرات والصخور إخوتكم؟.

. رغم أنني لم أعرف ما هي الحيوانات والحشرات والصخور لكن، نعم، هي ونحن أخوة.

أطرقت جودي تفكر، وهي تنظر إلى أقدامها تتغرز في الرمل الساخن، وبعد هنيهة سأل حسّان بفضول:

. ما هو الطقس الذي شاهدناه منذ قليل؟.

وقبل أن تسأله ما معنى طقس سارع قائلاً:

. أعني لِمَ كان الشُبان يتقاتلون منذ قليل؟

. الأقوى تختاره أنثى ليكون قريناً لها تتجب منه صغارها.

. والبقية؟.

. يجربون حظهم مرات ومرات.

. وإن لم يفلحوا لمرضٍ أو كِبر؟.

. الأنثى لا تقترن لا بالكبير ولا بالعليل، حتى تضمن نسلاً جيداً، وتضمن بقاء قرينها معها لتربية الصغار.

. وكيف تضمن ذلك؟.

. حين يوشك على الموت لأجلها، وحين قد يفشل مرة ومرتين، لا يمكنه بعد ذلك أن يتركها تربي صغارهما لوحدها، ولن تقبل أنثى هنا بقرين أنثى أخرى سبق وأن تركها، ستخاف منه، أفهمت؟.

. أظن ذلك.

. وأنتم كيف تقترنون بالمكان الذي تعيشون فيه؟.

. بالحب وحده.

. ما معنى حب؟.

. ألفة، مودة، تفاهم، انسجام.

. لقد صعّبت الأمر عليّ كثيراً.

. إنه عكس الكراهية، هذا ما يقصده.

تدخلت جودي فعادت العجوز:

. ومالكراهية؟.

. قتلُ أحدهم مثلاً هو بسبب ما نسميه الكراهية.

. أوه.

صاحت العجوز وهي تلوح بيدها.

. دعوا عنا هذه الكلمات أيها الأعزاء، فنحن لسنا بحاجة إليها هنا.

- 5 -

اقتربت جودي وحسان من مهجعٍ كبير بدا أنه للنوم، كان على شكل عرائش منخفضة السقف وجدرانه من الطين والخشب، شاهدا من الخارج أسرّةً قاسية، مصنوعةٌ من عيدان قصب مضمومة لبعضها، على سطحها أوراق نباتات كثيفة وقد اصفرّ لونها جميعاً، وعلى الجدران الخارجية، أسندت عيدان قصب خضراء حديثة القطع، متشابكة في بعضها بأغصان صغيرة ومهترئة، عُلِّقت عليها سمكات لتجف في الشمس، وأمام العرائش في العراء ثمة موائد كبيرة منخفضة غير مستقرة السيقان، عليها شباك صيد وحجارة مسننة وصحون فارغة نظيفة، وبعض قطرات من نبيذ بدا أنه قد اجُترع للتو.

بدا المهجع كمجتمعٍ كاملٍ للمسافرين، ليسوا حتى زواراً أو مستكشفين، مع أنهم كانوا يُقيمون فيه منذ زمن لا يُعرف بالضبط كم مضى عليه، ورغم ذلك شعرا حالاً كما لو أنهما مدعوان للإقامة الدائمة فيه.

هبت على الفور رائحة جوافة كأنها تستقبل الداخلين، كانت ثمارها الناضجة ملقّاة كيفما اتفق على بُسط كثيرة.

مكانٌ فسيح وجيد التهوية بشكل ملحوظ، جدرانه ليست جرداء كلياً، لكنه معرّض لتسرب الرياح الموسمية، وفي السقف تعلّق بعض الخفافيش بالدعامات الخشبية وهي تتدلى من رؤوسها، أرضيته مائلة بعدة مواضع لإخراج ماء المطر، وثمة طاسات صغيرة ونظيفة مملوءةٌ بماءٍ معبّق ورائق، إلى جوار كل طست يتدلى قِراب منتفخ بالكثير من قبضات القش المضمومة إلى بعضها، خمنت جودي أنها لفرك اليدين، وبكل مكان توزعت طاولات صغيرة منخفضة جداً، عليها أمشاط

واسعة وبعض قلائد من الزمرد غير المصقول جيداً، رجحت أنها تُستعمل من الجميع، مادام لا محل للكلام عن ملكية خاصة هنا.

القليل من التأثيث كان هو سمة المهجع، الذي ينام فيه أهالي الجزيرة معاً، لكن بالوسع رؤية عددٍ من الجذوع المنحوتة بفأس وإزميل، تحولت بمهارة ملحوظة إلى مقاعد، ومسابح ضخمة من الأحجار الملونة معلّقة بكل زاوية.

وما إن ولجت جودي للداخل عدة خطوات، حتى صرخت بصوتٍ عالٍ:

. كنتِ تقصدين القرود أيضا بكلامك عن الصغار أليس كذلك؟.

. ما معنى قرود؟.

. هذه المخلوقات التي تنط بكل مكان وتنثر أغراضكم.

. لا، هذه لا تمرض بالعراء، صغارنا نحن فقط قد تمرض.

. أها.

قالت جودي وكأنها التقطت أخيراً خيطاً وقالت غامزةً للعجوز.

. إذاً أنتم مختلفون عن القرود صحيح، وتدركون هذا أيضاً؟.

. شكراً للطبيعة التي تعلّمنا كل شيء، القرود كما أسميتِها مكانها الطبيعي على الشجر، وهي تتدثر بالأغصان ليلاً، وغيرها ينام في فجوات وكهوف، أو يبني مهجعاً له كما نفعل نحن تماماً، نحن كلنا نفعل نفس الشيء بالنهاية، ألا ترين؟.

. لكن القرود ليست عارية.

. كيف هذا؟

. مكسوةٌ بالشعر.

. هذا جلدها على ما يبدو، ونحن هذا جلدنا، لذا اعتبرينا قروداً عارية إن كان الأمر يشغلك كثيراً.

قالتها وقهقهت ضاحكة، فتبعها البقية.

. أنا عطشان، لديكم ماء للشرب بالطبع؟.

قال حسّان بدعابة.

. حسناً، آه ...، ماذا أطلقت على نفسك منذ قليل؟.

. غريب.

. يا غريب.

. نادني حسّان من فضلك.

. وهذه؟.

. جودي.

. لماذا حسّان؟ لماذا جودي؟.

. كي نميز بعضنا وسط ملايين ممن يشبهوننا.

. هذا عجيب حقاً.

. لماذا؟.

. قلتَ إنكَ عطشان صحيح؟.

. صحيح.

. اذهب للبحيرة اغتسل، وتعال، ريثما نحضّر لكما بساطاً تنامان عليه وطعاماً وشراباً.

- 6 -

مع حلول المساء، كان بخارٌ ساخنٌ قد ارتفع من حُزمات قصبٍ مقطوعة ومكوّمة، موضوعة جانباً بتنظيمٍ ظاهر تنتظر الفرز والتقليّم، تمهيداً لإعدادها كأوتاد وربطها بحبال الليف، حين اقتادتْهما عجوز الجزيرة بلطف، إلى شجرة لوز ضخمة وواسعة الأغصان، بفناءٍ قريب من المهجع لتناول بعض الطعام.

تحركت جودي وحسّان يومها بخفة وجذل، بعد أن اغتسلا في ماء البحيرة.

كانت جودي ترتدي سروالاً قصيراً من الشيت، بجيوب كبيرة دسّت فيها دفتراً وقلماً وقارورة ملأتها بالماء، وعلى كتفيها البيضاوين الطريين، ألقت بإهمال شالاً من القطن الأبيض الخفيف، وأحكمته حول صدريتها السوداء، لم تنسَ أن تسرّح شعرها للخلف على شكل ذيل حصان، أما حسّان فكان يمشي ونصفه الأعلى عارٍ، لوّنت جلده حرارة الشمس وهواء البحر لأسابيع، فصار لونه أحمرَ مشرباً بسمُرة جميلة، وحرص على ارتداء سروالٍ كاكي اللون يصل حتى ركبتيه، في حين ترك قدميه بلا أي صندل وكذلك فعلت جودي.

أُحضِرت أولاً عناقيد عنب، في أقماع من يقطيناتٍ مجوّفة من الداخل ومجففة جيداً، ثم أوراق موز ساخنة ملفوفة بإحكام على لحم صغير ناضج جيداً ومتبل، احتفظ بمرق خاثر مخلوط بكل أصناف الثمار الموجودة في الجزيرة.

تحسست جودي بحذر شديد طعامها، وقلّبته بأصبعها وهي تتفحصه،

وحين أججت حبيبات القرنفل وثمار البرتقال المر شهيتها، نسِيَتْ حذرها وراحت تأكل بامتنان حقيقي.

تكلمت جودي وهي تبتسم للعجوز، بعد أن انتهت من تناول اللحم الذي قالت إنه ألذ لحم تذوقته بكل حياتها:

. لم تسألونا أبداً لماذا جئنا إلى هنا، أنتم حقاً طيبون.

. لا يحق لأحدٍ أن يسألكم هذا السؤال أبداً.

قالت العجوز باستغراب.

. لماذا؟.

سألت جودي بحيرة.

. ولماذا يجب أن نسألكم؟.

. أليست هذه أرضكم؟.

. ما معنى أرضنا؟.

. مكان يخصكم وحدكم، ويصبح لكم دوناً عن الآخرين.

. أوه هل هناك أحدٌ يعتقد بهذا الكلام فعلاً؟.

. ولِمَ لا ياحكيمة الجزيرة؟.

. المكان للجميع هنا، لم تقل القرود لنا يوماً ولا الأشجار ولا الحشرات إن هذا المكان هو لها وحدها، فكيف نختص به نحن دوناً عنها وعن الآخرين؟.

تدخّل حسّان شارحاً:

. القرود والأشجار والحشرات لا تتكلم أو تفكر مثلنا، ربما لو كانت تتكلم وتفكر مثلنا لطردتنا جميعاً من هنا.

تفرست العجوز في وجه حسّان بقوة، مسحت عينيها العجوزتين في سوادهما، الذي خفت بسبب الرمد كل تقاسيمه، وقالت بقوة لم تخفَ عليه، ولا على جودي ولا أي واحدٍ يستمع إليهم:

. إنها تفكر وتتكلم مع بعضها يابني، لكن على طريقتها، أنت فقط لم تتعلم مراقبتها ولم تعش معها، لأنك لو فعلت فستحبها كثيراً.

*****

. لم أرَ هذا العدد من النجوم من قبل، تبدو قريبة جداً ومضيئة جداً، حتى يبدو كما لو أنها يمكن أن تُطال.

قالت جودي بما يشبه الهيام وهي نائمةٌ على ظهرها تحملق في السماء، فسألتها امرأةٌ نحيفةٌ داكنة البشرة، تجلس على العشب وعلى ركبتها طفل.

. ما هي النجوم؟.

. تلك التي أعلى رؤوسنا هناك نسميها نجوماً.

أجاب حسّان فتدخلت جودي:

. كم أحب التحديق فيها، وهذا هو المكان المثالي لفعل ذلك!.

تدخلت العجوز من جديد مازحةً:

. هل نحن من يحدق في النجوم، أم أن النجوم هي التي تحدق فينا؟.

. كيف؟.

سألت جودي بفضول واضح.

. إنها كتاب إرشاداتنا الكبير، وحكايات اهتدائنا لمواسم المطر، وقطاف الثمار، وتحرك أقربائنا من بقية الكائنات صوبنا للتزاوج أو الصيد.

كانت مجموعةٌ من سكان الجزيرة، يجلسون بجانب جودي وحسّان والفضول يطفر من وجوههم جميعاً، تجمّعوا حول أعوادٍ شحيحة للحطب، رقدت تحتها حجرات حمراء يشوون عليها حلوى هشة مكورة بطريقة غير متجانسة الشكل، مصنوعة من جوز الهند المجروش بخشونة والقليل من سكر النخيل البني، سكبت إحدى النساء على الحَجَرات الساخنة دُهناً قديماً فاح برائحة زكية غمرت المكان، ثم انتظرت ريثما خبت النار قليلاً، ثم طمرت أقراص عجينة طرية وصفراء من جريش الذرة وسط الحجرات، وانتظرت دقائق ثم انتشلتها وقدمتها لجودي وحسّان.

قالت العجوز موجهةً كلامها لجودي التي تأملتها بحماسة:

. ستعجِبك الحلوى، لكن كليها بحذر فهي حارة جداً.

لم تستطع جودي أن تقرر هل النكهة الغريبة المضافة إلى الحلوى محببة أم رديئة، لكنها كانت حتماً مختلفة عن أي شيء أكلته سابقاً، أما أقراص جريش الذرة الصفراء فقد كان ينقصها أن تختمر قليلاً، لكنها تناولتها دون تعليق.

- 7 -

. أنا رجل وأنتِ امرأة، نحن بشر وتلك الجِراء الصغيرة هناك والقردة هي حيوانات، هذه عجوز وهذا يافع، الوقت الآن ليل وغداً

يكون النهار، الآن نرى القمر، غداً لن نستطيع أن ننظر مباشرة إلى الشمس، نحن الآن في الصيف، وبعد أشهر سنكون في الشتاء.

سأل طفل:

. هذه أسماء كثيرة جداً جداً، لماذا تتعلمونها؟.

. كي نميز الأشياء عن بعضها.

. لماذا؟.

. لأن بعضها أفضل من بعض، وبعضها أسوأ من بعض.

. ماذا يعني أسوأ؟، ماذا يعني أفضل؟.

سأل الولد.

. يعني أن هناك واحداً مهمّاً وواحداً غير مهم، وأن هناك واحداً صالحاً وواحداً غير صالح.

. طيب؟.

قال مرتبكاً، وكأنه لم يفهم.

. الحيوان لا يمكن أن يكون كالإنسان.

. لماذا؟.

. أنا وأنت وحكيمة الجزيرة أفضل من الكلاب والقرود والجواميس.

تدخلت حكيمة الجزيرة:

. ولماذا لا يكون القرد مثلكَ؟؟

حار حسّان جواباً، وحين لم يفهم عادت تقول:

. نحن كالقرود، نحن كالأشجار، نحن كالنجوم فوق رؤوسنا، كلنا رائعون وطيبون، ياصغيري اذهب للنوم لعل أمك مشغولةٌ عليك الآن.

انتبه الولد بسرعة، هب واقفاً وسار وهو يلوح بيديه ويركض بعيداً صائحاً:

. أراكما غداً لأعرف المزيد، مع السلامة.

حالما ذهب الولد، قالت عجوز الجزيرة وهي تحدّق في وجه حسّان بقوة:

. أنت تعلّم الطفل أنه لا بد من أضداد أليس كذلك؟.

دُهِش حسّان للحذق الذي بدا واضحاً على ملامح هذه العجوز التي غضّنتها السنوات، والتي اعتقد لسذاجته أنها لاتعرف شيئاً غير الذي سيعلّمه لها.

. أنت تقول له إنه لا بد من ضدٍ دائماً كي يعرّف الأشياء، ونحن لم نتعلم هذا أبداً، هنا يا بني، نحن لا نُطلق الأسماء لا على أنفسنا ولا على غيرنا من الكائنات، لأننا نعتقد أننا فرد في المجموعة كلها.

. لكن قد يكون هناك فردٌ ضارٌ في المجموعة أليس كذلك؟.

. ماذا يعني ضار؟.

سألت بما يشبه التأفف.

. قلتِ إن ثمة أشجارٌ سامة صحيح؟ إنها عدو لكم كما أقدّر.

. سام تعني عدو؟

. لنقل إنها تعني كل ما ليس كالأخ.

. أوه، أراهن أنكم تُعانون مشكلة كبيرة جداً في المكان الذي تعيشون فيه.

. كيف؟.

. هذه الطبيعة تمنحنا كل شيء، وكل شيء له فائدة لشيء آخر، هكذا بسلسلة لا تنتهي.

. وماذا عن الشجرة السامة، أليست عدواً لكم؟.

. الأشجار السامة هي كذلك لنا نحن، لكن كائنات أخرى غيرنا تأكلها ولا تتأذى، وهي مهمة جداً للمكان الذي نعيش فيه، فعلى أغصانها تعيش كائنات، وتحتها تستظل أخرى، ونحن أيضاً يمكن أن نكون كائنات ضارة للحيوانات، حين نزاحمها على ما تأكله معنا أليس كذلك؟. لا يوجد أي عدو فلا تفترض ذلك هنا رجاءً.

عاد حسّان يقول بعناد، وهو يحاول جاهداً إفهام هذه العجوز التي تُشكك بكل كلامه أمام الآخرين، وأمامي أنا بالذات حين قلتُ له إن كل شيء سيسير على ما يرام، وإنه لا داعٍ لأن يقلق كثيراً.

. لكن شجرةً سامةً قد تقتل الولد البريء الذي ذهب للنوم الآن، وأفعى سامة قد تنهش ساقه فترديه أيضاً، وهكذا دواليك.

. انتظر، ماذا تعني أفعى؟.

. حيوان طويل ليس له أرجل، يزحف على بطنه وله أنياب قاتلة.

. أعتقد أنني فهمت مشكلتك الآن يا بني.

. ليس لدي مشكلة على الإطلاق.

. بل لديك مشكلة كبيرة جداً.

. ما هي؟.

سأل بامتعاض.

. أنت تظن أنك أهم كائن هنا، وأن كل شيء يجب أن يكون لصالحك أنت فقط، وإلا فإنه سيصبح عدواً لك.

أدارت جودي رأسها بينه وبين عجوز الجزيرة، محاولةً قول شيء يخفف من وطأة الجو الذي تلبّد من حولهم، لكن العجوز قاطعتها موجهةً كلامها لحسّان:

. إن الأفعى والشجرة اللتين تقتلاننا كما تقول، سُمُهما نفسه دواءٌ لكثيرٍ جداً من الأمراض التي نُصاب بها، يا بني، كل شيء خيّر، إن لم يكن لك أنت فلكائنات أخرى على الأقل، لكنك تصر على رؤية فائدتها لكَ أنت فقط دوناً عن البقية.

. ألا توجد كائنات متوحشة هنا تنقض عليكم لتقتلكم؟ غريب هذا الذي تقولينه ياحكيمة الجزيرة.

. تتناقل جداتنا منذ زمنٍ بعيد، أن ثمة شراكة نمت ببطء بين الأهالي، وبين بعض الكائنات التي جرّبت الاقتراب منهم، وحين كانت تُبدي مُسالمةً حيالهم، كانوا يكافئونها ببعض الطعام، ومع مرور الزمن صار هذا الاقتراب الحذر أُلفةً، وصارت الأُلفة ميثاق تعايش طيب بين بعضهم البعض، وكلّما وُلِدت منا أجيالٌ جديدة، كلّما تداولنا هذا الميثاق وحملناه محمل الجد، ولا مرة خرقناه نحن أو هم، حتى صار إرثاً نحرص عليه.

. من تعنين بالضبط؟.

. كل الكائنات التي قلت للتو إننا أفضل منها، هي شريكتنا في الحياة والمكان، وكلّها حليفتنا منذ زمن بعيد جداً.

. حقاً تتناقلون المعلومات بهذه الطريقة، بالتوارث الشفهي؟.

. نحن نشعر بالدهشة والامتنان، لكل من جاء قبلنا ومرّر لنا خبرته في الطبيعة، فبفضلهم جميعاً نحن لا نشعر بأي خوف مما حولنا، وبفضلهم نحن على قيد الحياة.

قالت العجوز، وتابعت:

. نحن مدينون لأزمانٍ طويلة، قضتها جداتنا في المراقبة والتعلّم، لمعرفة السام من المغذي، والكائنات التي تستأنس بصحبتنا ولا تنفر منا، وتلك التي تترك دائماً مسافة بينها وبيننا، فنعرف أنها لا ترحب بقربنا، وحين يحاول أحدنا خرق تلك القواعد، فإنه لا بد وسيعود ليعرف أن ما تعلّمه كان هو الصواب، هل فهمت الآن يا حسّان؟!.

أخفى حسّان امتعاضه، وهو يزيل بعض الغبار العالق بالحلوى، دون حتى أن ينتبه أنه يفعل ذلك، حتى نبهته العجوز برفق:

. لا تنفض الرماد عنها، كُلها كما هي أنصحك بهذا.

. إنه تراب.

. إنه رماد الحطب، هو معبقٌ بدُهن قديم نصنعه خصيصاً لتتبيل طعامنا.

تدخّلت جودي مازحةً.

. فلتأكلها ولتقل من التراب وإلى التراب نعود.

. من قال إننا من التراب وإلى التراب نعود؟.

تجمدت جودي. ولم تدرِ ما تقول، هزت رأسها بحيرة قائلةً:

. لأننا من طين.

. هل نحن حقاً من طين؟.

. أظن ذلك على الأقل.

عادت ضاحكة.

. ليس بوسع التراب أن يصير لحماً ودماً وعظاماً أبداً، نحن والقرود والأشجار وسائر الكائنات هنا شركاء فقط بهذا التراب.

قهقه الجميع من حولهم، ولم يعد ثمة ما يمكن أن يقال أمام هذه العجوز التي تُسكتهما طوال الوقت، فلزمت جودي وحسّان الصمت تماماً، وهما يختلسان النظرات لبعضهما البعض وفي عيونهما غم عميق.

لحظات ووقفت العجوز في إشارة للذهاب إلى النوم، فوقف الكل وبدؤوا يتحركون، لكن العجوز حاذتهما وهي تسألهما متأملةً وجهيهما على ضوء النجوم بتمعن:

. بي فضول لأعرف ما هو المقابل لكلمة حكيم في لغتكما؟.

- 8 -

. امنعوا الصغار من الذهاب للبحيرة، فالمد سيرتفع الليلة أو غداً على الأرجح.

ما إن قالت عجوز الجزيرة ذلك، حتى هبّت مجموعةٌ من النساء والفتيات لجمع الأطفال من على الشاطئ والعودة بهم، ثم التفتت للشاب الهزيل حولها قائلةً:

. متى ستتوقفون عن الصيد يابني؟.

. بقيت أربعة أيام قبل أن نوقف الصيد لهذا الموسم يا أماه.

. لا تصطادوا أكثر من حاجتنا، أعيدوا الأسماك الصغيرة إلى الماء حتى تعيش دورة حياتها كما ينبغي.

. حاضر يا أمي.

. سنذهب معه.

تدخل آخرون كانوا يقفون بجواره، فالتفتت هي إلى شابٍ بدين ببطنٍ مترهلٍ، جلده مدبوغٌ من الشمس والبحر، مداعبةً:

. وأنت أيها الكسول، ألن تساعد في شيء هنا؟.

رد بنبرةٍ عابثة ودودة وهو يغمزها:

. سأنشد لهم الكثير جداً من الأغنيات وهم يصطادون، لا تقلقي.

انفجر الجميع ضاحكين، حتى هي.

. حسناً، هل لدينا الكثير من السمك المجفف؟.

أجابت امرأة قصيرة طويلة الشعر:

. ربما تناقصت الكمية قليلاً بسبب جودي وحسّان كما يسميان نفسيهما.

. آه لا بأس، سنعمل على تدبّر الأمر حالما يعود المد كما كان.

. جودي وحسّان، هل ترغبان في رؤية الأهالي وهم يجففون ماء البحر، ويجمعون الملح؟.

. نعم جداً شكراً لكِ.

*****

على طول المساحة المُحاذية للحائط الحجري، الذي بناه أجداد حكيمة الجزيرة بينهم وبين الشاطئ، انتشرت مجموعاتٌ من الأهالي في عملٍ دؤوب ومتواصل، بعضهم يحفر أقماع اليقطين، ويطرحها في الشمس تمهيداً لتجفيفها، والبعض الآخر يجدل حبال الليّف، ويضفر منها أراجيح للصغار الذين يقفزون مرحين حوله، في حين انشغل رجلٌ مسن، بتتجير سيقان الخيزران الطويلة بإزميلٍ مدبب، عاملاً منها

بعض الرماح التي تصلح للصيد، أو لتوضع على السقف تمهيداً لتغطيته بالأغصان الجافة.

وفي الطريق سألت جودي التي لا تتوقف عن الأسئلة:

. كيف تعرفين أن المد سيرتفع يا حكيمة الجزيرة؟.

. لقد اقتربت القرود منا كثيراً، فالأشجار التي تستوطنها قريبة جداً من شاطئ البحيرة، وهي لا تغامر بترك بيوتها بسهولة، إلا إذا هاجت البحيرة وعلا مدها.

. آه.

. وسلطعونات المياه العذبة أيضاً، إنها تكاد تغطي الشاطئ من كثرتها، الأعماق تتحرك ببطء وقريباً ستكون حركتها قوية.

. أنتِ في هذا تعتمدين على مراقبة الحيوانات؟.

. قلت لكِ مراراً إننا عاطلون تماماً أمام هذه الكائنات الرائعة.

. نعم.

. قضيتُ عمري وأنا أراقب الطبيعة ياصغيرتي، والحيوانات بالذات كما تسمينها أنتِ، علمتني معرفة اقتراب الكوارث أكثر من غيرها.

. كيف علمتكِ؟.

. إنها تحس باهتزازات قشرة الأرض، وتلحظ سخونة الجو أكثر منا، لهذا تفر جماعاتٍ جماعات من أعشاشها وجحورها، وتزحف نحونا لتقترب من الأماكن المكشوفة، حينها نعرف أن عاصفةً ستهب أو أن البركان المجاور سيفور.

سألت جودي مبهوتةً.

. وصيد السمك لمَ سيتوقف؟.

. بسبب تزاوج الكثير من الأسماك الآن.

. آه، هكذا.

. تلك الكائنات الرائعة، إنها تقطع آلاف الأميال متحديةً المجهول والمسافات، لترتاح عندنا، وتتجمع ثم تبدأ تزاوجها المبارك، ونحن نتركها تتزاوج بهدوء، إلى أن تستدير بعد 3 أشهر مقررةً العودة للوطن، ألا تسمونه هكذا عندكم؟.

. نعم نسميه كذلك.

- 9 -

تدخل حسّان باهتمام غير بريء:

. أنتِ تحتكمين في أمور الحياة، على المراقبة والتجربة في عالم المُشاهدات فقط، أليس كذلك؟.

سكتت العجوز لبرهة وهي تفكر في السؤال، وما لبثت أن قالت:

. حسناً، أنت تستدرجني الآن للعبة الأضداد التي تُجيدها، صحيح؟.

. ماذا تعنين يا حكيمة الجزيرة؟.

. كي تفهم أهمية عالم المُشاهدات الذي أحتكم إليه، يجب أن أفهم أولاً ما هو ضد هذا العالم الذي يبدو أنكَ تصدق بوجوده.

شعر حسّان بأنه غير قادر على التراجع، فرد متجاهلاً نظرات جودي التي صوبتها إليه بطريقة لا تخلو من التحذير:

. أنت حكيمةٌ بالفعل، بالكاد يفوتكِ شيء.

. حسناً، لكنكَ لم تجبني بعد، إلامَ تحتكم أنتَ في أن الطبيعة لا تصلح في ذاتها للاعتماد عليها؟.

. إلى وجود قوةٍ خفيةٍ كامنةٍ وراءها هي التي تسيرّها، وتدفعها إلى أن تسلك بالكيفية التي ترينها أمامكِ.

. أوه.

هتفت العجوز وتوقفت تماماً عن المشي، اعترضت طريق حسّان كلياً، ولم يفتها أن تحدّج جودي بنظرةٍ قوية.

. هذا شيء لم نسمع به قط هنا، فقل لي ماذا تعني بالضبط؟.

. إنها قوة غير مرئية لكِ، غائبة عن مجال رؤيتكِ تماماً.

. وهي التي تفعل فعلها في عالم الموجودات؟.

. بالضبط.

. حقاً الأمر غريب.

. لهذا نسميه غيباً.

. ما أكثر أسماءكم وما أعقدها، وكلها تبدو لي مشاكل لا حلول لها.

تدخّلت جودي بلطف:

. ياحسّان، لقد أرهقت حكيمة الجزيرة بقصصك التي لا تنتهي، فلنسرع لنرَ كيف يجمع الأهالي ملحهم.

لكن العجوز لم تفتها محاولتها إغلاق الموضوع، قالت وهي تنظر في عينيها مباشرةً:

. أعرف أنكِ تريدين إسكاته، لكنني أريد أن أعرف أيضاً ما الذي يقوله عزيزك حسّان.

قالت ذلك ووجّهت كلامها لحسّان وهي تتابع المشي معهما:

. أكمل ياحسّان، أريد أن أعرف أكثر.

. قصدتُ أن مشاهدتكِ في عالم الطبيعة، تظل قاصرةً عن فهم علة عملها.

. ما معنى علة؟.

. سبب.

. أوه، حسناً، أنت تقصد الآن أن وراء ارتفاع المد والعواصف وفوران البركان، سبباً ما يأتي من خارج هذه الطبيعة، هل فهمتكَ بشكلٍ واضح؟.

. تماماً ياحكيمة الجزيرة.

. وما هو هذا السبب؟.

. بل المُسبّب.

. وما هو هذا المُسبّب؟.

توقف حسّان قليلاً، وألقى نظرةً سريعةً على جودي التي بدا عليها الترقب.

. صانعٌ حاذق ومهول في عظمته، هو الذي صنع كل شيء من حولك، وصنعكِ أنتِ وكل واحد هنا، وصنع هذه الطبيعة وجعلها تفعل كل ما تفعله أمامكِ.

. حقاً؟.

. حقاً.

. حسناً، ومن هو الذي صنع هذا الصانع الحاذق المهول في عظمته؟.

. كل الأسباب تنتهي عنده وتبدأ به.

. ما هذا الآن؟.

. هو صنع كل شيء ولم يصنعهُ شيء.

. ولماذا؟ لا بد أن يكون قد صنعه شيء هو الآخر، لا يصح عندي غير هذا.

. هذا لأن فهمك قاصر عن إدراك الموضوع ياحكيمة الجزيرة.

. عجيب، ألم تقل للتو إنه صانع حاذق ومهولٌ في عظمته، فكيف يجعل فهمي قاصراً؟.

ارتبك حسّان، فتدخلت جودي بلطف:

. كيف تفسرين لنفسك ولأهالي الجزيرة، كل هذا الجلال وهذه العظمة من حولك ياحكيمة الجزيرة؟.

. إنّ ثمة تحالفٌ حيٌّ ومتجددٌ على الدوام، بين كل جزء من أجزاء الطبيعة من حولنا، فتعمل على الصورة التي نراها.

. وما مصدر هذا التحالف؟.

. إنه تحالف أزلي وقديم، هو تحالف يخدمنا جميعاً دون أن يتعرف إلينا.

. لا سبب بدون مُسبّب.

عادت جودي، فبادرتها العجوز:

. طيب ومن سبّب هذا المسبب عندكِ؟.

. أخبرتُك إنه صنع كل شيء ولم يصنع نفسه.

ردتْ بقوة.

. جودي، إن كنتِ تفترضين أن كل شيء يحتاج مصدراً، فكذلك الصانع الذي تكلمينني عنه يحتاج أيضاً إلى مصدر، وإلا لكان المنطق نفسه خاطئاً.

. هو ليس في افتقارٍ إلى مصدر، إنه مكتفٍ بذاته.

. قولي لي، أين هو هذا الذي تتكلمين عنه بثقةٍ زائدةٍ هكذا، كيف أعرفه مثلما تعرفينه أنتِ؟.

. تتعرفين عليه من أثره، العالم هو أثره، كما أن العُش هو أثرٌ للعصفور، والتموجات على رمال الشاطئ أثر للجزر، وسلسال الزمرد حول عنقكِ هو أثر لليد التي صنعته.

. أنتِ تُعلين من شأن كائن لا نراه ولا نحسه، على حساب ما نراه وما نحسه في الطبيعة، بل إنكِ تسحبين حقوق الطبيعة، وتحيلينها إلى قوةٍ غير قادرةٍ على الفعل بذاتها، ولا قادرةٍ على التصرف من دون سبب من خارجها، أما كيف نوقن هذا السبب الذي من خارجها فأنتِ نفسك لن تستطيعي تقديم دليل عليه.

تدخل حسّان من جديد:

. ياحكيمة الجزيرة، اعملي ذلك الجزء الصغير المستريح في دماغك، الذي اسمه عقل في النظام الساري من حولك، وستعرفين ما نقصد.

. ها أنت تطلب مِن الجزء أن يتعرف على الكل، أليس هذا غريباً؟ وإن تحقق هذا المحال فما الذي يلزمني أن أدرك أنه صانعٌ واحد لا متعدد؟.

عاد حسّان بهدوء وإصرار:

. لا يمكن أن ينهض شيء جميل كهذا العالم البديع، بتدخل أكثر من واحد ياحكيمة الجزيرة.

. ولماذا؟ ماالذي يقف بيني وبين الظن أن العلة التي صنعت كل هذا العالم هي واحدة بالضرورة؟.

. لو تعدد الصُنّاع لاختلفوا، ولفسدت صنعتُهم.

. في عالم المشاهدات يمكن لمجموعة أن تتفق على بناء مهجع كالذي بنيناه نحن بالجزيرة، أو سفينة كالتي جاءت بك أنت وجودي من دون اختلاف، لماذا لا يتأتى ذلك في عالم الغيب؟.

. كان ليكون العالم مُختلاً.

. فكيف أفهم إذاً عمل الأعاصير والسيول، التي تجرف أوكار الحيوانات وأعشاش الطيور، وتدمر مهجعنا وتأخذه معها هو وذكرياتنا وسهرنا عليه وتعبنا فيه لأسابيع ولا نستطيع أن نسترده؟.

تدخلت جودي:

. هو وحده يفعل هذا وأكثر.

. ولأجل ماذا قد يخرّب أحدهم ما صنعت يداه بعد كل هذا التعب؟.

. إنما يفعل أشياء كهذه كي يقنعك بقدرته، والأهم بوجوده.

. إنه إذاً مستعد لفعل أشياء كبيرة كالأعاصير، لأجل كسب أشياء صغيرة هي عقولنا؟.

سكتت جودي وسكت حسّان، تلاقت نظراتهما عدة مرات، وهما يشعران بوطأة كل كلمة تقولها هذه العجوز، التي لا تعدم الحُجة أبداً، بل إنها تُحرجهما أحياناً أمام نفسيهما وتحرجني أنا أيضاً أمامهما، حين قلتُ لهما إن كل شيء سيسير على ما يرام معها ومع البقية، لكنهما فوجئا بها تقف لكل كلمة يقولانها بالمرصاد.

*****

واصلت العجوز التفكير في الأمر، قلّبته كثيراً في رأسها طوال الطريق، كانت في انحناءتها الخفيفة على العكاز، تنظر ملياً إلى جودي وحسّان بريبةٍ دون أن يرياها، لكنها توقفت بغتةً وبقوة.

. جودي؟

. نعم يا حكيمة الجزيرة.

اختارت جودي لسؤالها، متجاهلةً حسّاناً الذي بدا متجهماً:

. بي فضول لأعرف كيف يبدو عالمكِ، صفي لي كيف ترينه أنتِ.

قالت جودي بعد تردد قصير:

. إنه عالمٌ محمي ومرعيٌّ جيداً، يهيمن عليه عامل كل شيء لنا، إنه المُراقِب والصانِع، يحدد الأفعال والأقوال والسكنات والحركات، حتى الأنفاس هو الذي يُجريها، إنه باختصار القانون لأنه الطريق والحق، وخارجه لا يوجد شيء على الإطلاق.

فتحت العجوز عينيها على اتساعهما، دققت بكل تقاسيم جودي، تفرست فيها بقوة وألم قبل أن تقول:

. أوه، لا بد أنكم مساكين جداً حين تعايشون شيئاً كهذا يا جودي وحسّان.

. أبداً، نحن متماسكون في تعلقنا به لئلا نتسبب في اضطراب، أو نقع فريسةً للجهل والخديعة، حينها فقط نضمن أننا سنفلح في أن نقطع كل المراحل لنذهب معه بالنهاية.

. تذهبون معه إلى أين؟.

. إلى الخلود.

. ماالخلود؟.

. إنه اللاموت.

. حقاً؟.

. نعم.

. كم أن هذا فظيع.

. ولمَ؟.

. ذلك الذي أسميتِه عامل كل شيء، قد سلككم جميعاً في عالم مغلق، كما لو أنكم ولدتم في سجن معتقدين أنه الحرية ليكون الخروج منه هو العبودية، لا يمكنكم أن تروا شيئاً من دونه أو أن تعرفوا شيئاً عدا ما يقوله، ولا يبدو للأسف أن ثمة أحدٌ غيره هناك، كي يخبركم ما الذي يحدث، لهذا تنامون وتستيقظون في أسرتكم كل يوم، معتقدين أن ما يقوله لكم هو الحقيقة.

حين همّت جودي بالكلام مرة أخرى، نهرها حسّان بحدة:

. توقفي ياجودي.

تراجعت حكيمة الجزيرة قليلاً إلى الوراء، وهي تتطلع في وجهيهما، ثم قالت ما سمّرهما في مكانهما:

. لماذا جئتما إلى هنا جودي وحسّان، ما دام عالمكما بهذه الرعاية والجمال واللطف الذي وصفتماه به؟.

تضرج وجه جودي بقوة، أما حسّان فقد بدا مُباغتاً بالسؤال، لكنه تدخّل بحذر وهو يقاوم قلقاً من قدرة هذه العجوز على رد سهامهما طوال الوقت:

. ظننت أنكم لا تسألون أحداً أبداً لما جاء إليكم لأنه يشبهكم.

واصلت العجوز تدقيقها بوجهيهما، كأنها تحاول أن تفهم شيئاً من ملامحهما حين كذبت شفاههما.

. لقد انتبهتُ منذ بعض الوقت أنكم لا تشبهون أحداً هنا، لهذا استبد بي الفضول.

. جئنا مستكشفين.

قالت جودي.

. بل أنتما هنا لأنكما تريدان فصلنا عن عالم الطبيعة، وأن توجدا قطيعةً دائمةً بيننا وبينها.

وعندما حاول حسّان مقاطعتها، عادت بقوة وكأنها لم تنتبه إليه:

. مذ حللتما هنا جودي وحسّان، وأنا أرى أنكما تريدان أن تتدخلا في العلاقة بيننا وبين طبيعتنا، وتُتصّبا من نفسيكما أوصياء على فهمها، تريدان أن تُباعدا بيننا وبينها، حين تستخفان بها وبخبراتنا التجريبية القديمة معها، كي تستولوا عليها وعلينا، والآن يبدو لي أنكما متكلمان باسم من تقولان إنه صانعها شخصياً، أليس كذلك؟.

فرك حسّان يديه بتوتر وهو يتطلع حوله في المكان، حين سمع جودي ترد بلطف وتملق:

. أبداً ياحكيمة الجزيرة، أنت تسرفين في ظنكِ بنا كثيراً، ولعلنا أزعجناكِ حين تحدثنا معكم بعفوية زائدة لأننا أحببناكم جميعاً.

. هل يعرف هو بمجيئكما إلى هنا؟، هل كان ليسمح بذلك وهو يعرف عالمنا، حيث لا مكان له فيه؟، أم تراه أرسلكما لنا خصيصاً؟.

امتقع وجه جودي، ولم تجرؤ هي وحسّان على الإجابة، فقد شعرا بما يشبه الفخ تحاول جرهما إليه وتوريطهما به، لكن جوابي أنا بالذات هو الذي جاءهما واضحاً، تردد بقوة في رأسيهما حين قلتُ لهما بصوتي الهادر:

. اقتلا هذه العجوز البغيضة جودي وحسّان، فهي لن تسمح لكما بالبقاء دقيقةً واحدة بعد كل هذا، اقتلاها الآن فهي تهدد عالمي كله بالفوضى العارمة، جِدا أفعى ودُساها في ثيابها، أو أغرِقاها في البحيرة، أو استدرجاها لهضبة وألقياها من فوقها، المهم أن تمنعاها من تهديد عالمي.

- 10 -

الأيام التي تلت موت عجوز الجزيرة كانت ثقيلةً جداً، الكل كان مصدوماً والكل بكى بحرقة، الرجال والنساء وحتى الأطفال، احمرّت عيونهم من البكاء عليها، وبُحت أصواتهم من الصياح وهم ينكرون موتها.

كانت فتاة الشاطئ الصغيرة التي أهدتها جودي حُلتها أكثر الفتيات جزعاً، والصياد، ابنها الوحيد، بكاها كما لم يبكِ رجل امرأة

من قبل، في حين ظل الشاب البدين الذي يرافقه دائماً للصيد مُلجماً، مضطرباً وقليل الكلام.

لفترة ظل الأهالي هناك يعتقدون أنها لم تمت، وأنها دخلت في نومٍ عميق وستفيق منه بعد قليل، لأن أحداً لم يفهم كيف ولماذا تسقط حكيمة الجزيرة من أعلى تلةٍ، وتتدحرج على الصخور حتى تكسر عظامها وتفج رأسها، قال ابنها الصياد حين رآها:

. لم يكن يقتلنا سوى التقدم بالعمر وكوارث الطبيعة، حتى الأفاعي والدبابير الطنانة لم تكن تقتلنا، فقد كانت الكثير من الأعشاب جاهزة لنجدتنا، لماذا وكيف ماتت أُم الجزيرة التي تعرفها شبراً شبراً كما لو أنها خطوط في راحة يدها، أنا لا أفهم؟.

جودي يومها بدت شعثاء ومذعورةً حقاً، وهي تصرخ راكضةً أن عجوز الجزيرة قد سقطت عن التلة، وأنها هناك جثةٌ هامدةٌ بين الصخور عند أسفل الوادي.

كانت تتصبب عرقاً وتبكي، تهز رأسها بصدمة وتنظر بزوغان لحسّان، الذي بدا شاحباً جداً وقلقاً، كان صامتاً ساهماً يتطلع بعيون الجميع وبعيون ابنها الصياد، وهو يقلّب جسد والدته ويقول إنه لن يدفنها فلربما هي غيبوبة وستستيقظ منها، حين تتذكر أن الجزيرة من دونها ستموت كمداً.

وحين مضى يومان ولم تستيقظ، وبدا جلدها المتغضن حول وجهها يزرقّ وتفوح من فمها رائحة كريهة، لم يعد ثمة مجال لأي شك بأنها قد ماتت، ولأول مرة في تاريخ الكائنات الموجودة هنا كما يزعمون، يموت أحدٌ بسبب حادث لا بسبب فعل الطبيعة، الذي لا يستطيعون دفعه عنهم مهما فعلوا.

نهارات الجزيرة التي تلت دفنها كانت كما لو أنها تتجنب الشمس، كانت رصاصيةً تماماً، لياليها ثائرة متململة خلافاً للعادة، بسبب حركة غير معهودة للحيوانات من حولهم، فالقرود والجواميس البرية وطيور الببغاء ونوارس البحيرة وخنافس الأرض ونباتات السُحلب، بدت كما لو أن شيئاً قد اختلط عليها فصارت تنشط ليلاً وتفتر نهاراً، أما في الليالي فقد كان ذلك الشاب البدين، يغني بعض الكلمات الحزينة، لم يكن يشعر بالبقية وهم يقتربون منه، ويقفون على مقربةٍ منه دون أن يقاطعوه، ثم ما يلبثوا أن يسوّوا الرمال قبل أن يستلقوا على ظهورهم حوله وهم يتأملون السماء.

لم تسمع جودي في حياتها أحداً يغني بمثل هذا الحب، حين لم يبدُ أنه يشعر بأي شيء مما حوله، لا تضايقه الخفافيش وهي تتقاطع في طيرانها فوق الرؤوس، دون أن تصطدم بها، ولا صوت البوم النسري المرقط، يأتي من بعيد رتيباً وثقيلاً، لم يكن منتبهاً حتى لأشعة القمر وهي تشع من بين أشجار اللوز، لم يكن يتوقف إلا حين يعلو الأفق شريطٌ برتقالي اللون، منذراً ببزوغ الفجر، فتستيقظ القرود وتتشابك في شجارٍ قصير ثم تركض بعيداً، أو حين تهطل فجأة أمطارٌ غزيرة، وتضيء العروق الدقيقة للبرقِ المكانَ من حوله حتى يغطي عينيه.

الفصل الثاني

- 1 -

. هل أنا ممسوس حين أفعل ما أفعله الآن بشخوصي؟.

أنا ممتلئٌ بالمشاريع والذعر، في صدري أصوات وفي أصابعي أرقٌ لا يكف، وأمامي شخوص يتلوون على الورق، يتمددون عبر الفصول، يطلبون المزيد والمزيد من الصفحات، حين أهم بالتوقف والبحث عن قفلة مناسبة لهذا النص الذي تورطت به.

قد يبدو الأمر مجرد رواية، تنظر فيها إلى الكاتب وهو يتأمل شخوصه جيداً وهم يستجيبون، المسألة كما لو أنها لا أكثر من مجرد وجهٍ يتأمل وجهاً، وعيون تُباغت بعضها بعضاً بنظرات حادة ومستقيمة، تتراكب وتتوالد في أحداث وحوارات طويلة، لكن رغم ذلك فإن ثمة خيطٌ رفيعٌ عسير الرؤية، يحتوي على شبكة معقدة من الصراع والشكوك المتبادلة بينهما، تعلو وتعلو في السرد.

في الرواية، ذلك العالم الصارم المرسوم بدقة، يتبادل الروائي وشخوصه النظرات، لكن يحدث أن يتبادل الكاتب وشخوصه الأدوار، وبخط الكتابة المتعامد فإن الموضوع ينقلب على نفسه، فيصير الرائي مرئياً، والكاتب مكتوباً.

لعبة التحولات القائمة لا تكف حتى تخلط كل شيء، وعينا الكاتب في اللحظة التي ترسمان فيها المشاهد، تُرغمانه على التورط في الحكاية، تخصصان لهما مكاناً بداخلها، فيرى رؤيته وقد غدت غير قابلةٍ للرؤية، يرى شخوصه وقد صاروا كُتّابه.

هكذا، لقد ظننت أنني شيدت عالماً منيعاً كما يتطلبه تأليف رواية ما، لكن وراء كل تلك المشاهد، والوجوه التي تنعكس في حدقتيّ، تلوح

لي وجوهٌ كانت هي أيضاً وجهي، ولطالما كانت تتأملني حين اعتقدت أنني أتأملها، فكل شخوص الرواية كانوا بزعمي شخصيات صالحة للتأمل، لكنهم كانوا في الحقيقة يتأملونني أنا، في مشهدٍ هو نفسه مشهدٌ بالنسبة إليهم.

الشخوص في روايتي، لطالما كانوا ما فعلتُه بهم، لكنني كنت أيضاً ما فعلوه بي، فقد كابدتُ كثيراً لأجل حبسهم في أدوارهم المرسومة، وتسخيرهم للكتابة عن القابع في الظل فيّ، لكن من اللحظة الأولى لظهورهم في نصي الروائي، صاروا حيوات ناضجة تشعرني بتيهها، وطاقاتها المعقدة تعلو في السرد. كان بمقدورهم تحضير أفكارٍ أخرى حالمة عنها وعني، ورغم كونهم مجهولي الهوية، إلا أنهم تمكنوا من ترك آثارهم على أصابعي، فكلماتهم التي أردتُ كتابتها كانت دائماً مذعِنة، لكن كلماتهم التي كتبوها بيدي كانت أكثر تمرداً مما تصورت، وفي النهاية، فقد نجحوا في أن يسخّروني لإنجاز هذه المجازفة الوجودية، وأخذوني بها معهم إلى المجهول، وأنت أيها القارئ، المنتخب بعناية لقراءتي، لابد أنك ستتورط معنا على الرغم منك.

*****

حدّقت في مادة الحبر المتدفقة على الصفحة، عدّلت بها من شابٍ نحيل سميته كناناً، كان بلا أحلام، كسول، اتكالي، النبيذ يتنزه في دمه، وأغنيةٌ يحبها لا تفارق أذنيه، وامرأة تتمطى في سريره لا تغادره.

إغواء الكتابة دفع به إليّ، فأعطيته وجهاً جديداً ودماً جديداً واسماً جديداً، وبرأس القلم المسنن شبكتُه بهويته الجديدة، طردت تلك المرأة من فراشه، دلقت أكواب النبيذ كلها أمامه، نزعت أغنيته المفضلة من أُذنيه، وزججت به في روايتي.

ومن مادة الحبر المتميعة رسمت امرأةً من خيالي، أردتها من البداية جميلة، نشزتها كما لو أنها شجرة حور بيضاء، ناعمة، شفافة، وتثير شهية كل من يراها، منحتها جسداً حليبياً واخترت لها اسم نينا.

هرعت إلى كل النساء اللاتي أعرفهن، أحصيتهن وجهاً وجهاً، حتى عثرت على أرملةٍ وحيدةٍ، تُعيل ستة أطفال، تُحيك السجاد وتطهو الخبز، تبيعهما لتعيل نفسها وأطفالها، وبحبري أَعطيتها وجهاً آخر، محوت تاريخها، وقتلت أطفالها، منحتها اهتماماتٍ جديدة، وإيماناً متزمتاً، وملأتُها بالمبادئ والتصميم. وسميتُها جودي.

ركضت باحثاً عن شابٍ قوي وشجاع، نحته نحتاً من رجل أربعيني أعرفه، قررت أن يكون شاباً جسوراً، ذكياً، مهيباً، ومنحته اسم خاطر، اسماً محلياً سمعته ذات يوم فأحببت وقعه.

صنعت بنتاً من خيالي الجامح، سكبت فيها كل ما آمله من أحد شخوصي على الإطلاق، مانحاً إياها اسم سيرين.

بلغت رغبتي في الخلق أقصى ما يمكن تخيله، فنحتُّ تالة التي فاجأتني هي نفسها بتكوينها.

خلقت أسيل، نسجتها عِرقاً عِرقاً، عصباً عصباً، صغتها على مهل شديد، وسلكتها في كل الدروب الوعرة.

فكرت في شاب بوهيمي، رسمته بسن القلم ممتلِئًا، قصيراً، رث المظهر، يعيش حياته بلامبالاة وسميته فياضاً.

تلذذت وأنا أنسج ملامح حسّان، وجهه وصورته، ذوقه وحواسه، حتى هواياته ومواهبه، سكبتها بعناية في كل تجاويفه.

شيطان الكتابة أحضرهم إليّ قبل أن يتغيروا على الورق، ويسخروا

من الأدوار التي حددتها لهم، دفعت بتفاصيلهم جميعاً إلى مصنع خيالي، لتفكيكها وإعادة تركيبها على مزاجي ومقاس تطلعاتي وأحلامي وتجاربي، أعدتُ صهرهم وطرقهم، مططتهم، شددتهم حتى كاد الواحد منهم أن ينقصف في قلمي، ثم أرسلتهم من جديد، قررت أن هذا أبيض وتلك سمراء، وأن ذاك متمرد وأن هذه خنوعة، أردت قتلهم أو قتل أحدٍ على أيديهم، ولم أتوقف هناك، بل صنعتُ خوفهم وتسلقت أكتافهم لأكتب أحلامي أنا، وأطرح أسئلتي أنا، وأذكّر بقضاياي أنا.

لطالما حرصتُ على وفرة المادة التي سيتخلّقون منها، كنتُ أفحص منسوب الحبر في قلمي طوال الوقت، أراقب بدقة وصرامة التحامهم بأحلامهم الجديدة، ومخاوفهم الجديدة، وطرائقهم الجديدة، وقضاياهم الجديدة، وهوياتهم الجديدة، حددتُ بدقة كل كلمة، وكل حركة، وكل سكنة، وكل تنهيدة، وكل دمعة، واضطربتُ بشدة للحظة بعثهم على الورق، واستقواء سلاسلهم الفقرية أمامي، واكتسائهم بالمشاعر والحياة والأحاسيس.

تلقّيتُ استفاقتهم وتحديقهم في وجهي أول مرة، برعدة قوية في أوصالي، فقد انبثقوا من هناك، من نسغ رؤاي، من لحم أحلامي، من مخاوفي، ومن جماع أسئلتي المشككة، ارتعشت للحظة صعودهم من العدم إلى الميلاد، انتفضت لسماع صرختهم الأولى، حين انتبهوا لعالمهم، ولي، استجمعت قواي، تحفزت وأنا أُرهف القلم لأول اختلاجة تند عنهم، وأول شهيق ينطلق من صدورهم، وأول خطوة تخطوها أقدامهم الصغيرة على سطوري، وظللتُ أركض بالحبر وأركض وأركض، أعبر بهم قمم الجبال، أجوس معهم مسارب الوديان، أشق معهم البحار، أجري معهم تحت مطر وعواصف، كي أراهم أخيراً في

الضياء وفي العلن، وكي يتداولهم القرّاء ويلاحقهم ملايين المعجبين بي، كي أخلّدهم وأخلّد نفسي بهم، حتى الفضاء الذي سيتحركون فيه، حددته بعناية فائقة، أردت أن أضعهم بالضبط في المكان الذي لا أستطيع بلوغه، حيث تتلألأ الصورة المثالية كما أشتهيها، فضاءٌ يصعب تحديده، لأنه لا يأتي من أي مكان ما لم يأتِ من مكان ما من داخلي.

*****

إنهم يذوّبونني الآن نزيفاً في كأس النبيذ، وصحن العنب على الطاولة، لم يعد مشدوداً لِما يحدث بيني وبينهم، حتى الأوراق كما لو أنها تريد الفرار من كلينا.

نهضتُ للشرفة، بحثت عن القمر في مساء تلك الليلة الحارة، تحسرتُ أنني لا أدخن، تمنيتُ لو أنني أحرق شيئاً ما بين شفتي، بدل أن يرسلوا هم النار إلى أصابعي وصدري هكذا.

. سأشتري سجائر غداً بكل تأكيد، سأبدأ بنوعٍ خفيف، نعم، يجب.

تمتمتُ لنفسي بعصبية، وأنا أرفع رأسي للأعلى باحثاً عن القمر.

لكنني لم أُطق الوقوف أمام الشرفة، كان الحر ينفذ من الزجاج، ويتمدد حولي مثلهم، فتراجعتُ وأحكمتُ إسدال الستارة، عدتُ للطاولة، سحبتُ بسرعة وخوف كأس النبيذ، ارتشفت الشراب كله دفعةً واحدة، وأنا أنظر إلى كل ورقة أمامي كما لو أنني أراها للمرة الأولى.

عدتُ، فذهبت للمطبخ متعمداً ألا أنظر صوب الطاولة، فتحت باب الخزانة، سحبت الزجاجة الأنيقة، ودلقت ما فيها مباشرةً في جوفي، وحين غصّت حنجرتي، سكبتُ القليل في الكأس وعدتُ.

جلستُ، أخذتُ نفساً عميقاً، قطفتُ حباتٍ من العنب، ألقيتها في فمي، ومضغتها حتى طحنت البذور بأضراسي وهجمتُ على الورق.

- 2 -

جودي وحسّان تكلّما كثيراً وهما يواسيان الأهالي هناك، قال حسّان:

. هذا كله مقدور، كل هذا مكتوب عليكم، وما عليكم إلا أن تقبلوا به وتسلّموا له، فأنتم شخوصٌ في رواية لكاتبٍ حكيمٍ وقدير، صنع لكم عالماً روائياً مُحكماً وبديعاً، وأجرى لكم كل شيء على أحسن صورة.

سألت فتاة البحيرة:

. ماذا يعني عالمٌ روائي؟.

. الفضاء الذي يحيط بكِ، والذي هيّأه لكِ ولكل من معكِ، حيث سلكه في الجمال والتناسق والانتظام والعدالة والفرادة والإبداع والرحمة.

. ومن هذا الكاتب القدير الذي تتكلم عنه؟.

سأل ابن عجوز الجزيرة.

. إنه الفذ الذكي، الذي زرع لكم كل هذه الغابات، وخلق لكم الطيور، وأرسى لكم الجبال، ومهّد لكم الممرات والطرق، وهو من مدّ لكم الشواطئ والأنهار، وألقى بالقرينات في أسرّتكم، هو من علّمكم استساغة مذاق النبيذ، والشعور بوجع قرصات الحشرات ولدغ الأفاعي، هو نفسه الذي رسم وجوهكم، ووضع الكلمات على شفاهكم، إنه من أثث هذا الفضاء الذي تتحركون فيه الآن، فوضع الإكسسوارات

التي تلبسونها حول أعناقكم أو تعلقونها في مهجعكم، وهو الذي ألهمكم وضْع جريد النخل فوق عرائشكم كي تتقوا الحر، كما لم ينسَ الليل والنجوم والقمر، حتى روائح الأزهار والدُهن المتبل بالأعشاب، هو الذي صممها.

. ما يقال هنا غريب حقاً، من هو هذا الذي ...، ما اسمه قلت؟.

سأل الصياد متجهماً، فأجابت جودي:

. الروائي.

. الروائي؟

. أجل.

. طيب؟

. لقد منحكم فرصة أن تعيشوا هذه الحياة، بكامل تفاصيلها وسقطاتها وجمالها ومصاعبها؛ منحكم لذة اكتشاف أنكم مخلوقات بشرية، تتشهى، تكره، تحب، تحلم، تجبن، تؤمن، تسقط في فخ الضجر، تيأس، ثم تنهض، تتقدم، وتحلم من جديد بالتغيير.

. وما هي الرواية؟.

. هذه الحياة التي أنتم جميعاً شخوصٌ فيها.

. ما معنى شخوص؟

سأل شاب ممتلئ، جلده محروق من أثر تعرضه للشمس.

. أبطال، أنت وهي وهو والكل هنا أبطالٌ في رواية، تؤدون أدواراً رئيسية، تنتظمون في عالم السرد، حيث يقع على عاتقكم الكثير من الأفعال.

. ونحن، أعني الشخوص ماذا يجب علينا أن نفعل؟

. لقد كنتم جميعاً أفكاراً قديمة في رأسه الحكيم، ثم جعل منها كائناتٍ حية تُستدعى من عالم الغيب إلى العالم الروائي، وقد رسم لكم جميعاً أدواراً ووضع لكم قوانيَن ووصايا ملزمة، يجب أن تلتزموا بها وأن تؤدوا أدواركم المحددة كما هي بالضبط، هذا هو دوركم كشخوص.

. آه.

هتف أحدهم ببلاهة فتدخّل عجوزٌ مُسن وقد بدا مرتبكاً ومبهوتاً:

. ما هذه قوانين ووصايا ملزمة؟. أنا لم أسمع بأشياء كهذه من قبل.

. إنها إرشاداته التي حددها لكم، وخطته التي وضعها بالرواية، وسيكون عليكم الالتزام بها طوال زمن السرد، وإلا فإن الأوان قد يفوت عليكم جميعاً.

. كيف يعني؟

سأل الشاب الممتلئ.

. ستكون الفوضى هي مصير الرواية، وما عليكم الآن إلا التمسك بفرضين اثنين لأجل عبوركم معه إلى نهايتها.

خيّم الوجوم على الجميع، الوجوه اكتست حيرةً وترقباً، كان ذلك واضحاً من ترك الكل لما بيده، والاهتمام بما يقوله حسّان.

. الانضباط بالدور هو فرضكم الأول، تذكّروا هذا دائماً، ولتضبطوا جميعاً إيقاعكم وآمالكم ومشاريعكم وحواركم مع إيقاعه هو، وآماله هو، ومشاريعه هو، وحواره هو، ولتسيروا في المدارج التي حددها بزمن السرد، ولا تحيدوا عنها قيد أنملة.

أما فرضكم الثاني فهو فضيلتكم الوحيدة، إنه إيمانكم الخالص به، وثقتكم بقدرته وعلمه وحكمته القديمة، إن هذين الفرضين معاً هما طوق نجاتكم الوحيد، فلا تتمسكوا بواحدٍ وتتركوا الآخر، وإلا سقطتم جميعاً من عالمه، وعدتم لعالمكم أنتم الزائل، حيث لا شيء سوى الفناء والاندثار والذهاب للعدم بلا أدنى أسف.

. من أنتما؟

باغته الشاب الممتلئ بتشكيك.

. جودي وحسّان بعض شخوص هذه الرواية.

تدخل الصياد بوجل:

. ونحن، هل يجب أن نكون مثلكم الآن؟

. لا يجب أن تكونوا شيئاً لأنكم بالفعل شخوصٌ بهذه الرواية.

عاد الشاب الممتلئ:

. وإن رفضنا كل ما تقولانه؟

. يمكنك أن ترفضه، لكن ثق بأنه سيطردك من نصه، وأنك لن تستمر إلى النهاية.

. كيف أصدق هذا الذي تقول؟

عاد الشاب الممتلئ يلح باتهام.

. ما عليك إلا أن تنظر حولك وتفكر بعقلك.

سأل من جديد بقوة:

. ما معنى عقل؟

طرق حسّان بسلامات أصابعه على رأسه قائلاً:

. داخل تجويف هذا الرأس يوجد العقل، إنه عضو حي ومتدفق بالنشاط، هو الذي يترجم لك الصور التي تشاهدها من حولك، يقول لك بأن هذه شجرة وذاك عصفور، ثم يربط بينهما فيقرر أن العصفور سيموت من دون الشجرة، لكن يمكن للشجرة أن تستمر من دون العصفور، وهكذا دواليك، عقلك يترجم لك صورتك فيقول لك إنك أحد الشخوص، وإنك ما كنت لتوجد دون إرادة روائي بديع وحكيم، صنع لك هذا الفضاء الزمكاني الذي تتحرك فيه، وأن هذا الروائي قادرٌ على الإتيان بغيرك، وقادرٌ على إبقائك أيضاً.

عاد الرجل المسن:

. هل نحتاج إلى كل هذا في حياتنا؟

عاد حسّان بقوة:

. سل عقلك أيها الشيخ الآن، من شكّل كل ما حولك من أشياء ولأي غرضٍ شكّلها؟ ولماذا يتجشم عناء تشكيلك أنت بالذات؟ لماذا يمنحك عقلا من دون أن يدعك تعرفه؟ وهل يعقل أن تأتي بالرواية هكذا، وتغادرها هكذا من دون علة ومن دون معلول؟

. علة ومعلول؟

سألت شابة كانت تنصت بانشداه وحيرة.

. أن تكون بهذه الرواية، وأن يكون مجيؤك بقدرة الروائي.

هتف الشيخ من جديد وكأنه سيفقد صوابه:

. ماذا يجب علينا أن نفعل الآن؟

. عليكم أن تدعوا الروائي إلى حياتكم، لأنكم حينها ستمجّدون عقولكم.

- 3 -

أيامٌ أخرى من الحيرة والاضطراب مرت بالجزيرة، كان الكل يثرثر حول ما قالته جودي وحسّان، وذات مساء خرجت جودي لوحدها، لأول مرة مذ دُفنت عجوز الجزيرة، كانت دائماً تظهر بصحبة حسّان، وهي تبتسم للأهالي بمودة عالية، اقتربت قليلاً من بعض النسوة الجالسات على الرمل، وهن يجدلن حبال الليف ويصنعن منها سلالاً.

مسّدت شعر فتاة صغيرة، كانت جالسة قبالتهن وهي تحاول تعلّم ما يفعلنه، حين ابتدرها ذلك الشاب البدين وهو يحملق بقوة في عينيها:

. ما إن جئتما إلى هنا أنتِ وحسّان حتى تغيرت أشياء كثيرة.

تكلمت جودي بلطف، وهي تقول بحزن بدا حقيقياً لشدة ما بان عليها من تأثر:

. إن كل شيء يحدث هنا هو مقدرٌ ولا يمكن تفاديه.

. تقولان الكثير من الكلام الغامض بالنسبة إلينا.

. عاد بإصرار:

. لو تعرف مدى لطف الروائي بنا جميعاً، فسوف تهون كل آلامك.

. صفيه لنا يا جودي.

قالت فتاة البحيرة الواقفة بجواره.

. إنه فذ وبارعٌ في عمله، وفي أي حال من أحواله هو دائماً ما ينبغي أن يكون.

تدخل شاب آخر.

. ليس أبداً مثلنا؟

. هو موجود من ذاته ومكتفٍ بذاته، يسيّر عالمه الروائي بقوانين مُحكمة، لا شيء ممكن إلا ما يفعله، وليس ثمة معوّقٌ قادر على تبديل أفعاله، أو إعاقة أي شيء في سلسلة مفعولاته.

تدخل ذلك الممتلئ من جديد:

. أوه، يا له من عظيم.

لم تفتها نبرة السخرية في صوته، لكنها ردت كما لو أنها لم تسمعه:

. هو مانح الصفات والقدرات لمن يستحقها، وقد رسمكم شخوصاً في عالمه الروائي، لقد اجتباكم على غيركم لتأدية أدواركم التي كتبها لكم، وقدمكم على كثيرين.

. قلتِ إننا وحدنا الأبطال في روايته؟

عادت إحداهن تسأل.

. اختياره لكم تشريف، وتأدية أدوراكم هو تكليف رفيع وسامٍ من جانبه.

. لكنه لم يختر أي أحد من شركائنا هنا في الطبيعة لأداء هذه الأدوار.

رد رجل مستنكراً.

. لا، إنما جعلها في خدمتكم، إنها مسخّرة لكم كي تسهّل حياتكم، وهي مذعنة له كلياً بغريزتها.

. هذا ليس عدلاً.

تدخل الصياد بامتعاض، وهو يقترب منهم حين رأى جودي.

. لا شيء في أفعاله أكثر عدالةً من الآخر فكل أفعاله عدل، ولا شيء في صنائعه أكثر ملاءمةً من الأخرى فكل صنيع هو ملائم له.

. والمطلوب منا أن نفعل كل ما يكتبه علينا؟

عاد الشاب الممتلئ يلح:

رطبت شفتيها وهي تجيبه بنبرة خاصة هو بالذات:

. المطلوب أن نركّز حوله كل أفكارنا، فهو غايةٌ وحيدةٌ ونبيلةٌ لكل عالمنا، وموضوعٌ ملائمٌ لكل تأملاتنا كشيء أهم من الحياة.

. عجباً، كل هذا؟

تكلمت الفتاة أمامها لأول مرة.

عادت تمسد شعرها وهي تجيبها:

. لأنه هو واهب هذه الحياة لنا، ويمكنه أن يأخذها منا بأي وقتٍ ما لم نفعل، فسعادتنا الراهنة والمستقبلية إنما تعتمد عليه وحده.

. لقد كنا في غنًى عن هذا طوال الوقت، ويمكننا المضي بدونه.

تدخل شاب كان واقفاً قبالتها ملقياً بظله الطويل عليها.

ردت بقوة، وهي تتأمل وجهه في ضوء القمر الشحيح:

. من قد يقضي حياته في لامبالاة تافهة كهذه؟ من قد يخطر بباله أن يمضي حياته غير مكترث بمصيره بالرواية هكذا؟

عاد بقوة متحدياً:

. وماذا سيفعل لي إن رفضت ما تقولين؟

. سيهيج سخطه عليك، ولن تكون جديراً برسمك شخصاً من الشخوص بروايته، بل سيطردك من نصه إلى غير رجعة.

. ماذا يعني يطردني من نصه إلى غير رجعةٍ؟

. يشطب كل شيء عنك ومنك، ثم يرميك خارج الورق وحينها تذهب إلى العدم.

خيم صمتٌ كثيفٌ على المكان، الوجوه كالحة ومشدودة، وهي تتطلع في جودي التي تتكلم دون أن يرف لها جفن، كانت وجوهاً حائرة، مرتبكة ومتوجسة.

. ما العدم؟

سأل الصياد بحيرة.

. إلقاؤك في فوضى عمياء، معدومٌ فيها إلى الهدف مفتقرٌ فيها إلى الغاية.

. لم أفهم شيئاً.

. تذهب إلى عالمٍ مظلمٍ، وتظل متوارياً فيه.

. أليس هذا شيئا يشبه الموت؟

سأل الشاب الممتلئ، وهو يرفع يديه متطلعاً في من حوله بسخرية.

. بالموت تظل معروفاً بين الأحياء، بالعدم لا تكون لك أي ذكرى.

. أوه، يا له من تدليس.

عاد يقول باتهام.

. ليس تدليساً أيها الشاب، فإن التزمت بدورك المحدد في نصه، فإن وعيك الحالي سيستأنف نفسه في آخرة الرواية، وستتحول إلى آخر بديل عنك، لا تذهب بك ريح، لا يؤثّر بك عمر، لا تراودك شكوك، ولا أحزان، ولا ضجر، سيتوقف شعورك بالغموض والرعب والتعب، الذي لطالما اشتكيت منه، وسيحل محله طمأنينة وسلام لا متناهيان.

تدخل شيخ:

. هذا يعني أن من يتبعه لا يموت؟

. لا شك، سيكون خالداً.

. حقاً؟ عجيب هذا.

. ليس ثمة مستحيل على الروائي، فهو بقدرته سيخرج الواحد فيكم من طوره الفاني، إلى طور آخر يتماهى معه فيه، فيصير سرمدياً مذكوراً معه إلى الأبد.

. هل يمكن أن يحدث هذا؟

تدخّل أحد الشباب مبهوراً، في حين اقترب منها اثنان آخران، وراحا يحملقان في وجهها بدهشة.

. هذا هو ما يعدك به الروائي، إن أنت سلكت بدورك كما ينبغي.

. أصير خالداً؟

. تصير حياً ومذكوراً من الآن وحتى الأبد.

. حقاً؟

. بالتأكيد.

. الأمر لا يتطلب الكثير إذاً.

. إنه بالنهاية لا يكلفنا بأدوار تشق علينا.

سأل الآخران:

. ولن نموت.

. لن تموتا.

- 4 -

كانت سنوات قليلة قد انصرمت، حين عادت جودي إلى الجزيرة للمرة الثالثة، وهي محمّلةٌ بكثيرٍ من الأغراض حين بدا أن كل شيء يتغير ببطء لكن مع نتائج كبيرة.

بات الكل يحمل اسمه الخاص الآن، ذلك الشاب الممتلئ بجلده المحروق، الذي لطالما غنى للصيادين آل إلى فياض، والصياد ابن حكيمة الجزيرة صار اسمه كنانًا، أما فتاة البحيرة الناعمة، فقد نضجت قليلاً الآن وصارت سيرين، ثم كانت هناك نينا وخاطر وأصف وأسيل والكثيرون.

صار من الشائع وجود أغراض كثيرة على الجزيرة، من دون حاجة حقيقية إليها، سكاكين، بلطات، حبال ثخينة، قناني وأكواب، ورق وأقلام، ثياب ملونة وحتى أدوات تجميل، وبات مألوفاً سماع أصوات صياح، بغير حالات الموت، أو الخوف من زمجرة العواصف، وفوران البركان القريب، تصدر عن بعض الشبان وهم يتراكضون خلف القرود والجواميس، أو يزحفون على بطونهم بحثاً عن جحور الثعابين ليذبحوها، ويسلخوا جلودها ليلونوها ويخيطوها ثم يرتدوها، وبعد فترة وجيزة يغيرونها بأخرى قبل حتى أن تبلى.

صارت سيرين هي المتحدثة باسم حسّان، وصار خاطر هو يد حسّان ورجله إن لزم الأمر، والأهم من كل ذلك، ظهر قاموس ضخم من الكلمات الجديدة على أهل الجزيرة، صوّر واقع الحياة الجديد، وتبع ذلك ظهور منظومة قيم وأخلاق مختلفة عن السائدة، فصارت الفضيلة لا تعني سوى التعلق بما يقرره حسّان، وعكسها الرذيلة التي

تعنى القيام بفعل لم يقرره لهم، وصار الخير هو في أداء الفرضين اللذين حددهما الروائي، وانحصر الشر في مجرد التفكير في هذين الفرضين أو أحدهما.

*****

الشمس الحارة يومها، دفعت فياضاً للخروج من خلف شجرة الجميز الكبيرة التي كان يتفيّأ في ظلها، ترك جانباً اللوح الصغير الذي كان ينحت عليه صورة البحيرة من بين الفجوات التي أتاحتها أغصان الشجرة العجوز، وزحف باتجاه الشاطئ كي يطفئ اللهب الذي شب في جلده، مع انتصاف النهار.

كان من عادته أن يغفو بأي لحظة، حتى وهو ينحت بإزميله جذعاً أو لوح نخلٍ أو حجراً، لكن ما إن ينكفئ جسده للأمام، حتى تداهمه نوبة صحو مذعورة، وما إن يضع رأسه من جديد بين ركبتيه لينال قسطاً من النوم، حتى يوقظه من جديد خاطر ما، فيعجز عن استدعاء النوم، فيعود من جديد لملاحقة الإغراء، الذي تبثه المواد بين يديه، فينكبّ على استنطاقها رافضاً تأجيل إلهامه دقيقةً واحدة.

كان هكذا دائماً، رثاً، بوهيمياً، لا مبالياً بتقاليد الجزيرة، لا القديمة ولا الجديدة، كما لا يبالي بالنهار أو بالليل، يشتغل متى طاب له ذلك، ثم يتوقف أسبوعاً ويظل هامداً لا تعرف إن كان حياً أو ميتاً، ثم تراه من جديد يتجول هائماً على أوراق الشجر المتعفنة، وكثيراً ما يتأوه بغيض وهو يقف ليفحص قدمه، التي عثرت بحجرة أو داست غصناً يابساً، ثم يعاود المشي متجاهلاً كل صوت وكل رائحة وكل حركة، حتى ينتهي إلى ركن ما لا يمكن لأحد أن يعرف لما اختاره ولا

حتى هو، فيجلس هناك لساعات متأملاً جامداً فاتراً وكأنه يصلي، ثم يعود مساءً وقد بلّله الندى مذهولاً ومتعجباً بعيني مجنون وسعيد.

كان كل أهالي الجزيرة يسمعونه وهو يصرخ لوحده أو يغني لوحده، أو يصفّر للقرود والكلاب التي تتوقف دائماً بغتة، ثم تركض نحوه وتهجم عليه وهي تلحسه وتمرغ وجهه في الوحل، تتشممه وتقفز على صدره أو تسحب شعر لحيته الغزير، لكنه رغم ذلك كان ابن الجزيرة، يفرح لأفراحها ويتعس بشدة لأحزانها، وكان يجد في صحبة كنان أروع سلوى، كان ينتظره على الشاطئ صباحاً كي يغني له وهو يصطاد السمك، رافضاً مساعدته بعناد في رمي الشباك أو حتى سحبها حين يكون الحمل ثقيلاً، ثم يختطف سمكتين مقابل غنائه ويتركه ليعود لخلوته.

- 5 -

ما كاد فياض يتحرك يومها عدة خطوات، سائراً باتجاه الشاطئ، حتى جاءه صوت سيرين لاذعاً أكثر من لسع الحر:

- يجب أن تتواجد بأقل ما يمكن هنا يا فياض؟

التفت فياض بحدة، فشاهدها تقف مع خاطر وهما ينظران إليه بتحدٍ وانزعاج.

- ماذا تعنين يا هذه؟

- اسمي سيرين.

- لا يهمني اسمك في شيء.

. يتوجب عليك أن تتحرك بأقل ما يمكن لئلا نلحظك.

. ولماذا؟

. ما عدت تنتمي لهذا المكان، أنت غير مرغوب فيك هنا.

أجابه خاطر.

. لقد عشتُ طوال حياتي بهذا المكان، حتى أنني عرفته قبل أن تولدا أنتما الاثنان.

. ولأنك عارٍ أيضاً يا فياض، ألا تستحي من نفسك؟

. لا تحاولي جعلي نسخةً قميئة عنكِ.

هتف خاطر بحنق واضح:

. غادر المكان حالاً.

. تمهل قليلاً يا خاطر.

تدخلت نينا التي اقتربت منه باحتراس، كما لو أنها كانت تخاف أن يضربها وقد كان خوفها بمحله، فما إن تدخلت حتى زم قبضته يريد أن يضربها، لكنه تمالك نفسه قائلاً باحتقار:

. عودي للبيت أنتِ واتركي لنا هذا الأمر لنعالجه.

. لم يكن الواحد منا يعنّف قرينته يا هذا.

. وما شأنك أنت؟

. أخبرك كم تغيرنا بعد وصول الغرباء إلينا.

. غادر الآن.

عاد خاطر يصيح فرد فياض ببرود:

. ليس لكَ أدنى حق بتحديد أفعالي.

. ثمة من يحدد أفعالك وأقوالك وسكناتك وكل شيء، لكنك تستنكف عن اتباعه.

. لِمِ لا يريني نفسه ذلك العبقري، لمَ لا يريدني أن أراه؟

. إنه بكل مكان وحتى بك، لكنك أعمى البصيرة.

. لا يهمني في شيء هذا الوهم الذي صرتما تتبعانه، ما يهمني هو ألا تعترضا طريقي مرةً أخرى.

. دعيه يا سيرين لماذا تضيّقين عليه وعلى الكل هنا؟ وأنت يا خاطر توقف.

تدخلت أسيل التي اقتربت من فياض، وهي تقف بينه وبين سيرين وخاطر.

. لا أحتاج لتدخلكِ، هذا المكان لي ولن يمنعني عنه أحد.

قال بعدائية واضحة فاعترض خاطر على أسيل بقوة:

. أنتِ لينة جداً مع هذا الضال العريان يا أسيل ألا تلاحظين؟

. إنه فياض يا خاطر، لقد عشنا معاً لـ ...

. إنه محض جاحد ومتعالٍ.

. تتكلمان عني وكأن لا إرادة لي.

. إنك حين ترفض عملَ ما هو مطلوب منك، تكون قد فرطت في إرادتك، وتكون أقل من حيوان يجب بتره من مجتمعنا.

زم فياض قبضة يده، كما لو أنه يريد أن يحطم بها فك خاطر، لكنه كظم غيظه وتحرك باتجاه الشاطئ متجاهلاً الجميع، حين برزت له جودي فجأة من خلف إحدى البيوت الخشبية الجديدة.

. فياض تمهل أنت تزعجنا هنا.

. وما شأنكِ أنتِ أيتها الغريبة؟

أجفلت جودي لملاحظته القاسية، لكن سيرين تدخلت بسرعة:

. ليس غريباً إلا من يجحد نِعَم المتفضل عليه، وجودك هنا يهين إيماننا الذي عرفناه حين تعرفنا على الروائي، ويهين كرامتنا أيضاً ظهورك العاري هكذا في الرواية.

صاح بها:

. أنا لا أزعجكِ فلا تزعجيني قلت لكِ.

. بل تزعجنا جميعاً.

قال خاطر وبدا كما لو أنه على وشك أن يضربه.

كان فياض مبهوتاً لهذا التبدل الذي أصاب خاطر وسيرين، وراح يتذكر كم ركض خلفهما ليعيدهما من على الشاطئ، حين يوشك المد على الارتفاع، وهما يتملصان منه ويركضان ضاحكين وهو يقبض عليهما ويجرهما معه جراً.

. لا بد أن إيمانكم هشٌ جداً حتى تخافوا عليه من مجرد مروري بكم.

. يكفي يا فياض أرجوك.

قالتها أسيل بتوسل واضح وعيناها ترفان، فتدخلت جودي فوراً.

. وجودكَ هنا يسبب الكثير من الفوضى، فقط غادر هذا المكان ولا تَعُدْ إليه.

لكن ظهور الصياد فجأة، وهو ينفض عوالق السمك من يديه، هدّأ من غضب فياض قليلاً.

ضاقت حدقتا جودي وهي تتأمل كناناً بقلقٍ مشحونٍ ورهبة، لا تتذكر مرةً واحدة شاهدته فيها، ولم تقفز معها صورة أمه أمام عينيها، في حين اقترب هو بهدوء وصرامة من فياض، وكأنه لا يرى أحداً غيره وقال له برفق:

. دعنا نذهب إلى مكان آخر، هيا.

لم ينبس أحد ببنت شفة، كان حضور كنان لايزال يحتفظ بوقعه الخاص في قلوب كل أهالي الجزيرة، حتى سيرين التي كانت تغالي في مضايقة كل من يختلف معها، لم تستطع يوماً مواجهة كنان بنفس الطريقة التي تفعل بها مع فياض، ورغم أن كناناً لم يبدِ انزعاجاً حيال منحه اسماً لم يختره، ورغم أنه قد علّق بعض قطع القماش على جسده، فإنه لم يحفل مطلقاً بجودي وحسّان، بل كان يتحاشاهما في برود واضح لم يخفَ على أحد.

كنان ذاك الذي يبدو فاتراً دائماً وصموتاً، مسالمٌ لا يتحرش بأحد، ولا يتكلم مع أحد إلا فياض، كان مع ذلك مقنعاً في كل حركاته، بل حتى سكناته كانت كأنها إشارات لغة سرية لا يفهمها إلا من كان ينتمي لهذا المكان، كان يذكّرهم بأمه الحكيمة، التي ماتت في ظروف قاسية حزت في قلوب الجميع، ولأنه كان ينقل حكمتها دائماً لهم، حين يتعذر عليها ذلك بسبب المرض، كما كان ينوب عنها حين تذهب للجبل لجلب الأعشاب النافعة للنساء والأطفال، ويفعل عنها في غيابها كل ما تفعله في حضورها.

كان يمر على الكل، ويطمئن على الكل، ويطعم كل صباح أهالي الجزيرة سمكاته الطازجة، ولا ينسى حتى القرود، كان آخر من يأكل شيئاً، وأول من يتقدم حين يكون البحر هائجاً والرعود تزلزل البحيرة،

كان يقدم المساعدة لكل من يطلبها، ويمتنع عن طلب مساعدة أحد حتى أمه، كان قليل الكلام كثير الأعمال، فشل في التزاوج مرتين بسبب غيابه عن الصراع مع البقية، لأنه اضطر دائماً لفعل شيء لأجل الجزيرة، فتوقف عن المحاولة وظلت أمه تردد أنه كأبيه، بالكاد وجد حظاً لنفسه لأنه كان يدخر نفسه كلها لمن حوله.

كنان ذاك، كان هو كنان الذي يحظى برهبة وتقدير الجميع، لكنه كان يزعجني أنا كثيراً.

- 6 -

لفّتهما سخونة الجزيرة في جلستهما تحت بلوطة هرمة، وبدا أن كل شيء يطلق العنان لنفسه من حولهما، في هديل وزقزقة متواصلة للطيور وركض القرود، وحركة ملحوظة لسحالي الأرض تبحث عن ظل صخرة تستظل به، ونحلات صفراء كبيرة تطن بالمكان وتطير بشكل دوراني في الهواء، لكنهما لم يلحظا كل هذا لفرط ضيقهما.

. لقد تغير كل شيء هنا بطرفة عين.

قال كنان وعلى وجهه لمسة حزن، وهو يمسح المكان بعينيه الواسعتين كعيني أمه العجوز، فرد فياض بمرارة ملحوظة:

. لقد عصفا بالجميع عصفاً ذانك الغريبان جودي وحسّان.

. أتمنى لو أنني فقدت حياتي، قبل أن أرى ما أراه اليوم يا أخي.

. لقد استبدلا حياتنا بحياة جديدة، على نحو لم يعد معه من السهل البقاء فيها، أو العودة للقديمة أيضاً.

. هذا الذي يحدث هنا يبدو خارجاً عن أي فهم، إنهما يتملكان الجميع ويتوغلان في كل شيء.

. أنتَ ابن عجوز هذه الجزيرة، لمَ لم تقاتل من أجل جزيرتنا؟

. لقد توغّلت فيك مفاهيمهم الجديدة أيضاً، رغم أنك نأيتَ بنفسك عن كل ما يقولان، صرت تقول جزيرتنا وقد عشنا طوال عمرنا لا نعرف هذه الكلمات.

. اسمعني جيداً الآن، حالة اللامبالاة التي تعيشها لن تفيدك إلا لوقت قصير، وتجاهلك لكل ما يُقال من حولك ليس حلاً، وما سيحدث أنهم عاجلاً أو آجلاً سيضطرون لمواجهتك مثلي، فنحن صرنا مستهدفين الآن، لأننا عامل الفوضى الوحيد الذي سيفسد الرواية كما يزعمون.

. يعني؟

. لاحظ أنني وإياك قد صرنا غرباء تماماً عن هذا المكان، وها هم لا يسمحون لي أن أكون كما أريد، وغداً سيفعلون معك نفس الشيء.

زفر كنان بضيق وهو يتفرس في وجه رفيقه، ويرى بحزن كيف غيّره كل ما حدث مؤخراً، وكيف تبدل من بشوش ومبتهج، إلى حانق ومتحفز وكأنه على أُهبة عراك ما دائماً.

. اعترف أنني خائفٌ مما صرنا إليه جميعاً، لقد حُشرنا بوضع لا يمكن لنا الخروج منه، وبقاؤنا فيه كخروجنا منه تماماً، لا بد أن يمسنا جميعاً ولن يمر الأمر كله بسلام.

. لم أفهم تماماً ما قلت.

. إنهم يرتكبون جميعاً الخطأ الذي لم يجرؤْ أي كائن على ارتكابه

من قبل، إنه منحنا هويةً مختلفةً عمن حولنا، ومحاولة إخراجنا من العالم الطبيعي حيث اعتدنا أن نعيش، إلى عالمٍ آخر يأتي من مكان مختلف تماماً.

. ما هو؟

. هذا.

قالها وهو يطرق بأصابعه على رأسه كما يفعل حسّان وتابع.

. العقل.

. آه.

. ما سمّاه حسّان عقلاً، قد زرع الفوارق بيننا وبين سائر الكائنات، وهو يعلّمنا أن بيننا من هو أرقى وأكمل من غيره، وهكذا رويداً رويداً حتى يصل بنا للروائي، بوصفه صانع هذا العالم ومصمم الشخوص والأدوار، ومحدد جميع الطرق وواضع كل القوانين.

. آه.

. أعتقد أنها أسهل طريقة لإحكام السيطرة علينا، إيهامنا بأننا في أيدٍ أمينة، وأننا لسنا متروكين وحدنا بهذا العالم، وبأننا شخوصٌ عاقلة وواعية، إنما تسلك في نص روائي قديم ومُحكم، وأن لكلٍّ دوره الذي يجب أن يقوم به على وجه التحديد، وخارج هذا الدور ليس هناك سوى الفوضى والخراب، الذي لا بد من مواجهته بقوة إن لزم الأمر.

. لقد نجحت جودي وحسّان في ضم كثيرين إلى جانبهما، وغداً سيحاربنا أهل الجزيرة، وسيكتفيان هما بالتفرج علينا ونحن نُقتل أمام أعينهما.

. أتوقع هذا.

شرد كنان وهو يفكر فيما قاله رفيقه، نظر إلى المكان من حوله، أدار رأسه يميناً ويساراً، رفع رأسه للسماء ثم خفضه ثم قال بحزن واضح:

. كم أفتقد أمي هذه الأيام بالذات أتعرف؟

تنهد فياض بمرارة لسماع ذكرها، وتأمل مليئاً وجه صاحبه ثم صارحه بما يقلقه منذ فترة.

. ألا تستغرب موتها بهذه الطريقة وهي التي لم تتعثر يوماً حتى بحصاة، لشدة ما تحفظ مسارب هذه الجزيرة؟

. مثلما أستغرب موتها بعد مجيء جودي وحسّان بالذات.

. إذاً أنت تشك بأنهما قتلاها؟

. وأعتقد أنهما قد يقتلانني أيضاً.

. أها، فهمتني أخيراً الآن.

. طبعاً، فأنا بالذات ابنها، وموقفي ليس واضحاً تماماً مما جاءت به جودي وحسّان.

. لطالما كنت حكيماً مثلها يا أخي، لهذا هما يحترسان منك، لكن ليس لوقت طويل كما أتخيل.

. يحز بي بُعدي عنها، وانشغالي بالصيد عما كان يُخطط لها ولنا، حتى وقع ما وقع.

. ما حدث هنا رهيب جداً، وبزمن قصير جداً ذهب كل شيء.

فرقع فياض بأصابعه في الهواء وهو يصفر بصوت مسموع.

. لقد جاءنا حسّان وجودي بمفهوم معاكس للموت لم نكن نعرفه، إنه أخطر من أي مفهوم يمكن أن يفكر فيه المرء على الإطلاق.

. تعني الخلود؟

. تماماً.

. أعترف أنني لم استوعبه.

. إنه يعني ببساطة، أنك بقبضة صانع هذا العالم الروائي من قبل أن تأتي إلى الحياة، وأنك ستظل بقبضته حتى بعد أن تغادره، إنه يلاحقك إلى ما بعد القبر، شيء لا يمكن فهمه خارج الرغبة المطلقة بالسيطرة علينا.

. لقد أسعد هذا كثيرين هنا، بدا لهم كعزاءٍ ما يهدئ خوفهم الطبيعي من الموت.

. صورا لهم الموت كشيء مؤلم.

. هل كانا يغرياننا جميعاً بهذا، كي نقبل بالأدوار المرسومة لنا، ومن ثم نخضع لمشيئة الروائي وسيطرته علينا؟

. إنه لا يحتاج إلى أحدٍ كي يغريه.

أجفل الاثنان لظهور أسيل المباغت بالمكان من دون أن يشعرا بها، أحس كنان بقلقٍ حقيقي، لاحتمال أن تكون قد سمعت كلامهما عن أمه، لكنه أحجم عن التعليق، فاقتربت هي منهما وفضّلت الجلوس بجوار فياض الذي لم يخفِ امتعاضه من حضورها.

. ماذا تعنين يا أسيل؟

سأل كنان متكلفاً الهدوء.

. عنيت الروائي، إنه لا يحتاج إلينا فنحن من نحتاج إليه.

. كيف؟

. تمرُد البعض عليه كما تفعلان أنتما الاثنان لن يشكل له أي خسارة، فهو غني عنا ونحن المفتقرون إليه، بل إنه غني عنا حتى نحن المؤمنين به، يستطيع أن يذهب بنا ويأتي بشخوص آخرين غيرنا.

. ليفعل إذاً، بل إنني أتحداه.

قالها فياض وهو يرمق أسيل بقسوة.

. يستطيع من دون أدنى شك.

عادت هي بلطف وإصرار، فرد هو بحنق واضح:

. لن يفعل لأنه ببساطة ليس هنا، ولا بأي مكان آخر بالعالم، إنه فقط في عقولكم.

عادت أسيل من جديد متجاهلةً حدته:

. إنه يملك أن يحمي علينا البركان أو يطلق علينا كل الثعابين إن أراد.

. هل سمع أحدٌ هراءً كهذا من قبل؟ أكاد أفقد صوابي، ماذا حل بكم جميعاً؟ كيف استطاع حسّان وجودي أن يغيّروكم في هذا الزمن القصير، كيف؟

. هل صرتِ متحدثة باسم حسّان أنتِ الأخرى يا أسيل؟

. أقول هذا من واقع محبتي لكما يا كنان وفياض.

انتفض فياض ليواجهها وينظر في عينيها بغيظ.

. نحن لسنا فياضاً وكناناً، فهمت؟

. على رسلك يا أخي، اهدأ قليلاً.

تكلم كنان وهو يلوح بيده.

. كيف تريدني أن أهدأ؟ لقد كنا جميعاً إخوة متحدين قبل مجيء حسّان وجودي فصرنا الآن أعداءً.

. لو تفتح عقلك قليلاً يا فياض، يمكنني أن أحدثك كم أن ذلك الروائي يحبنا ويحترمنا، لقد أكرمنا باختيارنا شخوصاً بأدوار رئيسية بهذه الرواية، لا محض حيوانات تتبع غريزتها العمياء هكذا بلا ضابط أخلاقي.

. توقفي عن هذا.

تجاهلت أسيل فظاظته الواضحة، ولم تيأس، عادت تقول مبتسمة:

. ارتدِ ثياباً وتعالَ معي لنتكلم مع حسّان والآخرين، امنح الأمر فرصة أخرى كي تعرف أرجوك.

هدر في وجهها بقسوة دفعتها للبكاء:

. لم يكن عُرينا إلا طهارةً وانخراطاً في الحياة الطبيعية من حولنا، فصار قذارةً الآن، اسمعي أنا أمقت كل أقوالك وأفعالك وأمقتكِ أنتِ أيضاً، اغربي عن وجهي.

. على مهلك يا أخي، ترفق بالفتاة إنها تتكلم معك فقط.

. كنت أركض معها على الرمال الساخنة من مدة قصيرة خلت هذه الفتاة، كنت أضحك عليها حين كانت تقول إنها تريد أن تمسك بالريح، انظر الآن كيف تغيرت، انظر.

. فياض اسمعني.

. لا تنادني فياضاً.

. اسمعني فقط أرجوك.

. كيف أسمعك وقد وقع كل هذا الانقلاب في داخلك، حتى اختطفك من عالم الانشغال بالعيش، إلى عالم الانشغال بالخلود، الذي تزعمين أنكِ ستتالينه مع ذلك الروائي الدجال؟

لم ينتظر حتى يرد عليه أحد، هب واقفاً بحنق، انتزع ألواحاً صغيرة كان ينقش عليها بعض الصور وانصرف.

تكلم كنان وهو يرمق أسيل بتركيز شديد:

. أنتِ مهتمة كثيراً بأمره يا أسيل، صحيح؟

. لأنني أحبه.

. ماذا؟

. أحبه وأريد الاقتران به، ولا يمكنني أن أقترن به ما لم يسلك بالرواية كما ينبغي.

الفصل الثالث

- 1 -

إنه يطيح بنصي الروائي، يطيح بي أنا شخصياً وبعالمي ذلك العدمي كنان.

لا أحاول إرغامه على الانخراط في السرد كما أفعل مع البقية، لأنه لم يكن كالبقية يوماً، بل أُحدّثه بأقصى ما يمكن من لطف وصبر، محاولاً إقناعه بدوره، فمذ دبَّ الحبر في شراييني، واستقوى جالساً على السطور وأنا أراه مختلفاً، رغم يقيني أنني نسجته نسجاً مُحكماً، كي يكون كما أريد، لكنه مرق عن دوره بسرعة لم أكن أتوقعها.

سألتُه بهدوء:

. ألا تعجبك هذه الحياة؟

. تعجبني.

. لا شك أنها مدهشة.

. لا شك.

. لم يخطر في بالك من صممها على هذه الصورة؟.

. يخطر أحياناً.

. وإلى ماذا توصلتَ؟.

. أنه من غير المفيد لي في شيء معرفته.

. هذا المصمم الذي لا تكترث له هو أنا.

. لا أكترث لما تعتقده.

. لازلت تجحد بوجودي ياكنان؟.

. كيف أتأكد من كونك الروائي؟.

. ماذا تعني؟.

. هل كان معك شاهد، وأنت تكتب أدوارنا وتطلق علينا هذه الأسماء؟.

. لا يجوز أن يشهد عليّ أحد، فقد كنت وحدي منذ البدء.

. أمممم.

. دقق قليلاً بالقوانين التي تحكم الحياة، وبأعمال سائر الشخوص من حولك، فما كان لكل ذلك أن يحدث على هذا النحو من الانضباط، لولا أنني أنا مَنْ أجراه.

. هل كان ثمة شاهد رآكَ، وأنت تُجري هذه القوانين من قديم الزمان؟.

. أنا كاتب وحيد لرواية واحدة.

. هل يجب أن أصدق كل من يقول لي كلاماً كهذا؟.

. ضع ثقتك بحسّان.

. حسّان شاهد؟.

. حسّان عارف.

. هل شهد على معرفتك حتى صار عارفاً؟.

. عرفني حتى أيقنني.

. ولماذا لم أعرفك أنا إلى حدٍّ أن أُوقِنَك؟.

. لأنك تشكك لمجرد التشكيك.

. وما يدريني فلعلك دجال؟.

. ثمة فصل كامل يعتمد عليكَ وحدك ياكنان، وأنت تفسده بتشكيكك.

. لا تعجبني هذه الرواية، ولست معنياً بذلك الفصل ولا بغيره.

. إن الدور الذي صممته لك هو دور مهم جداً، فقط لو أنك تسلك به كما حددته لك سترتاح وستحبه.

. من منحك الحق في أن تصمم لي حياتي، لماذا لم تسألني قبل أن تفعل؟.

لا يمكن إجابته على هكذا أسئلة، تجاهلته قائلاً بهدوء:

. أنت رجل مهم لاتستخف بقضيتك، أعرف أن الدور ثقيل، لكنني أعرفك أيضاً، لقد صنعتك بحبري هذا.

. دوري هو أتفه مما تعنيه كلمة رجل نفسها.

. كيف؟.

. الرجل والمرأة، الإنسان والحيوان، الصاحب والعدو، الروائي والشخوص، هذه كلها هويات متعادية بالنسبة لي، أنت تريد تجنيدي لقضية هدامة هي تمرير وعي عدائي نحو الأشياء والكائنات لمن تسميهم شخوصاً.

. وعي عدائي؟.

. الوعي باختلافنا عن سائر الكائنات وبالسيادة على الحياة كلها، وفرض تصوّرين حاسمين لكل مسألة وجودية، أنت تقسّم كل شيء إلى قسمين لا ثالث لهما، وتقسمنا تبعاً لذلك إلى شخوص معك وشخوص ضدك.

. هذا نصي الخالد، وأنا وحدي من يقرر كيف يكون.

. لقد نجحت في جعل بعضنا ينخرط في دوره عن طريق الفكرة، إذ بفكرة واحدة استطعت توجيه أجسادنا إلى حيث تريد،

وها قد نجحت في أن تجعلنا نتصادم لئلا يكون أمامنا إلا نصك غير المرموق هذا.

. خسارة أن تسمي روايتي بالنص غير المرموق.

. أتعرف؟ ليس لدي أدنى شك، بأن كل ما تزعمه لنفسك بالرواية هو مجرد أكاذيب، بل أجزم أنك أنت نفسك كذبة، وروايتك وهْمٌ، وأنا أيضاً وهْمٌ.

رفعت القلم في وجهه وأنا أصيح فيه بضجر:

. أنتَ لستَ وهماً أنت صنيعتي، أنت واحد من عشرات الشخوص الذين نسجتهم بحبري هذا في روايتي هذه، أنت تشتط كثيراً ياكنان؛ تشتط كثيراً.

قلت له وأنا أكابد على ضبط أعصابي معه.

. ما تراه أنتَ رواية، أراه أنا محاولة تافهة وغير موفقة لفهم وجودنا غير القابل للفهم هذا.

. أنت ضال كبير ياكنان، تختلط عليك الأشياء، فلا تميز بين ما في صالحك وبين مافي غير صالحك، انتبه، أنا أمنحك فرصة، بعدها قد أُسقطك من الورق وأعيدك للعدم.

لكنه غاظني عندما تكلم وكأنه لم يسمعني حتى:

. لا يهمني أن أكون مهتدياً، لستُ معنياً بالخلود أو خائفاً من العدم، كما لا تجذبني فكرة أن أتعلق بك أو بأي أحد آخر، كل ما أريده الآن هو أن أنفض عني هذا الوهم والدجل الذي تسميّه رواية.

- 2 -

. فياض شخصٌ خطر جداً ياحسّان، إنه يقلقني بتحديه لنا، وتحديه لسلطة الروائي على هذا النحو السافر، إنه لا يتورع عن التواجد بمنطقة الشاطئ هنا عارياً، عدا عن عداوته المعلنة لخاطر وسيرين.

. لكن الأخطر هنا هو كنان ياجودي.

. لماذا الأخطر؟.

. كنان ليس واضحاً بعكس فياض، إن لديه مساحةً في قلوب الجميع هنا، الكل يحس أنه ورث حكمة أمه التي يقدرها الجميع كما تعلمين.

. لكنه لا يتكلم مع أحد لا يتحرش بأحد كفياض، وهو يتجاهلني وإياك تماماً.

. هذا أخطر ما في الأمر.

. كيف؟.

. إنه يبدو مسالماً ولا يصطدم بأحد، وإن اصطدمنا نحن به أو ضيّقنا عليه كما نفعل مع فياض، فقد يكسب تعاطف بقية الشخوص معه.

. أوه.

. يجب أن نقتله ياجودي.

. حسّان!.

هتفت فيه بذعر.

. فكري بالأمر جيداً، ألا يذكّركِ مايفعله هذا الشاب بما كانت تفعله أمه معنا؟.

. لا أريد أن أفكر بقتله أبداً، يكفينا قتلاً.

. قتله كقتل أمه لم يكن أبداً خياراً.

. ومن سيقتله، أنت أيضاً؟.

. ربما خاطر من سيفعل هذه المرة.

. هل يستطيع؟.

. إنه يكاد يكون هو ظل الروائي من بين سائر الشخوص هنا.

. وفياض، أنت لا تهتم به كاهتمامك بكنان؟.

. فياض لا يؤثر كثيراً على بقية الشخوص ككنان، إنه مشرد هائم على وجهه، لو أمكن طرده وقطع الطريق عليه لئلا يأتي إلى هنا فستصفو الجزيرة من المشاكل.

. وعدم رؤية كنان ستسبب لنا وللجزيرة بالكثير من المشاكل، إنه عزيز ومقدّر هنا.

يجب أن نفكر بطريقة مثالية للتخلص منه على يد خاطر.

. فكر وحدك.

. ماذا تعنين؟.

. لا أحب القتل.

. تصرفتِ بنفس الطريقة مع أمه، أتذكرين؟.

أشاحت ببصرها ولم ترد.

. لقد كان الروائي حكيماً جداً، حين طلب أن تبتلعي لسانك في حضوري وألا تجادلي.

حدَجَتْهُ بنظرة صارمة:

. هل أعيق نصه الروائي الآن؟.

لكن حسّاناً لم يرد، نهض واقفاً وانصرف.

- 3 -

جسدٌ أسمرٌ ممشوق ينظر إلى نفسه دائماً بهوان، يتطوح في مشية ناعمة وصدر ناتئ صغير كما لو أنه بدأ يتكثّب للتو، مع لحية خفيفة في الوجه وصوت أجش، كتفان صلبتان وزندان قويتان وخصر حددته يدي المستعجلة وأنا أضع خطة الرواية، فلم أعرف حين نحتُّه أول مرة بقلمي، هل أجعل من صاحبه رجلاً أم امرأة؟، فكانت هويته الجنسية المضطربة تراوح دائماً بين الأنوثة والذكورة، تتعثر في سلوكها وفي تقديم نفسها للآخرين الذين لا يعرفون كيف يصنّفونها، لكنني حين صمّمت جسده على هذا النحو المتداخل، أعجبتني جداً النتيجة، وقررت أن أسلكه بالرواية على هذا النحو.

كان الشخوص يتجادلون كثيراً حول أي اسم يجب أن يكون هو اسمه النهائي، حسّان وخاطر يُصران على أنه تالة، حين يدققان في ثدييها النابتين بخجل على سطح جسدها، في حين تتشدد سيرين وجودي في أنه يجب أن يكون أصف، بسبب اللحية النابتة بوضوح في وجهه.

وكما لو أن كل فريق يرفض أن تنتمي إليه فيرميها على الفريق الآخر، وكما لو أن عدم نقاوة جنسها، يجعل منها محلاً للتشكيك الدائم والسؤال المستمر، دون اهتمام بما يشعر به صاحب هذا الجسد المتشظي بين هويتين، وكيف يرى نفسه وأين يريد أن يضعها بالضبط، وهل لزاماً عليه أن يضع نفسه في هوية معينة بالذات، أم يحق له أن يبقى في منتصف المسافة بينهما، دون أن ينتمي لإحداهما بالضرورة، وهل يمكن إصلاح ماخُلق معيباً أول مرة؟. ومن الأجدر باللوم هنا هل هو الروائي أم الشخصية؟.

أما أسيل ونينا فقد كانتا حائرتين، فلم تحسما أمر تحديد هويتها يوماً، لا باحتسابها على الذكور ولا باحتسابها على الإناث، لكن كان لابد لفياض وكنان أن يتدخلا، حين كانا يريان شخصيتها تتخبط في الشعور بالحيرة والإثم، وتحاشى الظهور حين ترى الجميع يجلسون معاً، حتى لا تعاني حَرجاً، وهي تبحث عن مكان لتجلس فيه، فكان فياض بحدته وسخريته من الجميع يقول إنني كروائي، يجب أن أخجل من نفسي حين أفعل هذا، وأسلكها في الألم بسبب شيء قررته أنا لها، أما كنان فكان يمتعض من الكل لموقفهم منها، ويرفض أن يرى فيها شيئاً يستحق كل هذا الجدل، ويقول بأن كل الكائنات تنجب أبناءً مثل أصف وتالة، وأن سائر الكائنات لا تحاكم أبناؤها على هيئتهم، وأن هذا أمر تعرفه كل الجزيرة قبل أن تتغير.

لطالما شعرت شخصية أصف وتالة، بألم الإصرار على تصنيفها أينما حلت، كانت تشعر بأنها ملزمةٌ دائماً بأن تكون واحداً منهما بالذات، أما تالةُ فقط وأما أصف فقط، ولطالما شعرت بأنه لا يمكن القبول بفكرة وحدتهما فيها، ورغم ذلك ظلت متعلقة بكلام جودي وحسّان عني، كروائي قدير أَحكم تصميم دورها في نصه، وترتاح حين تصدق بأنها ليست مذنبة حين ترمي على كاهلي عبء ظهورها بهذه الهوية غير المحسومة، لكن شخصيتها اللعينة لم تستطيع أن تمنع كل ذلك الشك من أن يغزوها، حين ترى الازدراء في عيون الشخوص الذين يشاركونها الإيمان بي، في الوقت الذي يدينونها هي على دورها الذي حددتُه لها.

شخصية أصف وتالة، لم تعد بعد فترة من زمن السرد، بقادرة على تحمّل كل ذلك الضغط والتأنيب، ولا على تحمل المزيد من

الازدواجية، فتخلّت مع الوقت عن انهزاميتها أمام كل من يسخر منها، حتى أنها مرة صفعت سيرين بقوة على صدغها حتى ترنحت، حين سألتها ساخرةً إن كانت تبول واقفةً أم جالسة.

وشيئاً فشيئاً، صارت تُظهر كثيراً من العداء والكراهية تجاه خاطر وسيرين على وجه الخصوص، حتى جودي وحسّان لم يسلما من رد فعلها العنيف والهجومي، حتى خاف حسّان أن يتجرأ بقية الشخوص عليّ، إن استمر الحال بها هكذا.

- 4 -

. إحدانا تحب رجلاً لا تستطيع الحصول عليه، والأخرى تكره رجلاً ولا تستطيع التخلص منه، وكل هذا بسبب الروائي صانع هذا العالم البغيض.

. توقفي يا نينا، هذا الكلام لا ينبغي أن يقال عنه.

قالت أسيل بقلق.

. لكننا نعاني بسببه.

. امضي في الطريق التي وضعها لكِ، عليكِ تقبّل تعليماته بلا عصيان، وضمن هذه الحدود اسلكي في الرواية بلا شكوى، ولا تبرم.

. هل تفعلين أنتِ؟.

. نعم.

. أسيل، أنتِ تعانين لأنكِ تحبين فياضاً، وفياضُ لا يكترث بكِ، وأنا أعاني لأنني أكره خاطراً، وخاطرُ لا يأبه بكراهيتي له.

. ماذا تحاولين معي يانينا؟.

. أصارحكِ بما يحدث معي، لأنه بالذات ما يحدث معكِ أنتِ أيضاً.

. لا تظني بأنني قد أنحرف عن إيماني بصانع هذا العالم، أو أنني قد أرفض الدور الذي رسمه لي بالرواية، حسناً؟.

قالت بما يشبه التحذير.

. لطالما كنا صديقتين يا أسيل، فهل فرّقت بيننا معرفته ومعرفة الأدوار التي حبسنا فيها؟.

. هل تشككين بطُرُقِهِ لنا يانينا؟.

ردت أسيل بشحوب، وقد تقلص وجهها.

. أعترف لك بأن الأفعال التي يطلبها مني، والأقوال التي يريدني أن أتلفظ بها لا تريحني ولا ترضيني.

. هو بالذات لا تسعه أقوال، ولا تحصيه طرق، نهايتكِ كبدايتكِ التي وضعها لكِ، لقد سلكتِ في البداية كما ينبغي لكِ، واصلي حتى النهاية التي رسمها لكِ أيضاً يانينا، وضعي ثقتك به وأنتِ تفعلين.

. لقد سلكتُ ببداياته مع وجع كبير، فهل سأنتهي إلى وجع في نهاياته أيضاً؟.

. هذه الأسئلة لا تنبغي لنا يانينا، توقفي أو تحدثي قليلاً مع جودي.

. تبدين شديدة الثقة به يا أسيل، إلى حد أن تعتبري أن الاستفهام شيء لا ينبغي لنا.

. نعم

فلماذا أنت تعيسة إذاً؟

. أعرف أنني سأسعد بخلودي معه.

. لقد كانت حياتنا أفضل نحن النساء قبل أن يحدث كل هذا.

. كنتِ ستستمرين بالتزاوج كما تفعل الحيوانات؟. يتقاتل الذكور عليكِ، والأقوى يؤسس معكِ عائلة؟.

. حين أدخلَ الروائيُّ الحبَ في اختيارنا لقريننا فسد كل شيء.

. آه، لا يمكن أن تكوني جادة.

. لماذا يا أسيل؟.

. لأننا نسلك كبشر لا كحيوانات في الرواية، والحيوانات لا تفقه الحب، تدور فقط في مدار الغريزة.

. لقد جرى ربط هذا الحب بما يستحسنه صانع هذا العالم فقط، لا بما تستحسنه قلوبنا نحن، رغم أننا نحن من سيتزوج بالنهاية، وليس هو.

. إن عقلنا محدود ولا يمكنه إدراك كل شيء، وهو وحده يعرف ما يصلح لنا وما لا يصلح، لذا كان المعيار أن نحب فيه ونكره فيه.

. ولماذا تبدو قلوبنا غير محدودة، فتحب من تشاء وتكره من تشاء؟. أليست قلوبنا صنيعته أيضاً؟.

عندما لم تجب أسيل، واصلت نينا بأسىً:

. لِمَ أنتِ متناقضة هكذا يا أسيل؟ ألا يعارض قلبك ما يمليه عليه عقلك أيضاً؟.

تململت أسيل، وهي تقول:

. أشعر بأن يوماً سيأتي، سيسلك فياض في الطرق التي حددها له صانع هذا العالم وسأقترن به حينها.

. وإن خاب ظنك في النهاية؟.

أشاحت أسيل بوجهها فقط، ولاذت بالصمت، لكن نينا عادت تقول:

. وماذا عني أنا حين لم أسعد مع خاطر الذي سلك بالطرق التي حددها لنا الروائي منذ البداية؟.

. ربما لأنكِ تشككين، ألم تسمعي نفسك الآن؟.

. لم أشككْ يوماً بما قاله جودي وحسّان، بل أنني أشعر بكثير من الراحة فيما قالاه عن سبب وجود هذا العالم ومصيرنا نحن فيه، لكنني لا أفهم لماذا لا أستطيع أن أسعد مع خاطر أبداً، ثمة خلل لم أفهمه.

. تحدثي مع جودي إنها بالجزيرة الآن.

*****

حين نهضت نينا جلست أسيل وحدها تفكر بفياض.

إنها تتململ في السرد أمامي، وأنا أراقب بقلق تبرمها من الجُمل التي أضعها على لسانها، إنها تعاين انجرافاً كبيراً نحو فياض الآن أكثر من أي وقتٍ مضى، ولا تستطيع أبداً أن تتوقف عن التفكير به، رغم أنني أمرت قلبها ألا يفعل، فمذ تكلّم حسّان عن أن الحب وحده هو أساس الاقتران بين الرجل والمرأة، أرادت أن تظفر به قريناً، سيما أنه لم يحفل يوماً بتطوير مهاراته الجسدية كي يتسابق للظفر بأي أنثى، بل كان دوماً شارداً يتأمل وينحت كل

الأشكال التي يراها أمامه، حتى إنه نحت يوماً وجه حكيمة الجزيرة الضحوك، التي عصف موتها به وكاد يطيح بصوابه، ومذ ذاك، وهي تعد نفسها بأنها ستقترن به في آخر الرواية وتخلد معه.

لكن فياضاً ضالٌ كبير، ولا يحب أن يأمره أحد بشيء أو ينهاه أحدٌ عن شيء، وكلام حسّان عني لم يفلح في تغييره وزحزحته عن موقفه قيد أنملة، وهي باتت تخاف عليه من سيرين الفظة ومن خاطر، وتخشى دائماً أن يتعرضا له بسوء، بل وتخشى أن أُسقطه من نصي إلى الأبد، وأن أطرده من الورق.

أطرقتْ تفكر في كلام نينا، ولم تستطع ألا تتأمل قليلاً قولها إن الحب هو مايستحسنه الروائي فقط، كما لم تستطع أن تتجاهل كلامها بأن العقل يقبل بالحدود، في الوقت الذي يرفض القلب كل هذه الحدود، وقد تجرأت يومها على السؤال الممنوع، وهو إذا ما كنتُ أعلم بهذه المعضلة، حين صممتُ شخصيتها ووضعتُ الكلام على شفتيها، ولماذا تركتها تتعذب بحبها لفياض.

- 5 -

أما هو نفسه، ذلك البوهيمي الذي شكّلته بقلمي، رثاً وحيداً ويعيش حياةً فوضوية، نحّات تجريدي منشغلٌ بقضية الموجودات، لكنه ينأى عن مشابهة المشخصات بصورتها المرئية، ليبحث عن ظلها وعن رمزيتها، فإن لم يجد استجوب المادة بين يديه عنها وهو ينحتها، لم يشأ أن يطيعني حين استدعيته من العدم إلى الوجود، مفضلاً الذهاب في الاتجاه المعاكس لي تماماً.

ظننتُ أنني سلكته جيداً منذ البداية في الدور الذي حددتُه له، لكنه عوضاً عن ذلك حرف مجاري اليقين بي إلى مجاري التشكيك والتوجس، والتوق لمعرفة ما الذي يضطرم وراء المحسوسات، وما الذي يمور خلف المادة، كي تنتج كل هذه الحياة، فتغيّر لحظة أن استفاق على الورق وتطلع حوله، فشاهد المحسوسات ولمسها بأصابعه السمراء القاسية، لكنه، لم يفهم سر فورانها بالحياة.

تململُه من الرواية كان مبكراً جداً، حتى لم ينضوِ في الشخصية التي حددتها له، ولم يقبل بأن يتفوه بأي كلمة من الكلمات التي وضعتُها على لسانه في كل الحوارات، لقد أقلقني على الرواية دون أن يدرك أو يهتم.

ظننتُ مرةً أن رفضه لدوره، يعود للطبيعة التي منحتُه إياها، وللخيبات التي يُمنَى بها، بكل مرة يستنطق المادة التي بين يديه فلا يقدر، أو حين يستجوب الطبيعة والذوات من حوله، فيفشل، وأن استعصاء الموجودات من حوله عن البوح له قد أحبطه، فقلتُ أواسيه:

. ستجتاز كل إحباطاتك يافياض إن تعلقتَ بي.

. وأنا لست مهتماً إلا بك.

. ماذا تعني؟.

. هل أنتَ حقيقة؟.

باغتني السؤال.

. أنا كذلك.

. لماذا ليس بوسع عقلي أن يدركك؟.

. ما هذا السؤال يافياض؟.

. إنه جزء من كوني إنساناً أن أسأل، أليس هذا هو ما يميزني عن الحيوانات، كما قلت لنا مذ أوجدتنا بنصك؟.

. عقلك محدود لا يدركني.

. إجابة ليست موفقة.

. أنت فضولي، لديك بعض المعارف، وتشعر أن معرفتك بي منقوصة.

. معرفتي بك معدومة.

. تعلّق بالدور الذي حددتُه لك بالرواية وامضِ فقط للأمام.

. لا.

. لماذا؟.

. أريد أن أراك.

. فياض، كن حذراً، لا تتورط بكلام كهذا أبداً.

. أريد أن أتعرف عليك، هل أطلب الكثير؟.

. جداً.

. ياسلام.

. لا تسخر الآن، انتبه!

. لماذا أنتَ متعالٍ في جوهرك علينا؟.

. لا يمكنك أن تدرك جوهري وماهيتي، الأمر دقيقٌ جداً، عد للدور الذي صممته لك وكفى.

. لماذا الأمر دقيقٌ جداً؟.

. هناك أحجبة تحول دون ذلك.

. ما هي؟.

. إنها عقلك وجسدك.

. ولماذا ليس بوسعهما أن يكونا كشفاً؟.

. انظر في الأشياء حولك، ستدركني من خلالها فقط.

. تريدني أن أُعمِل حواسِّي في تلك الوسائط؟.

. حواسك هي الوحيدة المتاحة لك لتفهم يا فياض.

. حواسي تدرك الموجودات وتدرك المادة.

. بالضبط.

. لكنها لا تدركك أنت، حواسِّي كلها لا تُتيحك.

. هذا لأنني غيب.

. ماذا عليّ أن أفعل كي أدرك الغيب؟.

. ليس ممكناً لك.

. لماذا ليس ممكناً لي؟.

. جسدك حبيس خلف الكثير من القضبان.

. وعقلي؟.

. عقلكَ مُعطى تُعرف ماهيته في الزمان والمكان والموجودات فقط.

. يعني لن أعقلكَ أبداً؟.

. أنا هناك يافياض، هناك.

. هناك أين؟.

هتف بلوعة وشوق.

. وراء المادة.

. ووراء العقل؟.

. وراء القلب والجسد والحواس، وراء الزمان ووراء المكان.

. هذا أكثر مما يمكنني فهمه.

. قلت لك.

. أنتَ تعبث بي.

. مستحيل أن أعبث يا فياض.

. أتحرّق شوقاً لمعرفة ماذا يوجد هناك، ما الذي يدور خلف الموجودات، ما الذي يدور خلف العقل، وما الذي يدور خلف القلب؟.

. هذا محال لك.

. كيف أصل لتلك القوة التي تضطرم خلف جوهر الأشياء، كيف أصل إليك؟.

. فياض؟.

. ماذا؟.

. ليس ثمة بوابة واحدة هنا تتيح لك الخروج صدقني، ليس هناك إلا جدار وظلام، إنهما عقلك وجسدك، إنهما حجابان لا يمكن فتقهما.

. أنا عالق بفخٍ وجودي معك.

. مطلقاً.

. إذاً؟.

. إذاً، ماذا يا فياض؟.

. هل أنتَ حقيقة؟.

. أنا الحقيقة.

. والموجودات والمادة والظواهر؟.

. كلها تمظهرات لي.

. أنتَ هيَ؟.

. أنا نفسي يا فياض.

. عرفني بك، أرجوك.

. أنا مطلق، مكتفٍ، ضروري، مستمر، غير محدث وغير مشروط.

. وهي؟.

. نسبية، فانية، مشروطة بي وحدي.

. أنت لست حقيقة، ولم تكن يوماً.

صحت:

. توقف عن هذا الهراء.

. ليس ثمة حقيقة واحدة هنا، غير الحضور المادي للأشياء من حولي، حتى أفكاري وتطلعاتي ومشاريعي، كلها عمليات ذهنية تدور في حبال عصبية في دماغي، حتى الكلام يمكنه أن يتجسد صوتاً يعبر موجات الهواء، وينفذ إلى قوقعة أذني، كل شيء من حولي مادي، وهذا ما أؤمن به فقط.

. أنتَ لا تدرك كل خواص وصفات المادة، أنتَ لا تفهم العِلل لتستطيع أن تحدس العلاقة بين ظواهر المادة، فإن كنتَ لا تدرك حتى صفات المادة، فكيف ستدركني أنا الجوهر؟.

. عقلي يبحث عن سر الوجود، لكنه لا يتعثر بغير هذه الموجودات من حوله، وكونك غيب لا يمكن للعقل أن يتمثلك، فكيف تطالبني بالتصديق بوجودك؟.

. هذا طبيعي، فعقلك مشروط بالموجودات.

. ماذا تعني الآن؟.

صرخ بيأس.

. لا يمكن لعقلك أن ينتج أية معرفة، ويوصلها إلى الآخرين إلا إذا عبر عنها بقضايا واقعية، فهو يخضع بالمطلق لهيمنة الواقع.

. والغريب أنك تريد من المشروط بالواقع، أن يدرك غيباً ينأى بنفسه عن الواقع.

. طلبت منك أن تسلّم بحكمتي وبقدرتي فقط.

. إن كنتَ قديراً لهذا الحد، فلتأتِ لعالم المعاينة كي ألتقي بك، ولتوقف تحزيري وتشكيكي بك.

. هذا حوار لا يقود إلى مكان.

- 6 -

في ظِل نخلات مائلة تكاد تنطرح على الرمال، على مساحة صغيرة من الساحل المقابل للبحيرة، كان المكان في ريعان الشباب، مساحةً بريئةً ومسالمةً مرئيةً فقط للعارفين، اتّكأ كنانُ على حشيّة صغيرة شكلّها بثني شباك الصيد، وغطّاها بخرق بالية، كان يستعملها لاتّقاء أشعة الشمس حين تشتد، وهو في الجون بين الصخور.

في ذلك السكون الذي يشبه الأسى، أغمض كنانُ عينيه ورأى للفور أضواء الشمس ترتسم في ظلمة جفنية، بنفسجية وحمراء ما تلبث أن تتميع إلى نقاط تتموضع في المنتصف ثم تتبدد حتى

تضمحل، وراح يفكر كم أن كل شيء كان بخير، قبل أن يصير الجميع متعادياً بسبب الإيمان بكائن غامض متعالٍ وغير مرئي، يطلب منهم أن يسلكوا في أدوار مقدرة عليهم، صممها خصيصاً محبة لهم، حتى يخلدوا معه في عالم آخر غير معروف ولا مفهوم.

لم تكن هناك أكاذيب، ولا هويات متعادية لشخص مؤمن وآخر ضال، وإنسانٌ عاقلٌ وحيوانٌ غريزي، لم تكن ثمة حِيَل للسيطرة على سكان الجزيرة وضربهم في بعضهم البعض، لم يكن غير حياة فطرية طبيعية ودودة، حيث الكل مشغولٌ فقط بالعيش، وحيث اعتادت جميع الكائنات على التعايش في توازن، ترتبط ببعضها بصلة قربى خفية، حتى دخل ذلك الروائي على الخط، مُلغِياً ذلك التوازن الطبيعي في المكان، ومحطماً ذلك الرابط الخفي من القرابة، ليضع الحواجز والقوانين والشروط على من سلكه في روايته، ليعيش معه ضمن واقع نأى به من محض العيش إلى وهم الخلود.

لكن بعد لحظات قصيرة، كان كل ما يروح ويأتِي بدماغ كنان، قد بدأ يتلاشى ببطء شديد، زحف خدرٌ لذيذ إلى رأسه، ومسح هدوءٌ غريبٌ وسلامٌ المكانَ من حوله، فابتعدتِ الأصواتُ وخف وهج الحر، وتراجع وقع الحياة من حوله، فدخل في ما يشبه الدوامة، هدهدته قليلاً، ثم تركته نائماً هناك، وانصرفت.

مضى بعض الوقت قبل أن ترتسم تجعيدة على جبينه الأسمر، حين استعاد للحظة شعوره بالزمان والمكان، وخُيل إليه كما لو أنه يسمع صوت صراخ ودبيب أقدام بالجوار، وحين خفت الصوت من جديد، ظن أنه يحلم فعاد يغط في نوم عميق، لكنه، هب مذعوراً

حين أحس بدبيب الأقدام يقترب من المكان الذي يقيل فيه، وصراخاً يرتفع طالباً النجدة، وينادیه بالاسم.

تحرك من مكانه فوراً باتجاه مصدر الصوت، تطلع من بين أغصان النخلات المائلة، فهاله تجمهر نصف سكان الجزيرة عند شاطئ البحيرة، وحين اقترب كان وجه أسيل الذي خلا تقريباً من اللون، أكثر من كافٍ ليفهم أن أحدهم يعاني مأزقاً خطيراً في الجون الصغير، حيث الصخور المسننة تغطي جزءاً من الشاطئ، لكنه صُدم حين رأى سمك قرش، يبدو كما لو أنه قد فقد صوابه، وهو محتجز هناك بين الصخور عاجز عن الخروج.

كان القرش يراوح مندفعاً للأمام وللخلف بعصبية تثير الشفقة، وكانت أمامه مباشرة على الصخور نينا صُحبة ولد صغير، يبكي بكاءً محموماً، وقد تلطخت رجله بالدماء، وكذلك نينا، كان جزءٌ من ذراعها وحتى جنبها الأيمن ينزف دماً، وهي تحتضن الصغير بوهن، وترسل نظراتها الزائغة نحو الواقفين على الشاطئ.

. كنان، كنان، الحوت سيقتل نينا إنه يحاصرها هناك من بعض الوقت، انظر.

تكلم خاطر وهو يلهث ويرتج من الفزع، وفي يده ما يشبه العصا لا يمكنها أن تفعل شيئاً مع ذلك القرش الهائج، ومن تلك المسافة البعيدة التي يقف منها.

. نينا، يا كنان، إنها توشك على الموت.

قالت أسيل وهي تبكي.

. ما الذي يحدث هنا يا أسيل؟.

. جرف الجزر الولد الصغير وسحبه بعيداً بين الصخور، فاندفعت نينا وراءه لتعيده إلى الشاطئ، لكن فجأة اندفع هذا القرش إلى الجون حتى علق في المنتصف، وللفور اصطدم رأسه بإحدى الصخور وفقد صوابه، صار يغوص ويطفو، يغوص ويطفو، ثم هاجم نينا والولد ونهش لحمهما أمام عيني.

قالت وانهارت باكية.

. من أين جاء الحوت أكاد لا أفهم؟.

أجاب فياض، الذي هرع للمكان ومعه ثلاث بلطات كبيرة، وشبكة صيد تخص كنان:

. إن موت عجوز الجزيرة جعلنا نفقد صلتنا بالطبيعة، فلا نعرف متى ترمينا بكوارثها، لقد كانت تراقب وتعرف مواعيد ارتفاع المد، وفوران البركان، وتزاوج حيتان المياه الملحة، لقد ذهبت معارفنا بذهابها.

تدخلت أسيل، كي لا يثير فياض حفيظة خاطر، الذي نظر إليه شزراً:

. عندما ارتفع المد اندفع القرش باتجاه الهلال الصخري، الذي يربط البحيرة بالبحر فدخل إلى هنا، وأراهن أنه يشعر باختناق من هذه المياه وبخوف لوجوده قرب البشر.

كانت جودي وحسّان هنا أيضا، الخوف والفزع خطف لونهما، لكن، جودي استسلمت للبكاء، وهي تلوح لنينا بيأسٍ من بعيد.

. ستموت نينا يا فياض هي والطفل يجب أن نفعل شيئاً.

صاحت أسيل من جديد.

. لهذا أحضرت البلطات وشبكة الصيد، تعال لنبعد ذلك القرش يا كنان قبل أن يقتلهما.

وقبل حتى أن يُنهي فياض جملته، كان كنانُ قد اختطف الشبكة من يده وتفحصها للفور، لكنه رماها وصاح على خاطر الواقف كأبله بجواره:

. هاتِ لي حبلاً ثخيناً والحقا بي فياض وخاطر هيا.

لم ينتظر كنان رداً، ركض سريعاً نحو الشاطئ، بعد أن انتزع إحدى البلطات التي غرسها فياض في الرمل أمامه.

- 7 -

صمَّ كنان أذنيه عن الضجيج والبكاء من حوله، رفض أن ينظر إلى نينا والطفل الذي يصرخ بين يديها، مفضلاً التركيز على الزعنفة الرمادية وهي تجيء وتذهب أمام عينيه، تغوص لفترة ثم تخرج مهتاجةً فائرة، وبكل الحنق المتصور تندفع نحو الشاطئ، لكنها ترتد عنه حين تشعر بالاختناق بسبب ضحالة المياة.

تسلّق كنانُ إحدى الصخرات، وقفز عنها فوراً للماء وبيده البلطة، بعد أن أشار لخاطر وفياض على الشاطئ، وفي الغمر الأزرق الساخن، فتح عينيه على اتساعهما، فلمح من بعيد ذيل القرش يتحرك ذهاباً وإياباً، بشكل يائس في دائرة كبيرة بين

الصخور، يعود لنفس المكان في كل مرة، ويلمس نفس الصخور ليبتعد عنها من جديد.

فكر كنان بأن سمكة القرش تعاني جرحاً ما في ذيلها، فحركتها مضطربة على عكس كل القروش التي شاهدها في حياته، خرج للسطح، ليلتقط أنفاسه، فلمح فياضاً يغطس هو الآخر، في حين بقي خاطر بعيداً وفي يده حبل ثخين، وهو ينظر بقلق وتوتر إلى الماء، ويسحب قدميه بسرعة للخلف كلّما لطمت موجةٌ الصخورَ ونثرت مياهها عليه.

عاد فغطس من جديد، وهو يرى فياضاً يقترب بحذر من السمكة، فسبح باتجاهها فوراً، وحين انتبهت السمكة لاقترابهما منها، استدارت صوب فياض الذي توقف قليلاً ثم غاص للأسفل، ودار حول نفسه، ثم سدد لها ضربةً فاشلةً ببلطته أسفل بطنها، لم تفلح إلا في إثارة جنونها، فسبح كنان بسرعة صوبها مشيراً له أن يسبح باتجاه نينا والصبي، وحين رفض فياض، اضطر كنان لتلقي هجوم السمكة وحده حين تركت فياضاً واتجهت نحوه مباشرة.

أراد كنان تشتيت السمكة، وهي ترى كلاً منهما يسبح في اتجاه، وأن يجعلها تنتبه إليه وهو يسبح باتجاه يتيح لها أن ترى ممراً للخروج، والعودة إلى بيتها في المحيط، لكن فياضاً إما لم يفهمه أو أنه رفض أن يتركه وحده يفعل ذلك، لكنها تقترب الآن بسرعة وفياض بعيد، ها هي تأتي صوبه، بل وتحملق فيه بغضب، معتقدةً أنه نصب لها فخاً، كي تأتي من البحر، وتعلق هنا بين الصخور، حتى يصطادها ويأخذها من عائلتها إلى الأبد.

أُنثى رمادية كبيرة وممتلئة عند البطن، وكما عيّنتها الطبيعة تماماً، آلة معدة بإحكام للافتراس وبعث الرعب في القلوب، فكٌ مفتوحٌ على آخره، مندفع بجنون لأجل القتل، مع صفين من الأسنان المدببة والضخمة، تتلألأ في تعكر المياه مثل ألماس مصقول، حتى رأى كنان حلقها الأحمر المضرج واضحاً حين اقتربت.

تلك السمكة الكبيرة، تخطت كل الحواجز الصخرية والطبيعية، وحاجز الماء الملِح والماء العذب، خصيصاً كي تأتي إلى هذا الجون، عاشت عشرات السنين، تزاوجت وأنجبت وسبحت في قطيع مع أهلها وأصدقائها، لكنها كانت تنتظر هذا اليوم، كانت تقترب كل يوم من حتفها، فقد ولدت هناك في أعالي المحيط، كي تموت هنا على يد كنان بالماء العذب، كل نَفَس أخذته، كل حركة قامت بها يوماً إنما لتدفع بها إلى هذا القفص الصخري المسنن، كانت تعيش خصيصاً لتموت في هذا اليوم.

وفي لحظات قصيرة من عمر الزمن، كانت كما لو أنها هي كل الزمن، مرت حياة كنان كلها أمام عينيه، رأى الجزيرة وشاطئ النخيل والصخور، وأمه المسجّاة أمامه، رأى القرود، والسُحب البيضاء في السماء والأصداف، وفياض يتشاجر مع سيرين وخاطر، ونينا التي تبكي دائماً مذ اقترنت به، والعرائش التي كانت تجمعه بالبقية قبل أن يخربها حسّان، مرّ كل هذا في لمح البرق، واستذكر كل شيء مر به من طفولته، حتى لم يتبقَ غير رد الفعل الفطري والطبيعي لكائن يواجه الموت، والدافع الأول والقديم وراء رغبة جميع الكائنات بالبقاء، ذلك الدافع الذي يضطر المرء إلى أن

يقول في اللحظة الأخيرة والحرجة: لا، لست أنا من سيموت اليوم بل أنتِ، واليوم بالذات هو يومي أنا.

وفي آخر لحظة حياة بعينيها نظرت إليه، وكما لو أنها عرفت أنه سيقتلها، هجمت فتحفز، اقتربت فتشنج، تمددت الشرايين حول فمها المفتوح عن آخره وتقلّص هو، أحنت رأسها الكبير قليلاً وفغرت فاها لتمزقه، فوضع بلطته بين عينيها، حتى انغرس النصل المسنون عميقاً في رأسها، فهدرت واهتزت وسحبت نفسها بحركة لا إرادية، وانفلتت جانباً والبلطة لا تزال مرشوقة في رأسها، الذي غطى بدمائه المشهد فلم يعد كنان يدري من أين ستأتيه.

ولأنه ابنٌ آخر للماء مثلها، ولأنه أخو هذه السمكة مذ وعى على نفسه ولها، عرف أنها ستستمر بالسباحة في نفس المستوى، فهبط فوراً للأسفل وانقلب في الماء على ظهره ليراها تمر بسرعة سهمية من فوق رأسه مباشرةً وتذهب باتجاه الصخور، فعاد وعدل نفسه وسبح للأعلى حين شاهد فياضاً يعاجلها في جنبها بضربة قوية غارت لها البلطة في لحمها الذي انشق أمامه، لكن ذيلها سبق هروبه ولطمه في صدره، وللفور انبثقت الدماء واختلطت بينهما، وكلاهما يتقلّب في القطن الأزرق الساخن.

خرج كنان للسطح وهو يلهث مقطوع الأنفاس، لكنه أشار لخاطرَ أن يرمي له بالحبل، وأن يربط نهايته على الصخرة التي يقف عليها هو، وحين استراح قليلاً، عاد ليغوص من جديد ويبحث عنها وعن فياض، فانتبه لتطوحها في الماء وهي تتقلّب، وتبعث حولها بكميات من المياه علتها الرغوة الحمراء، لكنه لم يستسلم،

غاص نحو الأعماق وقبل أن يلتفت بحثاً عنها، كان الحبل قد انسحب منه بشدة، حتى جرد يديه وجذبه معه فأفلته بسرعة لئلا يجذبه إلى حيث لا يرى، وكانت هي تضرب برأسها بالصخور حتى انغرست البلطة أكثر فيها، وصارت تتخبط في الحبل، فخرج بسرعة ليرى فياضاً وقد تسلق إحدى الصخور بجوار نينا مباشرة، وهو يسحب نفسه بإعياء ويبدو صدره متسلخاً وينزف بالدماء.

لم يحتج كنان بعد عشر دقائق إلى أكثر من مرة واحدة ينزل فيها للماء من جديد، ليشاهدها تتلوى بالحبل بيأس ووهن، حتى خارت قواها واستسلمت للرقاد في أسفل القاع، ونصل البلطة يلتمع في أعلى رأسها.

- 8 -

أصف، يبدو كما لو أنه ينتقم من الجميع، لم يعد يتهاون مع أحد، بل إنه أحياناً لا ينتظر أن يبادره أحدٌ بالكلام، إذ يبادر هو بمهاجمته منتقصاً إياه، حتى صار الكل يتململ منه، وما كنت لأترك كل هذا يمر دون تأنيب، حتى لا يستفحل الأمر.

قلت له يومها بقوة:

. صرتَ تتململ كثيراً وتثير الكثير من المشاكل، أتلاحظ هذا؟.

بدل أن يجيب سأل:

. من أنا؟.

زفرتُ بضجر، طلبتُ منه أن يهدأ وأن يتركني أعمل.

. أرجوك أريد أن أعرف من أنا.

. أنتَ أصف.

. ولماذا إذاً تالة؟.

. لأني أريدكَ أن تكون تالة.

. ما معنى هذا؟.

. لن تفهم.

. لماذا خلقتَني مشوهاً، لماذا جعلتني في مرتبة غير محسومة بين الذكر واللاذكر، بين الأنثى واللاأنثى؟.

. لتحمل ميراث الأنثى حين تكون نصف ذكر، لاسبيل أمامه إلا أن يعود إليها، أنت ستعود للأصل، للأنثى.

. هذا لا يريحني.

رد بفظاظة لم تفتني.

. توقفْ عن إثارة المشاكل، وتحلَّ ببعض الأخلاق فقط، حسناً؟.

. تتكلم عن الأخلاق الآن، ماذا عن ذلك العربيد خاطر، الذي لا ينجو أحدٌ من لسانه وحتى يديه؟. وماذا عن سيرين التي تواصل الاستهزاء بي بسبب طبيعتي؟.

ضايقتني وقاحته، لكنني قلت بهدوء:

. التزم بدورك ولا شأن لك بغيرك من بقية الشخوص.

. دوري لم يعد يلائمني.

. ماذا؟.

باغتني ماقال.

. سمعتني.

. وما سر هذا التطور الخطير؟.

. لم أعد أتحمل ازدواجيتك، حين تطلب من أحدهم أن يسلك بأخلاق، ويسلك الآخر بوضاعة؟.

. ماذا تعني بذلك؟.

. أنت راضٍ جداً عن خاطر وسيرين الفظين، لكنك ناقم على فياض وكنان رغم مافعلاه من خير لأهل الجزيرة، كما أنك لا تضع حداً لعذابي.

زفرتُ بضجر وإعياء، طرقت بأصابعي على الطاولة، وأنا أباعد بين بعض الأوراق وأبحث عن الفصل الذي يخصه، لكني سمعته يسألني من جديد:

. ما هي الأخلاق في نظرك؟. وما هي الفضيلة؟. ما هي القيم؟. ما هي ضوابط أي سلوك حسن؟. من هو الطيب ومن هو الشرير عندك؟.

. ما آمر به هو الأخلاق والفضيلة، وما أنهى عنه هو الرذيلة، من يسلك في دوره المرسوم له هو الطيب، ومن يرفضه هو الشرير.

. هذا لا يناسبني.

. لماذا؟.

. أنت تربط الأخلاق بك وحدك.

. هذا ما يجب أن يكون دائماً.

. بل يجب أن ترتبط الأخلاق بمصدرٍ آخر غيرك دائماً.

. مصدر آخر مثل ماذا؟.

. بقيمة الإنسان من حيث كونه إنساناً، فقط.

. فضيلتكم الوحيدة أنكم أبطال بنصي، وقيمتكم تتحدد بإيمانكم بي كروائي.

. أريد أن أضع أخلاقي وحدي.

. هذا مستحيل.

قلت باستنكار.

. ولماذا؟. ألست أنا المعني بالمسألة كلها، فلمَ لا أضع قواعد الأخلاق بنفسي؟.

. لأنه ليس لك قدرة على تشكيل قاعدة مستقلة للصواب، من دون وجودي ومن دون إرشاداتي ومراقبتي لك طوال الوقت.

سكت أصف لبرهة، وحين أردت الانصراف عنه، عاد بإلحاح:

. أنا لا أريد أخلاقك المزدوجة وغير المريحة هذه، أريد أخلاقاً متفقاً عليها بيننا نحن كشخوص، أخلاقاً مدروسة تتبع منا، لا من طرف متعالٍ لا ينتمي إلى عالمنا.

. أنت بهذا تتخطاني.

. لا أريد غير أن تكون الأخلاق بالتوافق بيني وبين من يعيش معي، تتبع من معاناتنا وشروط حياتنا وظروفنا وتجاربنا وثقافتنا، أريد أن أقرر أنا والبقية، قيمة المصلحة التي نريد أن نحميها وأهميتها، فنطورها أو نهذبها عن طريق التوافق لا عن طريق التسليم والإيمان.

. ما هذا؟. ما الذي تقوله؟. أنا مصدر الرواية، أنا مصدر الأخلاق،

أنا مصدر كل شيء هنا، أنا منبع الحياة، والجمال، والتناسق، والأخلاق، والقوانين، والحق.

. تتكلم وكأنّ صُنعك هو الكمال.

. إنه كذلك، أنا الكمال وأنا الحكمة وأنا التدبير.

. بالنسبة لمن أنت هو الكمال والحكمة والتدبير، من غيرنا وغيرك هنا كي يحكم على هذا؟.

. أنت مثل صارخ وحيّ لقدرتي وعظمتي، انظر إلى نفسك.

. إن كان في فعلك الكمال، فلماذا أنا خنثى، لماذا خلقتَني مشوهاً بالرواية؟.

. لا أخلق التشوه أبداً، أنا أخلق فقط الاستثناء.

. أنا أتعذب لكوني استثناءً، وشخوصٌ آخرون يتعذبون لكونهم قاعدة، العذاب هو ما تُجيده فقط بحقنا.

. أنتم لا تدركون أبعاد الأمر، أنتم محدودون.

. هذا احتيال هائل على عقولنا، تقول إنك تتصف بالكمال والحكمة والتدبير، لكن من يُفترض أن ينصبّ عليهم كمالك وحكمتك وتدبيرك، يحملون عقولاً محدودة.

. لا يقتصر الأمر على وجودكم، انظر حولك، انظر إلى النظام، انظر إلى الترتيب والإبداع في التصميم، انظر إلى عالمك وقوانينه كيف تمضي في مجاريها، لتقرّ لي بالكمال والحكمة.

. لكننا الوحيدين المدركين من بين كل تلك المخلوقات، صحيح؟.

. لا عجب، فقد أنشأتُكم على هيئتي.

. لماذا لم تُنشئنا مثلك مكتملي العقل والمشيئة؟.

. كم خالق سيكون حينها في الرواية؟. كم حرباً ستثور على السلطة والنفوذ؟.

. إذاً هو الخوف على السلطة؟.

رد بنبرة ذات مغزى.

. تأدب معي، فصبري يكاد ينفذ.

. انظر حولك، ألاترى الألم الذي يعاني منه بعض شخوصك في عالم الرواية وأنا أولهم؟.

. إنه مقصود.

. ماذا يجب أن أفهم الآن، أنت هو الميزان وأنت القاضي وحتى الجلاد؟.

. ليس مهماً أن تفهم، عد لعملك في الرواية ولا تنحرف قيد أنملة عن الخطة التي وضعتها لك.

. أنت بهذا تقول إنك لا أخلاقي، صحيح؟.

. ليس كما تظن.

. عندما تملك القدرة على إنهاء عذابي لكنك لا تفعل، فأنت تثبت لي أنك روائي فاسد الضمير، ولا يحب شخوصه.

كلمته بمرارة، وأنا أشعر بقلق خفي:

. أنت مخطئ، تعلق بدورك كي لا تُحدث أية فوضى، الخلود السعيد ينتظرك.

. لقد فكرتَ في روايتك هذه منذ زمن بعيد، أعطيتَها الكثير من الوقت والعناية، والآن وقد خرجنا من رأسك، وصرنا شخوصاً من حبر في دفترك، تقول إننا مخطئون، وأننا نخالف خطتك، وكم سنُحدِث من فوضى؟!. أليس هذا غريباً، ألم تتوقع يوماً أننا قد نثور عليك؟.

تنهدتُ بمرارة وبصوت مسموع، وأنا أرد عليه:

. أنتم عجولون وغير صبورين، تعتقدون أنكم قادرون على إدارة شؤون أنفسكم، بمجرد قدرتكم على الشعور والتفكير، تريدون أن تكون لكم مشيئة، لكنكم لستم مزودين بما يجعلكم تتمتعون بها، أنتم حتى لا تجيدون رعاية أنفسكم بدون تدخلاتي المستمرة لحمايتكم، وإنقاذكم.

. ولماذا كل هذا؟.. لماذا تخلق عالماً كاملاً، قديماً وبعيداً، تبذرنا فيه، ثم تضطر دائماً للتدخل من أجل إنقاذنا وحمايتنا ورعايتنا؟.

. لقد منحتكم وعياً بهويتكم وبذواتكم المستقلة، وها هي عقولكم تبدأ بالتفكير بعيداً عني، فتصير سجناً وتصير عذاباً لكم.

. ظننت أن عقولنا هي حريتنا وهي سعادتنا.

. بعقولكم المحدودة استطعتم بعث كل هذه الأسئلة، وهذه الاعتراضات، وكل هذه الممانعة، وقد أردتم تقليدي ومشاركتي في الإرادة، أردتم مقاسمتي السلطة والمشيئة، انظر إلى مافعلته هذه العقول المحدودة، وفكر فيما يمكن أن تفعله لو كانت مكتملة.

. إنه الخوف إذاً؟.

. كيف؟.

. إنه خوفك على ملكك وعلى سلطتك إذاً.

. ألم أقل لك إن عقلك محدود، كيف يساوي الروائي نفسه بالشخوص؟.

. أنتَ تريدنا عبيداً في صورة شخوص، تهيئ لنا ما تزعم أنه خطة حياة وخلود، لكنها في الحقيقة خطة استرقاق، آسف، لن أكون عبداً لك.

. مخطئ، الحرية هي معي.

. الحرية هي في التبرُّؤِ منك، وإعلانك ميتاً.

. ستتعذب، ولن تصل لأية متعة ولا منفعة، لأنني لن أسمح بتمردك عليّ، مطلقاً، سأسحق أي محاولة هنا لتخريب عالمي، فأنتم مؤذون جداً.

- 9 -

قالت جودي:

. ماتقولينه خطير جداً يا نينا، لقد تجاوزتِ الحدود التي وضعها لكِ الروائي، أنتِ حتى لستِ مؤهلةً ولا مُهَيَّأة لتجاوز هذه الحدود.

. أنا أتألم يا جودي من المضي بدوري هذا مع خاطر، لا أطيقه يا ناس لا أطيقه، إنه يتزعم الوصاية عليّ، بل إنه يزايد عليّ بالتزامه هذا، حتى أنني أشعر كما لو أنه روائي آخر يجب أن أخضع له.

. أنتِ بهذا تشككين بمغزى ما فعله صانع هذا العالم لأجلك، وهذا ليس لصالحك يا نينا، صالحكِ معه، صالحكِ هو في الانضباط ضمن حدود دورك.

بكت بحرقة، فعادت تواسيها بلطف:

. أنتِ غير قادرة بعد على تلمس اللطف الذي أحاطكِ به، والهدف النبيل الذي يكمن في دورك الذي حدده لكِ.

. هل يعقل أن كل هذا الألم هو حقاً مكتوبٌ عليّ ومقدر لي ياجودي؟.

. نينا.

صاحت جودي فيها بما يشبه الصدمة.

. أريحيني ياجودي أرجوكِ، إن كان صانع هذا العالم، قد خلقني فعلاً على مقتضى مشيئته، فلماذا جعلني أتألم هكذا من دون أن يبدو أن ثمة مخرجاً واحداً لي؟.

سكتت جودي.

. جودي أنتِ تحبين حسّاناً وحسّاناً يحبك، صحيح؟.

. صحيح.

. أنا لم أحب خاطراً يوماً ولا هو أحبني، ما يحدث بيني وبينه مجرد عبث ودوران في المجهول.

تدخلت أسيل بحزن حقيقي:

. لماذا لا شيء يشفي أوجاعكِ يا نينا؟.

. لأنني مذ سلكت طواعيةً بدوري في روايته، انتبهت إلى أنني كنت أزحف طوال الوقت كعبد تحت سياط سيد مستبد.

نظرت جودي إليها بذهول، ونظرت إلى أسيل بصدمة.

. أنا لم أولد بهذه الرواية إلا لخدمة كاتبها، الذي لم أستطع أن أكوّن عنه فكرةً واضحةً ومستقرةً حتى اللحظة.

. أوه نينا.

هتفت جودي بذعر وهي تفرك جبينها بيدها.

. أليس هذا صحيحاً يا جودي؟.

حين لم ترد، واصلت هي بيأس:

. أنا لم أعرف حقيقته، لم أفهم ماهيته، لكنني مع هذا استمررت بدوري كما طلب، لأنني أخاف من ثأره مني، ومن أن أنتهي إلى بؤس العدم، لكنني أعيش مع خاطر بؤساً عدمياً آخر من حيث لم أنتبه.

التفتت صوب أسيل التي تحملق فيها بوجوم وزوغان.

. أليس كذلك يا أسيل؟.

حين لم تجبها أسيل، تكلمت من جديد كمن امتلك شجاعته لأول مرة، وراح يخرج كل ما بجوفه:

. ماذا جنينا من قبولنا بالروائي يا أسيل؟. فمذ فتحنا أعيننا على نصه، ونحن عالقتان في أغلال تعاليمه، نتقلب طوال الوقت تحت وطأة أدورانا القائمة على الخنوع، حتى إننا توقفنا عن الحلم بما يريده قلب كل واحدة منا، ولم نفعل شيئاً طوال الوقت غير

إيذاء أنفسنا، وقد ننقل هذا الإيذاء لمن نحب إذا طَلب منا ذلك غداً.

لم يفت أسيل ما تعنيه نينا، وفهمت جودي قصدها، فتدخلت بهدوء مصطنع:

. يجب أن ندعوه ونرجوه، ونأمل فيه دائماً يا نينا، جربي التوجه إليه.

. جودي، إن حكْيَنا كله مُسيّر من طرف كاتب لا تتبدل قوانينه، ولا يعكّر إرادته خاطر ما، ولا تجرؤ شاردة على أن تخرّب نصه، فكيف تطلبين مني مناشدته والرجاء فيه؟.

. ليُعينَكِ على المضي في أداء دوركِ على الأقل.

. لا أرى في هذا الكلام إلا تشكيكاً في حسن رعايته، وعناءً طافحاً من المضي في أداء أدورانا المرسومة.

. هو وجّهنا لطلب مساعدته الدائمة لأجل تحمل الصعاب، لقد نسيتِ فروضك يا نينا كما أرى.

. مشكلتي أنني لم أنسَ فروضي يوماً واحداً، لقد أديتها بجدارةٍ عالية لحظةً بلحظة، حتى حين تعرضت للاعتداء من سمكة القرش، التي مزّقت جزءاً من جسدي وتركتني أعاني لأسابيع وهو يتفرج عليّ، لكنني لم أنل راحة ما، إذ يبدو الأمر وكأنه متعمد من جهته.

. كيف؟.

. ألا تريان أنه راغب في الذكر المتواصل والتمسح المتواصل به

ياجودي وأسيل؟. هل تقبلان هذا من روائي يمنع السعادة عن شخوصه، إلا بشرط التضرع إليه والرجاء له طوال الوقت؟.

*****

نينا، نينا، تباً، نينا الوديعة التي شكّلتها بأصابعي هذه، امرأةً مطواعةً رثة الروح ومستلبة، تتجرّأ وتشكك بدورها؟.

. لماذا تتمردين على دورك يا نينا؟.

صحتُ بها.

. لا أعرف إن كان متصوراً توجيه أمرٍ لقلب.

. كيف؟.

. آسفة، لا أستطيع أداء هذا الدور بعد الآن.

. ماذا؟.

. أنا لم أحب خاطراً أبداً.

. كيف يعني؟.

. لم أعد قادرةً على تحمل المصير الذي تصر على حشري فيه.

. عن أي مصير تتحدثين؟. ماذا كنتِ قبل هذا الذي أنتِ فيه الآن؟.

. لو الأمر في يدي لفضلت ألا أكون هنا أبداً.

. ماذا كنتِ ستفضلين؟.

. كنت أفضّل أي شيءٍ آخر غير هذا، ربما كنتُ أحسن حالاً لو صنعتَ مني حصاةً في حذاء أحدهم، أو طائر حجل في غابة، أو

حبة رمل على شاطئ، أو دودة قز على غصن، أو ذرة عالقةً في الفضاء الرحب، بدل أن تجعلني أتعذب هكذا.

. لقد منحتكِ لذة أن تكوني شخصاً حياً في نصي يا نينا، تختبرين جمال كل ماذكرتِه، أعطيتُك وعياً وهويةً ومشاعر ودوراً مهماً.

. لكن مشاعري التي أمرتها بحب خاطر، لم تتحرك خطوةً واحدةً باتجاهه، لماذا حدث هذا؟.

. لأنكِ أردتِ أن يكون حب خاطر لكِ وحدكِ، وكان يجب أن يكون حبكِ وحبه خالصين لي أنا وحدي.

. كان يمكننا أن نفعل ذلك من دون أن نقترن، أليس كذلك؟.

. هل تجادلين في دورك الذي رسمته لك الآن؟.

. أجادل عن قلبي الذي يمقت خاطراً، رغم أمرك له بحبه.

. قلبكِ هذا هو صنيعتي، أنا من أرسل إليه الدم ليخفق.

. لكنه لم يخفق لخاطر.

. قلبكِ لا يعرف غيري.

. كيف أفهم أنه يعاندك رغم أنك خالقه؟.

. نينا، قلبكِ بين أصبعيّ هاتين.

. هل أنت متأكد؟.

. تباً لهكذا سؤال وقح.

. أريد أن أسألك سؤالاً أرجوك.

. كفي.

أقلقني أن تسألي، أكره حين أُسأل.

. أرجوك، أريد أن أسأل.

خفتُ من سؤالها، لا أعرف لماذا، لقد أخافني أن تسألني هذه المرأة، التي خلقت عقلها مطواعاً فتمردت عليّ بقلبها.

لكن، نينا لم تنتظر حتى آذن لها بأن تسأل، اندفعت فوراً:

. إن كان قلبي بين أصبعين من أصابعك، فلمَ لمْ يتجه لحب خاطر كما أمرته بالدور؟.

وحين لم أرد، اندفَعت إلى حيث لا عودة، لا لي ولا لها:

. هل تظن حقاً أنك تفهم طبيعتنا وأنت الذي خلقتنا بيديك؟.

. ماذا تقولين؟.

. يبدو أن القلب لا يستجيب للشروط التي تضعها له لكي يحب، فها هو لا يكترث بشيء اسمه الاعتقاد بك من عدمه.

الفصل الرابع

- 1 -

كان يكشط بسكينه الصغيرة، اللُحاء الخشن للغصن الذي تركه منقوعاً في الماء منذ عدة أيام، بسرعة كبيرة في البداية حتى ينزع أكبر قدر ممكن من اللُحاء الجاف، وحين عرّاه كلياً شرع يحرك السكين باحتراسٍ شديد، كي يحصل على غصنٍ مدبب الرأس ومعقوف، يصلح لإعادة تشكيل لوحٍ خشبي نضر ورطب، اقتطعه للتو من إحدى الأشجار.

أمال يده بزاوية 45 درجة، وطفق بأصابعه الخبيرة يتحسس العروق الدقيقة، النافرة في القحف المحاصر بين ركبتيه، وحين أحس بخشونةٍ ملحوظةٍ في إحداها، جذب العروق بعناية شديدة برأس السكين حتى نتئت في يده، ثم استلها ساحباً إياها بعناية وبطء شديدين.

كانت العروق تخرج أمام عينيه من اللوح، دقيقةً بنيةً ورفيعةً جداً وتشبه الليف، وما أن سحبها حتى تقّطعت بين أصابعه، فعاد بالسكين ليستل بقيتها حتى سحبها كلها، وبالفراغات التي تركها المكان الخالي للعروق، حفر برأس الغصن المدبب حتى صار مجرى العروق غائراً وعميقاً على سطحها.

كان يتلذذ وهو يتوغل في شرايين اللوح، بين يديه الغائبتين عن وعي المكان والزمان، أما اللوح الرطب المحاصر بين ركبتيه، فكان يستجيب لهيامه، ويفقد استواءه، وينبعج قليلاً، وبين السكين والغصن تخدد اللوح المصقول وأذعن للصورة الجديدة، التي نقش بعضها بالغصن وقشّر بعضها الآخر بالسكين، فحفر ونفر أخيراً طائر الكناري الذي أراده تماماً.

أصابعه التي تركت محاكاة الواقع، إلى الولوج لعالم الجوهر، كانت تتساءل عن مغزى الحياة الذي لم تستطع معرفته، لكنني جئته للحال، حين قدّرت أنه قد يتقبّل الكلام معي بعد آخر مرة، حين واجهني بصلافة أنه لن يقبل بأن يسلك في الدور الذي صممته خصيصاً له.

. يداك تبحثان عني.

تنهد بحسرةٍ حقيقيةٍ وقال:

. لكني لم أحب فكرة وجودك حين عرفتك، أتصدق هذا؟.

. طبعاً.

قلتُ ضاحكاً، وتابعتُ:

. لأنك تكره أن تكون مسؤولاً، فلطالما أحببت أن تكون هكذا، طليقاً بوهيمياً لا تحسب حساب أي شيء.

. لا أستسيغ فكرة وجود روائي يسهر على أدائي في نصه طوال الوقت، لا أقبل فكرة أن أؤدي حساباً على أفعالي لغير ضميري ونفسي.

. أوَ تحسب أنك قد تُترك سدى في نصي؟.

. بل أنت المتروك سدى في عالمنا.

. أنت كثير التهريج.

قلتُ بحنق.

. أنت تفعل بنا وبهذا العالم ماتشاء، تقسّم الشخوص إلى ضالين ومطيعين، تُسقِط من لا يعجبك من الورق، وترفع من يعجبك إلى الخلود معك في الخاتمة، تحاسبنا على الشاردة والواردة والفكرة والخاطرة، لكن من يقدر على كل هذا معك؟.

. تغبطني يا فياض؟.

. أجهلك، أفضّل أن أستعمل هذه الكلمة على أية كلمة أخرى عداها، فأنا لا أعرف طبيعتك.

. أنا حتماً لستُ كهذا اللوح المحاصر بين ركبتيك، فأنا كائن لا متجسم ولا متحرك.

. أنت هكذا في عداد العدم.

. لا.

. كيف؟.

. أنا سبب كل شيء ولا يجدر بالمسبِب أن يكون عدماً.

. ومن سبّبك أنت؟.

. أنا سبب نفسي.

. هذا ما لا يقبله عقلي، إذ لا سبب من دون مُسبب، وجوهرك المتمايز عن باقي الموجودات من المستحيل إدراكه، إن عقلي لا يتعرف على أي شيء إلا بمقاربته بشيء آخر معروف، ويشترك معه في بعض الصفات، وحين تقول إنك فريد، فلا يمكنني اختبار وجودك، وهذا يعني أنك مستحيل الوجود بالنسبة لي.

. من الواضح أنك لا تريد أن تلتئم بشخصيتك التي رسمتها لك.

. تطالبنا بالالتئام بشخصياتنا التي رسمتها لنا في الرواية، ثم تسلكنا في التخبط والعمى، مطالباً إيانا بيقين الإيمان؛ الأدوار التي رسمتها لنا لا طائل منها، دعك منا.

. كيف؟.

. كانت أدوارنا قبل أن نتورط بك، هي الدفاع عن وجودنا الفيزيائي،

وليس الدفاع عن أفكار ومعتقدات تُربك عمل عقولنا وتُصيبنا بالتعب، لأنها تضعنا على طريق لا نهاية لها من الصراع.

. أنا أتوارى في الغيب عنكم، لأن غيابي يقيكم رؤيتي غير المقدورة لكم يا فياض.

. ما تواريك إلا لعدم وجودك أو لعدم قدرتك على أن تُرينا نفسك، بطريقة تمكّننا من إدراكك باليقين.

. لا يمكن رؤيتي، انتبه.

. بل ليس إلا لأن الجهل هو شرط إيماننا بك، لهذا لا تتطلب منا عقلاً، بل تسليماً.

. جهلكم هو رحمةٌ بكم.

. لا يوجد مبرر واحد يمكن تقبله، كي يكون تخبطنا في الجهل بك، شرطاً للإبقاء على حياتنا وحريتنا.

. بلى يوجد، لكنك لن تقبله، فأنت هكذا يا فياض مذ استقوت عظامك على سطوري.

. ما معنى الأخلاق؟. ما معنى التعاليم؟. ما معنى الالتزام بالدور الذي حددته لنا إن كنا مقيدين إليها بشرط الجهل بك؟.

. إنه قدر الشخوص المحدودة أمام عظمة الروائي، إنه قدر الفارق بين النسبي والمطلق، المتناهي واللامتناهي.

. لماذا يكون علينا معرفتك بالسلب لا بالإيجاب؟.

. أنا أقف بالمقابل لكم، والتعرف عليّ يكون بنفي صفاتكم المحدودة عني.

. لكننا نظل أكثر حريةً منك، فأنت لا تستطيع الظهور في عالمنا إلا بالتجسم، وهذا شيءٌ لا تملك الحرية في فعله.

. لن تحيطوا بي ولو ظهرت لكم.

. فكيف ندركك؟.

صاح بيأس.

. عندما توقن أنني لا أنتمي للنسبي، وأنني مملوء من ذاتي ومكتفٍ بذاتي، لا أتحول ولا أتبدل، غير مفتقرٍ لأي شيء، مالك كل شيء، ولا شيء يملكني.

. ما تقوله بلا معنى.

. توقعت هذا منك.

. إن أصغيت إلى صوت عقلي الذي ركبته أنت فيّ، فإنه سيثور ضد حقيقتك غير القابلة للتمثل.

. أنت متناه يا فياض، متناهٍ.

. إدراك اللامتناهي بالمتناهي مُحال.

. أنت نسبي أما أنا فمطلق، أخبرتك بهذا مراراً.

. هل ثمة وسيلة تقطع ذلك الممر بين النسبي والمطلق؟.

. مُحال يا فياض.

. هكذا أصير في غاية الجهل بجوهرك، لا يمكن أن أعوّل على أي شيء للإحاطة بكنهك.

. لا أحد يصعّب هذه المسألة غيرك يا فياض، الكل يسلم بوجودي من دون جدل.

. عقلي متناه وخيالاتي مجزورة وخواطري مقهورة، لا يمكن إدراكك بخطرات العقول ومغامرة الأفكار، فكبرياؤك ممتنع على القياس والأنظار، أنا في مأزق وجودي خطير، وأنت تريدني أن أؤمن بك رغم أنف عقلي.

. يتحتم عليك أن تعمي عقلك لكي تذل نفسك تحت وزن سلطتي يا فياض.

. أنت رغم قدرتك اللامتناهية لم تحل هذه المعضلة الوجودية، أكاد أجزم أنك وهم، أو خيال جامح خرج من ظلمة خوف ما، لكنك لست حقيقة أبداً.

تأففتُ بضجر، التفتُّ حولي أريد الذهاب، لكنه تعلق بالقلم معانداً:

. انتظر.

. ماذا تريد؟.

. كيف صنعت هذا العالم؟.

. من العدم.

. كيف أنتجت شيئاً من اللاشيء؟.

. بقدرة الكلمة.

. لا أفهم!.

. قلت للعالم كن بروايتي فكان.

. هذا مُحال.

. مُحال لك، ومتحقق لي.

دار حول نفسه، رفع يديه وهو يشير إلى الأشجار، إلى السماء، إلى التراب، إلى نفسه قائلاً:

. هذه الطبيعة من حولي بكل بهائها وعظمتها لا تحوز شيئاً من الخلق؟.

. هي من حيث بدأت فستنتهي يوماً.

. لعدم؟.

. لعدم.

. أنت مستعد للتفريط بعالمك بعد كل هذا النصَب؟.

. ليس بالأمر نصْب، فإرادتي هي التي جلبته للوجود.

. وإرادتك ستعيده للعدم؟.

. ستفعل.

. إذاً فوجوده آني واعتباطي، إنه من دون ضمانة ما، فهو وجود بقيمة العدم ومُعاد إلى العدم.

. قيمته في صنعي له.

. هذا شيء يعاند أي تعقل.

. كيف؟.

. الطبيعة ليست عدماً، ما دامت تحوي كل الإمكانات، ولديها بذاتها علل التكون والتطور والنمو والفساد.

. ليس من علل غيري؛ أنا أوجَدتُّ كل شيء هنا.

. عالمك المصنوع من عدم والمعاد إلى عدم، ينزع الفائدة من تأمله ومحاولة فهمه.

. لماذا تقول هذا؟.

. ماهي المعرفة التي يمكن تحصيلها من مراقبة شيء جيء به

بقرار وسيختفي بقرار، وعلاقتنا نحن به؟. ألن تزيد عن كونها علاقة نفعية لمحض تمجيدك، لا كموضوع للمعرفة والترقي واكتشاف قوانينه وشروطه؟.

. دماغك الذي يعمل بدوام كامل أفلا تتركه يستريح معي؟. أضمن لك الراحة في نصي من كل هذا التعب.

رد كأنه لم يسمعني:

. أنا بين ثلاثة احتمالات هنا ولا أستطيع ترجيح أحدها.

. ماذا تعني؟.

. هذه الحياة.

. ما بها؟.

. إما أنها تتآمر لي، أو أنها تتآمر عليّ، أو أنها لا تأبه بي بالمرة.

. هذا سُخف كبير، ليس ثمة من يتآمر لك أو يتآمر عليك، عد لرشدك يافياض، أوقف كل هذا النشاط الفكري الهدام.

. لا يخيفني إلا الاحتمال الثالث.

. كيف؟.

. يخيفني أنه ليس هناك إرادة واعية لهذه الحياة، وأنه ليس لها موقف ما تجاهي.

. اطمئن، الحياة تكترث بك كثيراً، ولها موقف عظيم منك، إنها تبجّلك حين تمنحك كل هذا الفوران وكل هذه الطاقة.

. هل أنتَ هي هذه الحياة التي تعبأ بي وتكترث بأمري؟.

. الحياة كأي شيء آخر، إنها تمظهر آخر من تمظهراتي.

. إذاً أنت لا تكترث بي ولا تعبأ بأمري.

. لماذا تقول هذا يا فياض؟.

سألتُ بحنق وضجر حقيقيين.

. لأنكَ إن كنت حقيقياً فلا أقل من أن تجعلنا نوقنك بتجسيد نفسك لنا بأي شكل كان.

. لن تستطيعوا رؤيتي، أنتم لستم مهيئين ولا قادرين على رؤيتي، قلت لك ذلك مراراً وتكراراً.

. ولماذا تسمي نفسك قديراً، مادمتَ لم تستطع حتى إيجاد طريقة ما تجعلنا نحتمل رؤيتك؟.

. إن مادتكم لا تصلح لتقبل حضوري.

. تباً لهذا الدجل الذي تمارسه علينا.

. فياض؟.

صرختُ فيه بقسوة.

. أنت تحقّر من قدرتي ومن عقلي الذي تبجله دائماً، حين تقول إنه هو ما يميزنا عن الحيوانات، وإنه هو من رفع من مكانتنا بين سائر الكائنات، عقلي هذا هو من يتساءل الآن عن جوهرك وعن حقيقتك، فلم تجد طريقة تتهرب بها من أسئلته غير رميه بالقصور والمحدودية، أنتَ تمارس علينا وصاية مقززة منذ البداية، أنت محض دجال، وأنا على يقين من أنك وَهْمٌ، وأنني أنا وحدي الحقيقة هنا.

. ماذا يعني أنكَ وحدك الحقيقة هنا؟.

. يعني أنني أنا الروائي.

بوغتُّ تماماً، حملقتُ فيه لوهلة وكأنني لم أخلقه، ولم أرسمه بقلمي هذا الذي يقطر حبراً على الصفحة أمامي الآن.

. ماذا تخرّف أنت؟.

. أنا الروائي وليس أنت.

. هذا هذيان لم يقابلني في أي يومٍ من الأيام.

. طبعاً، لأننا من نكتبك، وليس أنت من يكتبنا.

- 2 -

تلألأت نِصال العشب تحت شروق الشمس الذهبية ذلك الصباح، وما لبث أن أتت على عتمة الفجر كلها، فصار المكان كله مُشعّاً كزجاج، كأنه لوحة تُطلق سراح الفكر، ليقيم علاقاته بين الكائنات دون حاجة حتى إلى اللغة والمحاكمات العقلية، ومسارب الأحراش ستفتح بعد قليل جادات سهلة ومضيئة موفورة بالأزهار، تُفضي إلى الشاطئ من كل مكان.

فكّر كنان كم أن المكان هنا مُسالمٌ ومذعنٌ لشروط التعايش، وأنه حاوٍ لكل الكائنات برحابة، حيث بوسعها أن تتحاذى دون منافسة على الموارد، فكل شيء يكفي الجميع، وعلاقة القرابة المبهمة التي تتجاوز الفهم العقلي لها، لا تكف عن عقد التحالفات لأجل العيش.

في تركيبة المكان من حوله، تلاءمت كل الكائنات مع بعضها، فتواصل النبات مع الحيوان مع الأرض مع البحر مع الشمس والقمر؛ تلاؤمها الذي فرض نوعاً من التوافق الحذِر، جعل الطحالب تنمو على ظهور السلاحف والقواقع، وأدخل العصفور إلى

أفواه التماسيح ليتلقط بقايا الطعام من بين أسنانها، ويخرج ناجياً في كل مرة، وأنبت حشائش صغيرة على قرون الأيائل، وأعطى سلطةً للقمر على البحار والمحيطات فكان المد والجزر.

كان كنانٌ يطوي خيوط إحدى الشباك، تمهيداً لرميها في الأعماق بعد قليل، حين لمح تشابكاً بالأيدي بين من ظن أنه فياض وبعض الأهالي، لم ينتظر، هب قافزاً بعد أن رمى بالشبكة جانباً وهرول باتجاه مصدر الصوت، وهناك رأى تالة تدفع سيرين بقوة وتحدٍ، وسمع فياضاً يرد بانزعاج وقوة:

. لماذا تصران على إخراجي من هنا؟.

. نخشى من تعرضنا للمزيد من المشاكل بسبب وجودك في مجتمعنا أيها الضال اللعين.

رد خاطر.

. ماذا تعني؟.

. بسببك جاءت سمكة القرش إلى الجزيرة وحطّمت قواربنا، ودمرت تحصيناتنا على الشاطئ، وجرحت نينا حتى صيّرتْها معوّقة.

أجابت سيرين.

. ماهذا السخُف؟ السمكة جاءت إلى هنا لأنني رفضت دوري في الرواية؟.

قال وهو يفتح ذراعيه دهشةً واشمئزازاً وعاد يصيح:

. ولماذا كل هذا أيتها الغبية، أخبريني؟.

. أنت عدو للروائي، إنه يعاقبنا بك لأننا لم نطردك.

. إذاً فالروائي ورغم قدرته اللامتناهية فهو لم يستطع تدميري،

بل ترك الآخرين يُدمَرون على يديّ، هل أنتم واعون لكلامكم هذا جيداً، جودي، حسّان، خاطر، وأنتِ يا أسيل؟.

تقلص فك حسّان بقوة وشحب وجهه، وهو يراقب ردة الفعل التي تركها كلام فياض على وجه أسيل، حتى جودي بدت مأخوذةً بكلامه الأخير، وهي تتحرك لإنهاء هذا المشهد، قبل أن يتطور أكثر وأكثر، لكنّ فياضاً عاد يهدر صارخاً:

. مِن المضحك أن السمكة لم تنهش ساقي أو ساق كنان، ما يعني أن الروائي إنما كافأ شخوصه المطيعين بالألم والمرض الدائم، في حين ظل الجاحدون به مثلي بأحسن حالٍ.

. هذه هرطقة وتطاول على الروائي يا فياض.

قال خاطر بضغينة واضحة، فتدخلت تالة لتزيد الطين بلة:

. ألا تصدق بأن الروائي إنما يُجري الأفعال والأقوال والسكنات يا خاطر، وأنه يضع القوانين والتعاليم؟ .

. بلى.

. إذاً فقد قدّر علينا أدوارنا هذه، تماماً كما قّدر للسمكة أن تجرح نينا وليس فياض.

. أنتِ مخادعة ومثيرة للشفقة يا تالة.

. لقد منحكِ الحرية...

قاطعته تالة بمرارة:

. لقد وضعني الروائي أمام خيار ومقابله عقوبة، إما أن أقبل بدوري ككائن شاذ في خِلقته ومهان من الجميع، وإما سيرمي بي خارج الورق، فأين هي هذه الحرية؟.

. ولماذا لا تختار القبول بدورك لترتاح يا أصف؟.

. لطالما أردت أن أكون حراً من كل شيء، لكن ذلك لم يتسنَ لي، الحرية هي أكبر الكذبات هنا.

قالت تالة بانفعال، فتوتر كنان، الذي شعر بأنه أمام شجار مفتعل، وأن خاطر وحسّان قد دبراه مسبقاً.

تدخل فياض:

. إن صدق أن الروائي قد منحنا الحرية في الاختيار، فهي حرية تحتم علينا التعاسة، لأننا إن رفضنا أدوارنا فسيسلكنا في العدم، وهو إنما ركّب فينا كل الشرور والغرائز، وتركنا نهباً للحوادث تعصف بنا وبفكرنا، حتى أنتجنا هذا الصراع، فلماذا لا تثورون عليه هو كي يحسّن خلقتنا فنفعل؟.

. بل أنتَ وهي تريدان العيش على هواكما متهتكين أخرقين فاسدين، تريدان العيش باستهتار دون أية مسؤوليات لتفعلا ما يحلو لكما.

قال خاطر بقسوة وتحدٍ، فعاد فياض بنفس القسوة:

. نحن لسنا فاسدين، نحن لا نضرب الإناث، لا نقطع الطريق على العابرين، لا نُجبر الآخرين على فعل ما لا يريدون، لا نصنع المنافقين كما تفعل أنت وتلك التافهة.

ولأول مرة مذ بدأ الشجار، يتدخل كنان مناشداً الجميع:

. لقد قرر الروائي مصائر شخوصه منذ البداية، فجعل منا أعداءه الدائمين، وجعل منكم أصدقاءه الدائمين، هكذا بالرغم منا

وبالرغم منكم، فلنعش جميعاً مع هذه الحقيقة، ولنترك خلافاتنا جانباً لأننا حتى لم نخترها.

أطرقت جودي وهي تميل برأسها، وتنظر إلى ظلال الجميع الطويلة على التربة الدافئة، خافت أن ترفع وجهها فيرى حسّان الدم الذي تدفق إلى وجنتيها انفعالاً بسبب كلمات كنان، ثم انسلت بهدوء بعيداً.

. لم يعد هناك ما يقال، هيا للبحر فياض وتالة، الموج سيرتفع، ولن أستطيع جر شباك الصيد لوحدي.

. بل سيغادران الجزيرة كلها.... وإلى الأبد.

. لن نفعل.

. بل ستفعلان وإلا قتلتكما الآن ورميت بجيفتكما للمحيط؟.

بُوغت كنان، وتحفز فياض وتالة، في حين اضطربت أسيل وشحب وجهها، عضت على شفتها حتى أدمتها، لتمنع دموعها من الانهمار.

تدخل حسّان لأول مرة:

. فياض، لأجل السلام على هذه الجزيرة عليك أن تغادر أنت وتالة... وكنان معكما.

خيّم صمت ووجوم على الجميع، حتى خاطر وسيرين لم يُخفيا صدمتهما لذكر كنان، وراحا يتبادلان النظرات بفضول وترقب.

. أين نذهب؟.

سألت تالة بحدة:

. ليس شغلي أين تذهبون.

. إنها جزيرتنا قبل أن تأتي إليها أنت أيها الدجال.

صاح فياض وهو ينتفض ويزم قبضتيه بقوة، لكنّ خاطراً كفاه الرد:

. كل شيء هنا من تصميم الروائي، كل شيء هو من عمل يديه، كل ما على الجزيرة وما في باطنها وما حولها هو من صنعه، ولا شيء مما صنعه، سيقبل بمن يرفض القبول به.

. هذا يعني أننا يجب أن نموت، ليس لما قلت معنى آخر غير هذا.

. لن تجرؤ على مد يدك على أي واحدٍ منا.

صرخت تالة وهي تنحني وتقبض على حجر كان مرمياً على الأرض، لكن كناناً تدخّل فوراً، سحبها للخلف ووقف بينها وبين خاطر وسيرين، وهو يحدق في عيني خاطر وسيرين بحزن ووجع، ترقرقت عيناه بالدموع فأشاحت سيرين بوجهها، في حين حاول خاطر الثبات وهو يركز عينيه على فياض وتالة.

. لقد انتصرت علينا يا حسّان، استوليت على جزيرتنا وفرّقت بيننا.

تجاهل حسّان كلام كنان، وتحرك بعيداً وهو يقول:

. سوِّ هذه المسألة يا خاطر بسرعة وحزم، وأعلمني حين ينتهي كل شيء.

- 3 -

ما فعله أصف أصابني بصدمة، إنه رابع شخص من بين الشخوص، يجعلني أقلق على فصل من فصولها التسعة، لكنه ثاني شخص من بين الشخوص، يدفع بخوفي إلى حده الأقصى، أكثر حتى من كنان وفياض، فكنان وفياض رفضا دورهما منذ البداية، أما هو ونينا فقد سلكا بأدوارهما لسنوات، قبل أن يقررا أن يتوقفا، ويعلنا رفضهما لي ولكل مخططي لهما، بل وقد تجرأ أصف على هذا علانيةً وبكل تبجح.

. فعلتها يا أصف، ارتددت عن اعتقادك بي؟.

. نعم، فعلت هذا حين انتبهت أنني تركت ما أعرف إلى ما لا أعرف.

. ماذا تعني؟.

. كنا محميين بعالم الطبيعة الفطري الذي نعيش فيه، كنتُ كائناً محترماً قبل أن يأتي إلينا جودي وحسّان، ويكلماننا عن شخوص وأدوار، والآن أنا محط ازدراء ممن بات يؤمن بتخاريفك التي تسميها رواية.

. أنا من خلقتُك، أنا من وضع وجهكَ هذا عليك، أنا من نحت تفاصيلك ومشاعرك وهويتك.

. لا أريد أن أكون ما أردتَه لي، سجيناً في قضبان رواية من تأليفك وحدك، وسأتمرد على المصير الذي أردتَه لي فيها.

. ماذا تعني أنها من تأليفي وحدي؟.

. لا تعترف بشريك آخر يكتبها معك، فتتعاونا على كتابة نص مسبوك أفضل من هذا.

. لستُ بحاجةٍ إلى اقتسام الرواية مع أحد، أنا سيّدٌ وحيد لرواية واحدة، وبدون ذلك فإنها ستنقسم، وستفسد.

. لكنني أرى الكثير من الاعتباط والفوضى فيها، أرى الكثير من الاضطرابات والشرور التي أحدَثَتها تعاليمك لنا.

. لستُ اعتباطياً انتبه، إن كل شيء في روايتي هو بديع وخارق بما يكفي، لجعلك تسحب اتهامك الخالي من التوقير هذا.

. كيف يمكن تفادي اتهامك بالاعتباطية والمكر، وأنت منشغل بتدميرنا وتدمير ماصنعت يداك، حين أحضرت لنا حوتاً متوحشاً من عمق المحيط، ليدمر تحصيناتنا ويجرح أطفالنا، وحين بذرت الألم في طريق نينا ألطف كائن بالجزيرة، كيف لا أرتاب بقدرتك وأنا أرى حسرتك المتواصلة لفشل الأدوار التي حددتها لنا؟.

هدرتْ في وجهه بعصبية:

. توقف عن المقاومة يا أصف، لن تفلح أبداً، يمكنني أن أسقطكَ كما أصعدتكَ، وأن أعيدكَ للوراء، للعدم الذي كنتَ فيه.

. افعل إذاً، فأنا مصَممٌ على أن أكون مُصمتاً عن الاعتراض عليك.

. ما تواجهه من ألم هو جزء ضروري في هذا الفصل، فأنتَ البطل المطلق، كن صبوراً.

. لماذا تستخدم غيرك لتحقيق أهدافك، لمَ لا تأتي لتعيش معنا

تلك الآلام، وتواجهها معنا، بدلاً من أن تدفعنا لمواجهتها مسلّحين ببضعة تعليمات غامضة، هي الانضباط كترس في آلتك الصماء؟.

. أصف.

صحتُ عليه، فرد ببرود وضجر:

. أنا خارج هذا النص التافه الذي تسميه رواية منذ الآن، ولن أنتظر حتى تسقطني من الورق كما تزعم.

- 4 -

كنانٌ أيضاً وما واجهه اليوم كان عاصفاً، كان بكاؤه بسبب طرد حسّان له، آخر فرصة لي لإقناعه بدوره، فإن اقتنع فإن أصفاً وفياضاً قد يتبعانه.

إن خروجه من النص هو كارثة حقيقية على الرواية برمتها، سأضطر معها إلى أن أرمي بنصف ما كتبته إلى سلة المهملات.

. ألم يعنِ لك شيئاً ماقاله حسّان وجودي في أي يوم من الأيام يا كنان، أيعقل أنهما لم يؤثرا بك ولا مرة؟.

. ما يقولانه عنك هو محض خرافات.

. أنا لست خرافة، أنا صانعك.

. بل أنت أكبر خرافة، أنت أخبث الخرافات التي اخترعناها يوماً، والأخطر أن كثيرين يتعلقون بك رغم كونك خرافة.

. أنت تشتط وتبتعد كثيراً بفكرك، عقلك الصلف هذا، عقلك الوقح غير الشاكر لي، أيجرؤ على أن يفكر بعيداً عني؟.

رد بضيق واشمئزاز واضحين:

. أمقت هذا العقل الذي تمجدونه كلكم، أمقته.

. ماذا ماذا ماذا؟.

. عقلنا هو الذي ورّطنا بك.

. إنه بالذات ما قادكم إليّ.

قلتُ له بانشداه، وأنا مسمّرٌ، أنظر إلى السطور التي يتلوى عليها مُجادلاً.

. بل إنه من صَنَعَك؛ وقد صَنَعَك من داخل تجربته الوجودية لا غير، لأنه لا يملك غير هذه التجربة، ليقتبس منها مادة يصنعك منها.

. أنا الذي ركبتُ العقل فيكم.

. لا، لأنه إنما صَنَعَك على شاكلتنا، جعلك رجلاً، منحك مشاعر فوارة، فأنت تغضب وترضى، تعاقب وتصفح، تحب وتكره، لقد استنتج وجودك من استجوابه لوجوده في ذاته، لقد انطلق في صُنعِك من ذاتيتنا؛ ذاتيتنا التي لا يمكنها أن تحكم فكرنا بحرية، لأنها باختصار هي نحن، لهذا فأنت هو نحن.

. مخطئ، أنا الذي قدّم المعرفة لعقولكم يا كنان، لأن عقلي هو الوحيد الخارج عن الزمان والمكان والظروف، وهو من يقرر لك الحكم الصحيح على الأشياء.

. لا تضخم من شأن نفسك، فقد كنا نعرف ما يلزمنا لنعيش بانسجام، أما المعرفة التي قدمتها أنت لنا، جعلتنا صغاراً في هذا الكون، حين منحتنا ذواتاً منفصلة عنه، لقد تغرّبنا بمعرفتك حتى

انفصلنا، كنا ثماراً معلّقة على شجرة الكون، والثمرة لم تكن تختلف عن الشجرة حتى قَطَفَنا حضورك عنها.

ألجمني كلامه للحظات طويلة، كنت أبحث فيها بسرعة عن كلمات أقول له فيها الأشياء بطريقة لا تستفزه، لأنني أخشى من الفوضى التي سيحدثها إسقاطه من الرواية.

أعترف أنني خفت، خفت أن أفقد كناناً بالذات، فهو يلعب دوراً سلبياً يمكن أن يُطيح بروايتي كلها، إنه شخصية رئيسية فيها. لهذا عدت وحدثته بلطف أكبر:

. ماذا كنت قبلي يا كنان، هل تتذكر؟.

. لا أتذكر.

. لا شيء، مجرد فكرة في رأسي احتاجت زمناً لتنضج وتتطور إلى كنان.

. إن كنتُ حقاً فكرةً في رأسك من زمان، فلماذا لا أعقل هذا أو أعيه؟.

. لأن وعيك لم يتشكل بعد.

. هل يمكن أن توجد ذاكرة لم يشهد عليها أحد؟.

. كيف يا كنان؟.

. لو أن نجماً هائلاً في سديم الفضاء انتحر أو مات منفجراً، وأصدر ضجةً هائلةً في المكان، لكن لم يشاهده أحد، لم يسمعه، أو يصوّره أحد، فهل يمكن الحديث عن ذاكرة تخصه أو تخص معرفته والوعي به؟.

تلعثمتُ، أعرف كنان جيداً، إن معارفه الفطرية في الطبيعة، هي ما تجعله بهذه الصلافة في رفض العقلانية، إنه يركز الآن على تحقق الذاكرة التي يشدد أن يكون شاهداً عليها بنفسه، وإلا فسيرفضها.

. سيكون تصريحي عن انتحار ذلك النجم هو حكمي وهو ذاكرتي لأنني من خلقه.

. حكمك لا يصح أن يكون ذاكرة لأنه حكم يتعالى على الاستجواب طوال الوقت.

. أنت تنسف كل شيء يا كنان.

. أنا لست كناناً، وأنت لست خالقاً لي.

. أنت كنان.

. لم أشهد على تسميتي بذلك.

. كنان يا كنان، عد للرواية، عد للحقيقة الوحيدة بهذا العالم.

. ليس ثمة حقيقة واحدة هنا.

. توقف.

. هذا ما أفعله، أن أتوقف كلياً عن أي تفكير.

. تبدلت أفكارك وقناعاتك ورؤاك بعيداً عني يا كنان.

قلتُ بحسرةٍ.

. أنا ضجر من كل ما يأتيني منك.

. أنت عدمي يا كنان.

. كلمة جديدة أخرى؟.

صاح بإعياء.

. يعني أنك لا تؤمن بأي شيء يا كنان.

. الإيمان كلمة فتاكة.

. لماذا يا كنان؟.

. إيماننا بك يعني أنه ينبغي أن نُسلّم لك من دون دليل، ويعني أنه ليس أمامنا إلا القبول بكل ماتفعله بنا.

. لهذا قررتَ أن تسلكَ سلوكاً آخر غير الذي قدرتُه لك؟.

. بل لأنني في الحقيقة لست شيئاً، خارج الأحكام والتعريفات التي قررتَها أنت لي.

. ماذا تعني الآن؟.

. قل لي، من أنا خارج تحديدك أنت لهويتي، وماذا أفعل أنا خارج تحديدك أنت لدوري في الرواية؟.

. ستُحدث خراباً هائلاً في الرواية، أنت ترهقني.

. أنا لا أعبأ بروايتك هذه، خُضْها وحدك، أو ابحث عن شخص آخر يسلس لك قياده، وسأشكر حسّاناً لأنه اختصر عليّ الطريق.

- 5 -

. ما فعلتَه اليوم لا يمكن تقبله يا حسّان.

كان وجه أسيل ممتقعاً وهي تتكلم.

أدارت جودي رأسها بينها وبينه، تنتظر شرحاً يبدد فضولها.

. ماذا تعنين يا أسيل؟.

. هل تعرف المصير الذي سينتهي إليه كنان وفياض وتالة الآن؟.

. إنهم جاحدون بوجود الروائي.

. خاطر يستفز كل من يراه منهم، إنه يبدو كوصي على إيمان الجميع وسيرين تساعده في هذا.

. بصرف النظر عما يقوم به خاطر، فإن كناناً والبقية يرفضون الإيمان بكونهم شخوصاً في رواية، ويرفضون الالتزام بالحوارات التي كتبت لهم.

. لكن نتيجة ما حدث الآن، أنه لم يعد لكنان والبقية حتى حق الوجود في هذه الرواية، صحيح؟.

. ما الذي حدث؟.

. حسّان طرد كناناً والبقية.

. حقاً؟.

هتفت جودي بصدمة.

. حسّان، إن ما فعلته خطير جداً.

عادت أسيل.

. ولِمَ يبدو خطيراً جداً؟.

. كيف تتكلم بكل هذه اللامبالاة؟.

. في رحيلهم سترتاح الجزيرة من شرهم.

. كيف لهم أن يرحلوا وهم لا يعرفون لهم مكاناً غيرها؟. هل سيكتب عليهم أن يصيروا مشردين في الرواية؟.

. وهل يجب أن يغادروا جزيرتهم حقاً؟.

قالت جودي التي اندفعت معترضةً، فتصلب فك حسّان وهو ينظر إليها بغضب ودهشة.

تشجعت أسيل لكلام جودي، قالت من جديد بأمل بعد أن استعادت رباطة جأشها:

. هذا ليس عدلاً، أبداً.

تكلم حسّان بامتعاض وبرود:

. هذه الجزيرة هي من تصميم الروائي وحده، لقد صنعها خصيصاً لأجلهم، وحيث أنهم جحدوا نعمته في صنعها، فليس لهم أن يشكوا.

. تقصد ليس لهم أن يحيوا لا عليها ولا على غيرها؟.

. أسيل أنتِ تحبين فياضاً، هل أنا محق؟.

أجابت بثبات فاجأها هي نفسها.

. نعم.

. حين حدثتكم عن الروائي أول مرة، قلت لكم بوضوح إنكم يجب أن تحبوا فيه وتكرهوا فيه، ولا يجب أن تحيد قلوبكم عن دربه إلى درب غيره قيد أنملة.

. لا أتحكم بقلبي يا حسّان، لقد حاولت كثيراً ولم أفلح.

. لكنّ فياضاً لا يحبكِ يا أسيل.

. قلبي حتى لا يكترث لما يفعله فياض به.

. يجب أن يكترث لما يأمركِ به خالقكِ وخالقه يا أسيل.

. خالقي يقف عاجزاً أمام قلبي يا حسّان ثق بهذا.

. أسيل، أنتِ تقولين كلاماً خطيراً، انتبهي.

تدخلت جودي مرة أخرى بصوت متعاطف وحزين:

. جربي أن تتكلمي مع فياض ياعزيزتي أسيل، حاولي معه قليلاً، تمسكي بحبك له لعل حبك له ينقذه.

. جودي، توقفي عن التدخل هنا، مفهوم؟.

تكلم حسّان بغضب حقيقي، وهو ينظر إليها نظرةً ذات مغزى، منبهاً إياها أنه لا يجوز لها التدخل.

لكن، جودي تجاهلته، ومضت تكلم أسيلاً التي لم تسترخِ ملامحها ولو قليلاً.

. لا تفرطي بحبك لفياض يا أسيل، أنتِ ونينا تتعذبان كثيراً بسبب قلبيكما، تحدثي مع فياض بقلبٍ مفتوح، قولي له إنك تحبينه، لعله يقبل بأن يعود لدوره بالرواية، لن تخسري شيئاً أكثر مما تخسرينه الآن مع كل هذا الألم.

لكن، أسيل فاجأت كليهما وهي ترمي بكلامها وتخرج:

. وهل فياض مضطرٌ للتصديق بأنه أحد شخوص الرواية؟. لقد عاش طوال حياته خارج نصه، وكان حاله كحالنا جميعاً، أفضل من الآن بكثير.

- 6 -

ماذا يحدث هنا؟. أسيل تتفوه بحوار لم أكتبه لها؟. هل مرقت عن دورها بسبب قلبها الذي أمرتُه ألا يحب فياضاً؟. وجودي!. ماذا دهاها هي الأخرى لتتصرف وكأنها هي من بذر الشخوص على

الورق لا أنا؟. ماذا تعتقد أنها فاعلة؟. هل تريد أن تستولي على سلطتي؟.

على حين غرة مسحتْ ذاكرتها كل الشخوص بالرواية، استعرضتهم جميعاً برأسها، واستعرضت آلامهم وخيباتهم وعظاتها لهم.

فكرت بنينا، المرأة الأكثر شعوراً بالمرارة، التي تدفع ثمن ارتباطها برجل لا تطيقه، لمجرد أنه مخلص بمحبته لي، فكرت بأسيل التي تعيش حالة تمزق بين دورها وقلبها، ولا تنقطع لحظةً واحدةً عن التفكير بفياض، كثقب أسود تنجذب إليه ولا تستطيع الفكاك من أسره، بل إنها تتماسك بالاستمرار في حبه هو لا في حبي أنا، وقد شقّت كلماتها الحزينة اليوم طريقاً لعقل جودي، فراح يعمل بجهد ودأب، كي يجد لها مخرجاً بعيداً عن أوامري وتعليماتي، وبعيداً عن دورها في الرواية.

طاف عقلها فيهم واحداً واحداً، وها هي تفكر الآن بأصف، كلامه عن الحرية أثّر فيها، بدا كقرع أجراس في فضاء مهجور، صار يتردد ويتردد حتى كبر في رأسها، فكرت آسفةً كم أن وضعه قاسٍ وغير مفهوم، فهو يبدو مسؤولاً عن شيء لم يختره، ومعاناته جراء ذلك، وكلامه الأخير منذ ساعات حرك فيها مشاعر جياشة، وقلق كبير، وها هي تسأل قلبها إن كانت فعلاً تتمتع بالحرية كما قال، بل إنها فكرت بالشخص الأكثر إقلاقاً لي على الإطلاق، والأكثر تهديداً لعالمي أيضاً، كنان، تذكّرت أمه، تذكرت عينيها حين هوت من أعلى التلة وسقطت في الوادي، تذكرت آخر كلماتها لها هي بالذات عن الحرية.

هنا بالذات يجب أن أتدخل وبسرعة، فالأمور لم تعد تسير على ما يرام مؤخراً، رغم أني قد أحسنت صنعَ كل شيء من البداية.

. جودي انتبهي، التزمي بدوركِ في الرواية كما هو من دون ارتجال.

ارتبكت جودي قليلاً، وقد بدا عليها التلعثم وهي تقول:

. لم أُرد غير مساعدة بعض الشخوص على اكتشاف أنفسهم.

. كيف؟.

. بارسالهم في رحلة تفكير قصيرة، وفي نهايتها قد يشاهدونك ويؤمنون بدورهم الذي رسمته لهم.

. لم أطلب منك هذا أبداً، هل فعلت؟.

. إن ما نفعله معهم أنا وحسّان طوال الوقت، يبدو أنه غير مجدٍ بالمرة.

. هذا ما تعتقدينه أنتِ، لكن لا تفعلي شيئاً لم أطلبه منكِ، ودعي الآخرين كما هم في حالتهم التي هم عليها.

عادت، وكأنها تعتذر:

. فكرتُ بأن أسألهم التصرف وفقاً لقناعاتهم، كي يشعروا ببعض الحرية فقط.

. لا لا، أوقفي ما فكرتِ فيه حالاً.

. أنا منضبطة كلياً بخطتكَ للرواية، أسلكُ فيها وفق ما حددتَه لي، والأهم أنني أثق بكَ كما طلبتَ مني، لكن!.

كظمتُ انزعاجي، لعلمي أنها ستسألني السؤال الأكثر وقعاً، والأكثر إزعاجاً على الإطلاق، السؤال الورطة الذي أتحاشاه بكل قوتي، مذ بدأت كتابة أول سطر في هذه الرواية، لعلمي أنه لن يقودني مع شخوصي لأي مكان، إنه السؤال الأول، الذي يبدو لهم أنه أكثر صلةً بوجودهم في الرواية، لكنهم، وإن لم يدركوا ذلك، فهو السؤال الأكثر بُعداً بالنسبة لي عن وجودهم فيها.

قالت:

. هل أنا حرة؟.

سكتُّ قليلاً قبل أن أجيبها، حدّقت كثيراً فيها، وأنا أفكر أنها تغص منذ فترة بالأسئلة التي تزعجني كثيراً.

. أنتِ كذلك.

. يمكنني إذاً أن أصنع خياري الخاص، أليس كذلك؟.

. حسناً، يمكنكِ أن تصنعي خياركِ الخاص، لكنكِ أبداً لن تكوني موفقة في الخيارات التي لا أحددها أنا.

. لم أفهم.

. لأنكِ لم تفهمي بعد أن حريتكِ هي معي أنا، وبالتالي خياراتك.

. لكنك لا تثق بي لبرهةٍ واحدة، فتترك لي تدبير القيام بدوري كما أرى، أنا كطفل صغير في عالمك الروائي، لا يجرؤ على وضع قدم أمام الأخرى دون أن ينظر إليك.

. ماذا تريدين ياجودي؟.

سألتها بحدة ونفاد صبر.

. أن تسمح لي وللكل ببعض الارتجال في أدوارنا ولو قليلاً.

. لا.

مرت هنيهة وجودي ساكتة، طأطأت برأسها وتهاطلتْ خصلات شعرها الأسود الغزير، حتى حجبت عني وجهها، لكني، كنت أشعر بدفقات قلبها تطرق بقوة، ثم خرجتْ من صمتها، رفعت وجهها نحوي وسألت:

. لماذا؟.

. هناك خطة من قِبلي للعناية بكل شيء، بالأشجار والرياح، بالشروق والغروب، بكم أنتم كشخوص، وبكل كائن يدب على الأرض أو يطير في الهواء أو يسبح في المحيط، ولكل فعل يصدر عنكم ردة فعل محسوبة كيلا يفلت زمام الأمور، فإن اتخذتِ سلوكاً في العالم الخارجي ليس مقرراً مني، وليس متسقاً مع الدور الذي حددته لكِ، فإنك لابد ستحدثين أثراً ما حولكِ، ومن المرجح كثيراً أنكِ ستتردّين في الفوضى، وستجرين غيركِ إليها.

. أمام كل هذا فأنا لا خيار لي البتة، وكل ما أقوله وأفعله من الألف إلى الياء، أنت قوّلته لي أو فعلته على يدي في الحقيقة.

تنهدتُ بتأففٍ، وضجر حقيقي بدأ يستولي عليّ، ويتزايد مع كل دقيقة يستمر فيها هذا الحوار الأعرج معها.

أغمضت عيني وأنا أفكر بالرواية، ستنهار ولابد مع كل هذه المقاومة، التي استشرت في الشخوص وكأنها عدوى، إنها تستحيل

بناءً واهياً ومتداعياً، أمام ضعفهم الإنساني الذي يحاول بشكلٍ يائسٍ، البحث عن مبرر لوجوده، ضعفهم الإنساني الذي اخترع شيئاً تافهاً وبخساً جداً، إنه السؤال، والرغبة في المعرفة.

. أريد الحقيقة، فقط الحقيقة.

عادت تلح.

. لآخر مرة ياجودي، إن أية خيارات تجرينها بمعزلٍ عني، ستكون بمثابة متغيرات ما في معادلة، وكل واحدة ستنحل ومن ثم ستلغي شطراً من أشطر هذه المعادلة، وعملي أنا هو حراسة هذه المعادلة، لأن حلها سيذهب بعالمي الروائي برمته، وسيذهب بكم أنتم بالتبعية، فتوقفي الآن.

. ما أراه أن روايتكَ هذه محقرّةٌ لنا بشكل لا يطاق، نحن كلنا فيها مجرد كومبارس، شخوصٌ سلبيون لا دور حقيقي لنا.

. الطاعة هي دوركم.

. أنتَ موسوسٌ بالمدى الذي يجب أن نطيعكَ به، متلهفٌ على الدوام لمعاقبتنا والنيل منا، عندما لا نتفق معك.

. جودي.

صحت، أحذّرها، وأنا ألوح بالقلم في وجهها.

. أنتَ كاتبٌ لا يعلم، حاكمٌ لا يرحم، قاضٍ لا يعدل، وروائيٌ لا يؤمن أبداً بشخوصه، لماذا نؤمن بك في حين تكفر بنا؟.

. ما كل هذا الحنق وهذه الثورة؟.

. لأنكَ كل أحد، فأنت حامي كل البوابات، حارس كل الأبواب، ولديك جميع المفاتيح فأين نذهب منك؟.

. إلى العدم، إلى فناء الوعي، إن استمرئتِ هكذا، كوني حذرة.

أجبتُها بضيق، وأنا أتهيأ لوقف الكلام معها، فقد سئمت، وضقت ذرعاً بكل هذا العراك معهم، وأشعر بتعاظم قلقي على الرواية، لفرط ما أُقابل بالرفض منهم.

. أنت تُهددنا بالطرد من رحمتك دائماً، لكنكَ تصر على كونكَ رحيماً بنا.

. لا توجد وسيلةٌ واحدةٌ تجعلكِ تقتنعين بأنني أعلم أكثر منكِ، لذا فالأمر لكِ، أنتِ حرة كي تقرري الآن.

. إن كنتَ تعلم ولا أعلم، فكيف لي أن أقرر، والأهم كيف أكون حرة؟.

. توقفي عن هذا.

قلتُ لها بتأفف، فهتفتْ بلوعةٍ وحزن.

. أنا لستُ حرةً حتى داخل قفصي الصدري، فأنت مقيمٌ في حجرةٍ صغيرةٍ داخل رأسي، تراقبني وأنا أؤدي دوراً كنت قد قدرته لي سلفاً.

. ماذا تعنين الآن؟.

سألتها بضجر.

. أنتَ ببساطة تعرف ما أفكر به وما أخطط له، وإلا لما كان هذا الحوار برمته، لقد اكتشفتَ ما أفكر فيه بكل بساطة.

. هذا منطقي، يجب أن أعرف ماذا يجول بعقلك، كي أتدخل إذا لزم الأمر.

. لكنكَ لم تستطع منع الشك بك من أن يتسرب إلى قلبي، فأنت لم تحسن كبْحه رغم أنك من ركّبه فيَّ. لقد مرقنا عليك بقلوبنا لأنها أكثر حكمة، نينا وأسيل وأنا شككنا بك بقلوبنا لأنها صدقتنا الفهم أكثر من عقولنا.

قالت بتحدٍ وقح.

أشعر بتوجسٍ كبير، إنها تذهب بعيداً هذه الـ جودي، إنها تصعّد من حوارها معي، تهجر كل الكلمات التي قررتها لها، وتتعلق بكلماتها وحدها.

. جودي، انتبهي وإلا فستضِلين، اعتبريه آخر إنذار قبل أن أطردك من الورق، وأُميتك جُملاً ممزقة في سلة المهملات.

. أعرف أن ثمة شيئًا ما، لكنني لا أستطيع تفسيره، مع ذلك أحس به يتحرك تحت جلدي دائماً، وينخر في رأسي كدودة، تكاد تدفع بي إلى الجنون.

. ماذا تعنين؟.

. إنه نصك هذا.

. ما به؟.

. إنه يغطي عيني، يعميني عن رؤية الحقيقة.

. أية حقيقة؟.

. أننا ولدنا فيه عبيداً حين كان يجب أن نولد فيه أحراراً.

. أنتِ تتمادين في الهراء.

وجدتْ جودي نفسها من دون أن تنتبه، تندفع مكررةً كلمات عجوز الجزيرة قبل أن تموت:

. لقد ولدنا في نصك معتقدين أنه الحرية، ليكون الخروج منه هو العبودية، صار من الصعب علينا أن نرى شيئاً أو أن نعرف شيئاً عدا ما تقدمه أنتَ لنا، وللأسف يبدو أن لا أحد هنا غيرك كي يخبرنا ما الذي يحدث، لهذا ننام ونستيقظ في أسرّتنا كل يوم، معتقدين بأن ما تقوله لنا هو الحقيقة.

. كيف تجرأين على ترديد كلام تلك الشمطاء في روايتي، ولم يكن هذا الحوار مقدراً لكِ؟.

. من قبل أن نُخلق قدرت لنا مقاديرَ في روايتك، ولم يأتِ على بالك ولا مرة أنها قد لا تعجبنا، وأننا قد لا نحبها ولو تظاهرنا بالعكس.

. يا حسرةً على الشخوص، كلما أجريتهم مجرىً سلكوا غيره، لكنهم لا يلبثون أن يعودوا، بعد أن يكون الكفاح قد هدهم.

. بالنسبة إليّ، سعادتي هي في أن تكون لي طريقٌ أمشي عليها من دون تعاليمك، ولا طقوسك.

. ستضيعين من دوني، وسيكون الأوان قد فات، فأنا الطريق وأنا القِدم.

. لا أضيَّع من سيرة التيّه هذه التي نسير فيها مذ خلقتَنا، مذ استعملتَنا لصنع مجدك الروائي.

. جودي، لا تحاولي شيئاً، جرّبَ غيركِ وندموا، اتبعي مرتبتك فقط، لا ترفعي رأسكِ، لا تحاولي التسلق، أنتِ بطل من حبر.

. بل سأحاول التسلق وأحاول وأحاول، حتى استولي على قلمك، كي أكتب نهايتي وحدي، قلبي يسألني الارتقاء وأنت تسألني القرار والإذعان للدور المرسوم، سأطرد من داخلي كل أحمالك، سأرفض منذ الآن كل أوامرك، وسأشكك بتشكيكك في قدرتي، سأراجع كل حسابات الضرورة والحكمة الغائبة التي حكمْتني بها طوال السرد.

ضحكتُ بهستريّة، وأنا أصرخ فيها:

. ماذا؟. تستولين على قلمي، أنتِ؟.

. نعم أنا، بل كلنا، فنحن من يولد ويموت، نحن من يشرق ويغرب، يحلم وييأس، وأنتَ تنحت مجدك من معاناتنا، تريد أن تصنع منا عرشاً تستوي عليه، تنقش على ذراعيه آثار إنجازاتك، ومآثرك، وتخشى أن نحصل على حريتنا، تخشى أن نقرر أنك لا تستحق كل هذا التمجيد، أنت محض طاغوت.

. كلامك هذا سيحرمكِ من الخلود معي في آخرة الرواية، ستندمين.

. نحن لا أنت من يستحق الخلود، فنحن الذين ننطفئ لنعود لنحترق، مرة تلو المرة، تلو المرة في روايتكِ السخيفة هذه.

- 7 -

المارقون على طرقي يتناسلون، في البداية كان فياض وكنان، ثم لحقهما أصف ونينا، والآن جودي؟! أكاد لا أصدق.

ماذا؟. هل ستتفرط الرواية الآن، هل سيتمزق العالم الذي صنعتُه بكل عظمةٍ لأجلهم؟.

جودي بالذات خسارة لا يمكن تحملها، إن مروقها أمرٌ لا يمكن تعويضه، ولا يمكن إلا أن يؤدي إلى خرابٍ كبير.

هكذا كم بقي معي من الشخوص؟. وكم فصلٌ في الرواية معرضٌ للتمزيق والمراجعة من جديد؟. إن الأوراق التي شطبتها تمهيداً لإلقائها في سلة المهملات، أكثر من هذه التي ترقد أمامي على الطاولة.

لا أجد غير الجحود والنكران والتمرد، ورفض الطرق والمسارات، والتطويح بالقوانين ولطم صنيعي معهم، فحين جئتُ بهم من العدم، ورسمتهم في روايتي أبطالاً ومناضلين، مصلحين ورسل حق، وحين أجريت على أيديهم مفاهيم النبل والعدالة، فاجأوني بأنهم لا يريدون أن يكونوا كما خلقتهم، بل يريدون أن يخرجوا لعالم الفعل، ليصنعوا مصيرهم وحدهم، معلنين عدم اكتفائهم بما أقوله لهم.

يريدون صنع قيامتهم الخاصة بعيداً عن القيامة التي وضعتها لهم في النهاية، يريدون أن يصعدوا من الورق، لكنهم لا يعرفون أن مبدأهم هو الورق، ومنتهاهم هو الورق؛ من الورق خرجوا وإلى الورق سيعودون، على الورق بذرْتُهم، وعلى الورق سأحصدهم رأساً رأساً، الكل آتٍ إليّ لا محالة، الكل سيعود إليّ، إلى نبعه الأزلي، فأنا منشؤهم الأول وأنا رجعتهم الأخيرة، فلا نص إلا نصي، ولا سرد إلا سردي، ولا حوار إلا الذي أكتبه، ولا دور إلا الذي أحدده، والأرض الجديدة التي شقوها على غفلة مني في صدورهم، ستميد من تحت قلوبهم قريباً.

يريدون أن يصيروا كائناتٍ فاعلة لا منفعلة، يريدون رفع وصايتي، يعتقدون أنهم بالإرادة سيسلكون طريق السعادة، سيوقفون آلامهم ويصححون المسار، لا يعرفون أنهم يقودون انقلاباً على النواميس والقوانين والضرورة، وأنهم بتشكيكهم بعلمي وبقدرتي إنما يصعدون سلم سقوطهم، فسقوطي هو سقوطهم، وصعودي وحده هو صعودهم.

يطلبون أن تكون لهم مشيئة، وأن تكون لهم سلطة، يريدون أن يتحققوا من الغيب، وأن يسمحوا للرغبات والأفكار أن تتملكهم، يريدون الحرية، يعتقدون أن فيها خلاصهم، لكنهم معذورون، فهم لا يحيطون بما أعلمه، لا يعرفون أنه ليس في وسعهم الشعور بالحرية، إلا ويدي تمسك بزمامهم، وتُجريهم بمجاري الضرورة.

. لا بد من إجراء حازم مع كنان وفياض وأصف، لا يعقل أن أجعل الفوضى تدب في روايتي هكذا.

يجب أن يخرج كنان وفياض وأصف من الجزيرة، ولو لبرهة، وجودهم فيها رغم إنكارهم لي هو ما عقّد الأمور، وهو بالذات ماشجع الآخرين على مجادلتي، ربما تثوب جودي إلى رشدها، ونينا وأسيل أيضاً، نعم، سيتعلمن درساً من طردهم، أما إن لم ينخرطوا في الدور، فسيكون عليّ طرد كنان والبقية من الورق، وليس من الجزيرة فقط.

- 8 -

رغم ارتفاع الشمس في سماء الجزيرة، إلا أنها كانت متعكرةً ومموهةً بالغيوم الرمادية، هاجتِ المياه في البحيرة، وزلزلت الرعود المكان دون أن تسقط أي أمطار.

بدا كل شيء حاراً ومتعرّقاً بشكلٍ ملحوظ، الناس، الحجارة، الأشجار، وتطايرت أسراب كثيفة من الحشرات الطنانة، كأن ريحاً نفثت فيها، فتقاذفها الهواء كيفما اتفق.

دار كنان في المكان بقلقٍ ملحوظ، طرح شبكة الصيد من يده على الفور، تركها تتعثكل، بعدما أمضى قرابة الساعة في تفكيكها وانتزاع القشور عنها، توقف تماماً وهو يصغي لصوت الريح، بقي هكذا مسمّراً حتى لمح أسراباً كبيرة من طيور الإوز والنوارس، تتدافع زاعقةً في الهواء وتطير باتجاه الشمال، فركض مسرعاً نحو الشاطئ، سار حافياً حتى لامست قدماه المياه ثم انحنى ودس أصابعه عميقاً في التربة، وحين شعر بسخونتها، عاد فركض صوب الجنوب.

بدا أنه يركض بشكل مقصود في خطٍ مستقيمٍ، لم يحاول تحاشي الصخور في طريقه بل قفز فوقها قفزاً، حتى وصل إلى دغل منخفض، وراح يزيح بعض أوراق السُحلبيات المتجمّعة هناك، وهو يحملق في الأرض بتركيز شديد، وما إن لاحظ أسراب الخنافس والنمال، تركض خروجاً ودخولاً في بعض الفجوات المحفورة للتو، حتى أدرك أن كارثةً وشيكةً ستحل في الجزيرة.

تلفّت حوله من جديد وهو ينظر باضطراب، ثم ركض من جديد باتجاه الخُص الذي يعتزل فيه فياض، وهناك وجده يتأفف من الحر اللاسع، وهو يعكف على سويق نخلة صغيرة يحاول إسالة بعض السائل السكري منها، وما إن رآه فياض حتى شعر بقلق.

. تعالَ معي بسرعة.

ذُعر فياض لصوت كنان الذي عاد صارخاً:

. أين تالة؟

. ما الأمر، ماذا يحدث معك؟.

لكن، كنان تقدم وهو يجذبه من ذراعه صائحاً:

. البركان سيفور، عجّل، لا وقت لدينا، يجب أن نحذّرَ الجميع.

لم ينبس فياضٌ ببنت شفة، كان يثق بمعرفة كنان بأسرار الطبيعة، فقط واصل الركض معه بجنون صوب الأهالي، لكن ما إن اقتربا حتى شاهدا احتشاد عددٍ من الناس، وكأنهم ينتظرونهما، كانوا يقفون في صفٍ واحدٍ، وما أن اقتربا، حتى صرخ خاطر الذي كان يقف في المقدمة:

. ارجعا فياض وكنان، لن تدخلا إلى هنا بعد الآن.

ووسط لهاثه تمكن كنان من قول بعض الكلمات:

. اسمع خاطر، اسمعوا، البركان ...، البركان .... سيفور ... قريباً جداً.

. لا حاجة بك إلى تذكيرنا بما نعرف، فقط عودا أدراجكما، لا نريد رؤيتكما هنا.

. ماذا تقول أنت؟.

صاح فياض بقلق.

. ما سمعته يا فياض.

تدخل حسّان، وهو يقترب منهما، ثم أردف وهو يلّوح بيديه:

. اذهبا من حيث جئتما، لا تعودا إلى هنا.

تدخل كنان برجاء:

. خاطر وسيرين انتبها، جودي وحسّان يورطانكما، بعد قليل لن يعود في وسع أي أحد النجاة، لقد كنا نتعاون في السابق من أجل حماية أنفسنا...

. الكوارث تحل بنا منذ فترة، بسبب جحودكما للروائي أنتما وتالة، فقط غادروا جميعاً هذا المكان، ونحن سيحمينا الروائي.

قال خاطر بصرامة، وهو يندفع بقوة، ويلطم فياضاً على صدره طارداً إياه، لكن، الكل تسمّر حين جاء صوت جودي من وسط الحشود مباغتاً الجميع:

. سآتي معكما فياض وكنان، سأذهب حيث تذهبان.

حملق فيها فياض غير مصدقٍ لِما يسمعه، لكنها تسللت بسرعة من بين الحشد وكأنها تخاف أن يمنعها أحد، وقفت بجواره هو وكنان وهي تنظر لحسّان والآخرين بتحدٍ.

لم يكد الجميع يتخطى هذه الصدمة، حتى شاهدوا أسيلَ ونينا وهما تخرجان مسرعتين وتقفان مع كنان والبقية.

لم ينهِ حالة المباغتة التي خيمت على الكل إلا صوت كنان، وهو يشير بيديه في وجه الجميع صارخاً:

. أنتم سجناء الرواية، المحتجزون في سطورها الضيقة، تنظرون إلى الروائي هناك في الأعالي فتخشعون، تنتظرون منه المساعدة، لكنه مجرد وهْم لا ينفع ولا يضر، لن تنفعنا اليوم إلا معارفنا في الطبيعة، فهي الروائي الوحيد الذي يجب الاستماع إليه.

الفصل الخامس

- 1 -

لهاث الجميع كان مسموعاً بوضوح، علا الخوف والصراخ والشتائم، وفار كل شيء: الأعصاب والدماء والأدمغة والغضب والتوق للبقاء؛ صاح فياض باهتياج:

. كنا سابقاً نلوذ بالجدران الحجرية عند البحيرة يا كنان، دعنا نعود للشاطئ.

. إنهم يمنعوننا من الاقتراب منهم يا فياض، سيقتلوننا إن أصررنا على البقاء.

عاد فياض يصيح:

. لن نموت انتحاراً هنا، سيشوينا البركان بعد قليل، دعنا نعود ونقاتلهم.

رد كنان، وهو يتوقف ليتكلم معه وجهاً لوجه:

. فياض، نحن ستة فقط كما ترى، ولن تتحمل الإناث ما يمكن أن نتعرض له جميعاً لو عدنا، ضع ثقتك فيَ يا فياض واتبعني، أعرف أين آخذكم.

توقف فياض وهو يتأمل كناناً، تواجها لبرهة، بدت دهراً لجودي والبقية، نظر كلٌّ منهما في وجه الآخر، وهو يقرأ فيه شيئاً مختلفاً؛ تتقاطع الأنفاس، والصدور، تعلو وتهبط؛ تفرس فياض في وجوه الجميع ليرى ردة فعلها، استعرض بعينيه النافذتين تالة وجودي وأسيل وأخيراً نينا، ثم لانت ملامحه قليلاً، وهو يستعيد ثقته في ابن حكيمة الجزيرة.

. وهو كذلك يا أخي.

كان البركان في منتصف السماء تقريباً، يضطرم بعبوس غير ودود، ويطرد أدخنةً قاتمةً وكثيفةً، حتى أن الوجوه علاها الوحل، فاضطر الجميع إلى استعمال أوراق الموز الكبيرة، لحماية أنفسهم من السُخام الذي يحمله الهواء.

كان البركان يقذف بالمزيد والمزيد من الأتربة البركانية الدبقة والداكنة، وتنفس عدة مرات بدويٍّ مضطرم ومكتوم، لكنه، كان كافياً ليسمعوا جميعاً تحرك الحصى، واقتلاع بعض الأغصان الصغيرة وتطايرها بالجوار، وخفقان طيور مذعورة في المكان، ودبيب حيوانات وزعيق واهتياج جاء من ناحية البحيرة، وما لبث أن ارتفعت غيمة سوداء طوقت فوهته.

سلك كنانُ بمن معه درباً ضيّقا ومنحدراً بشكلٍ زلق ويُفقِد التوزان، وسط هواءٍ دبق وساخن بالكاد يمكن تحمّله، حتى أن نينا وجودي فقدتا توازنهما عدة مرات، لكن جودي التي لا تُجيد المشي في مسارب الأدغال الكثيفة، آذت كاحلها على نحوٍ تعذر عليها أن تسير معه بشكل مريح، عدا عن تسلّخ جلدة ساقها حتى الركبة، فاضطر فياض إلى مساعدتها طوال الوقت.

. لماذا تأخذنا من هذا الدرب الزلق يا كنان، ألا يمكن استبدال الطريق على الأقل؟.

سألت جودي، التي بان الشحوب على وجهها بشكلٍ ملحوظ، فرد كنان بلطفٍ ومؤاساة:

. هذا أقصر الدروب التي تقودنا إلى كهفٍ يمكن أن نحتمي فيه من البركان يا جودي.

. لا حاجة بكِ للقلق يا جودي وأنتِ مع كنان.

قالت أسيل، فتدخلت نينا بمودة ملحوظة:

. عبقرية كنان في الماء كعبقريته تماماً على اليابسة، لا تخافي.

. بالطبع، فهو ابن حكيمة هذه الجزيرة، لقد ورث عنها كل المعارف التي مكّنتنا من البقاء على قيد الحياة حتى الآن.

أجفلت جودي من كلام فياض، وشعرت كما لو أن سكيناً انغرست في أحشائها، لكنها أطرقت وهي تتعلق بذراعه، متحاشيةً النظر إلى أي واحدٍ من المجموعة.

أثار المكان القشعريرة في نفس جودي، التي لم تعتد السير بعيداً عن البحيرة وشاطئها، ومع الوقت بدأت تشعر بوهن حقيقي وصعوبة في التنفس، سعلت عدة مرات وبصقت الكثير من السائل الأخضر الذي تجمّع في حلقها، كانت بالكاد قادرة على السير على قدمٍ واحدة، وأعياها أن تضطر لأن تحجل على قدمٍ واحدة، حتى إنها شعرت كما لو أن ذراعها المتعلقة بكتف فياض، ستتسلخ عن جسدها، فاضطرت للتوقف، وهي تقول بإعياءٍ ولهاث:

. آسفة يا فياض لا يمكنني أن أمشي أكثر من هذا، أرجوك توقف.

توقف الجميع وهم يتطلعون لجودي، التي التصقت الثياب بجسدها من شدة الحر، وغطى وجهها السُخام، وشفتاها ترتجفان من الألم.

. هل يمكنك أن تحملها يا فياض؟.

سأل كنان بقلق، فسارع فياض إلى حملها على ظهره، وهو يقول ضاحكاً:

. إنها خفيفة كالريشة.

ضحك الجميع مواسياً جودي، التي راحت تمانع وهي تطرق على كتف فياض طالبةً إياه أن ينزلها عن كاهله، وعندما لاحظ إصرارها سألها بجدية:

. هل تريدين العودة لحسّان والبقية يا جودي؟.

هتفت بسرعة وقوة:

. لا.

. إذاً لا تقلقي بشأني، فأنتِ أخف وزناً من أغصان المانجروف التي أحملها على كاهلي من الشاطئ حتى عمق الغابة.

ضحك الجميع، لكن لشدة دهشتهم انخرطت هي في بكاء مر وصامت.

- 2 -

كان كنان مشغولاً بتضميد ساق جودي، ببعض الأعشاب التي تنبت حول أحد الغدران بالجوار، انتقاها بعنايةٍ شديدة، بعد أن تخلّص من كثير من العليق الذي اختلط بأوراقها الطويلة، غسلها جيداً من السُخام الذي علق بها، ثم سحقها على صخرةٍ ملساء حتى ترطّبت نزّ سائلها البنيّ الكثيف، حين سمع تالة تسأل:

. كيف حدث وجئت معنا يا نينا مُجازِفةً بغضب الروائي عليكِ؟.

. لم يكن روائياً ذاك الذي صدّقت أنني أحد شخوصه، بل إنه وهْمٌ أقنعتني به جودي وحسّان في لحظة ضعف.

. ومتى اكتشفتِ أنه وهْمٌ؟.

سأل فياض بفضول واضح.

. عندما انتبهت أنه لا يدعنا نقرر ما يخصنا أبداً، وأنه من يدبر لنا حياتنا طوال الوقت، ويضع سلفاً شروطاً للعلاقات، وطقوساً للحب والزواج، وتعاريفَ للأخلاق وللعدالة، وماعلينا إلا أن نقبل بها كاملة.

. وأنتِ يا أسيل؟

سألت تالة فتضرّج وجه أسيل، لكنها مع ذلك مضت بشجاعة، لفتت إليها جودي التي تتكئ على كتف فياض ويبدو عليها الإعياء بوضوح:

. أنا الأخرى أدركت أنني كنت أتبع وهماً، فمن يضع شروطاً عقائدية لارتباط المحبين، لا شك أنه يجهل طبيعتهم ولو كان هو من خلقهم.

. ماذا تقصدين بكلامكِ يا أسيل؟.

سألت تالة بحيرة.

التفتت العيون، كلها تنظر إلى أسيل، كان البعض ينظر إليها بفضول، والبعض الآخر بإعجاب.

. حدث أن أحببت أحد أذكى أهل الجزيرة، وكان لا يعتقد أنه أحد شخوص الروائي.

. من؟.

سألت تالة ببراءة وحيرة حقيقيتين، فأجابت أسيل بخفر:

. من لم يبدد من حياته دقيقةً واحدة في الاعتقاد بوهم.

تلفّت فياضٌ صوب كنان الذي كان يبتسم بمكر، أدار رأسه بحيرة نحو تالة والبقية ثم هتف ببلاهة:

. أهو كنان؟

انفجر الجميع ضاحكين، فعاد مرتبكاً:

. أوه، أظنني المقصود أليس كذلك؟.

. أنت أحمق كبير يا فياض حين لا تدرك ذلك.

قال كنان وانفجر ضاحكاً.

. هل حقاً تحبينني يا هذه؟.

تلاقت عيناها بعينيه أخيراً، حطت عيناها على وجهه وشعره وكتفيه ولحيته، كأنهما تمسحانه من الغبار والتعب ومرور الزمن، قاست فيها كل الوقت الذي مر، وهي تحاول أن تقنعه بحبها، وهو يجفل منها ويجرحها، كم بدا لها الماضي مراً وبعيداً، والحاضر سهلاً وجميلاً.

. أجل يا فياض.

. لطالما كرهتكِ لأنكِ تنادينني فياضاً.

. حسناً؟.

سألتْ كأنها متعبة.

سكت الجميع من حولهما، وهي لم تعد تشعر بأحد سواه، نظرت إليه تنتظر إجابته، فرد بارتباك:

. الروائي الذي آمنتِ به غيّركِ كثيراً، لم تعودي تلك الفتاة التي أركض وراءها على الشاطئ لأعيدها لأمها حتى تغتسل وتنام، لقد وقف حاجزاً بيني وبينك وبين كل شيء هنا.

. لقد كفرتُ به خصيصاً لأنه أراد أن يجعلك نسخةً ممجوجةً عني، ولأنه جعل حبي لك مشروطاً برضاه هو.

سكت فياض، وسكن الجميع، لم يتحرك أحد، إلا ليمسح العرق الذي يهاجم أجسادهم بسبب الرطوبة والحر.

كان فياض يتفرس في ملامح أسيل، ثم صاح ضاحكاً على عادته وهو يفتح ذراعيه:

. لطالما شككت أن ثمة أنثى قد تنجذب إليّ في هذه الجزيرة، فأنا لم أحب يوماً أن أُهزم أمام أحد.

. أنت بطلٌ حقيقي يا فياض، فلطالما كنت تهزم الروائي أمامنا جميعاً، كنت تتمكن منه وتحرج إيماننا به، لولا أننا كنا غارقين في البحث عن أعذار كي نستمر، وقد تمكنتَ أخيراً من مساعدتي على هزيمته في نفسي إلى الأبد.

. مرحى.

صاحت تالة وصفق الجميع وهم يضحكون، مسّد البعض على كتفَيْ فياض، والبعض داعب أسيلاً مشياً على شجاعتها، حين تلاقت نظراتهما من جديد، فغمزته بعبث فضحك.

. وأنتِ يا جودي؟.

سأل كنان بخفوت وألم، فتضرج وجه جودي بحمرة قانية وكأنها بوغتت.

تلعثمت بشدة وهي ترطّب شفتيها الجافتين بلسانها، شعرت بما يشبه الحصار غير المقصود، يدفعها إليه كنان بسؤاله المهذب

والحزين، عرفت بحدسها أنه يعرف أن أمه قد ماتت مقتولة، وليس كما ادعى حسّان يومها.

قالت بهدوء بعد أن استجمعت رباطة جأشها:

. اعترف بأنني قد انجذبت لفكرة كوني شخصاً في رواية، فقد كان يخفف عني أنني إنما أعيش في عالمٍ متماسك، صُنعت دواليبه على يد روائي مبدعٍ وفنان، وأن دواليب هذا العالم لا تسير إلا وفق خطته التي وضعها من البداية، لكنه كان يلوم شخوصه دائماً، حين لا تسير دواليب ذلك العالم كما أراد لها.

. كيف؟.

. عندما كان السرد ينفلت منه مُهدداً عالمه الروائي بالفوضى، كان لا ينفك يلومنا جميعاً، مدعياً أننا نحن من يوقع هذه الفوضى فيه، ثم صار يلزمنا بإزاحة مصدر تلك الفوضى كما يقول.

. حسناً.

لم تفت جودي الغصة التي بدت واضحةً في صوت كنان، حتى أسيل التي كانت هائمةً بالنظر إلى فياض، انتبهت بقوة، وراحت تُجيل عينيها بانتباه بين كنان وجودي، حين شعرت أن ثمة شيئاً خفيّاً سيُكشف عنه بعد قليل.

. تعاليمه لنا اقتضت أن نرتكب أفعالاً، لو قام بها شخص آخر من تلقاء نفسه لحُكِم عليه بالإجرام، لهذا طلب مني ومن حسّان قتل عجوز الجزيرة، وقد حرّضني كثيراً أنا وحسّان وسيرين وخاطر على اقتلاعك أنت وفياض من المكان.

. آه.

أطرق كنان برأسه، وهو يعبث بعود طويل في يده على الأرض.

. هل قتلتما عجوز الجزيرة يا جودي؟.

سأل فياض بفظاظة وهو يصيح، في حين اعتدلت نينا في جلستها وهي تنظر إليها بصدمة، أما تالة فلم تستطع كبت مشاعرها التي فارت للتو:

. هل أمركما الروائي بقتلها، هل فعلتما يا جودي، انطقي، هل قتلتما أم الجزيرة؟.

. لا، أقسم لكم أنني لم أقتل عجوز الجزيرة، أنا حتى لم ألمسها، لا يمكنني قتل حشرة كي أقتل إنساناً طيباً كحكيمة الجزيرة.

. من قتل أمي يا جودي، تكلمي أرجوكِ، لا يمكن أن أؤذيكِ ثقي بهذا، ولا أحد هنا يمكنه أن يمسكِ بسوء بعد أن تخليتِ عن كل شيء وجئتِ معنا، لتواجهي خطر الموت حرقاً بحمم البركان.

. حسّان.

. كيف؟.

. دفعها بقوة من على أحد التلال، وأعقبها برمي بعض الحجارة عليها.

بكى كنان، وانهارت نينا، في حين جحظت عينا أسيل وهي ترتجف، أما فياض وتالة فكانا متوثبين ومتوترين وعلى وجهيهما غضبٌ مكبوت.

. لماذا؟.

سألها من جديد وهو يشهق بالبكاء.

. لقد كشفت أمرنا كشخوص، وقررت طردنا من عالمكم الذي لم ترد أن يدخله الروائي، كانت تعرف بحكمتها أنه سيفسده لو حل فيه، قالت لي كلمات كانت دائماً تضج في رأسي وهي التي حررتني لاحقاً.

. ماذا قالت؟.

. قالت إننا ولدنا في عالمه عبيداً، حين كان يجب أن نولد فيه أحراراً.

تدخلت تالة بغصة:

. صدقت أم الجزيرة، فهل كنا أحراراً حين أوجدنا بنصه عنوة، وحين طردنا منه عنوة كما حدث الآن؟.

ران الصمت على المكان، بدا أن الجميع لا يشعر بشيء مما حوله، وكأنّ لا حر، لا أدخنة أو غبار يتناثران في الهواء، وكأنّ خطر انفجار البركان قد انتهى، إلى أن تكلم فياض بغضب:

. لقد جلب نص ذلك الروائي الكثير من الدمار لنا، وها هو لا يتورع على أن يذهب بكم من دون رحمة، عندما لم تتصاعوا له ولتعاليمه، حتى أنتِ يا جودي، رغم أنكِ قد كرستِ نفسك لأداء دوركِ، فها هو يطردك منه ببساطة، فإخلاصك الطويل له لم يلزمه في شيء على ما يبدو.

. كيف استطاع أن يقنعكِ وحسّان بهذه الأعمال الشائنة يا جودي؟.

سأل كنان من جديد.

. كان يتذرع دائماً بالحكمة التي يصعب على عقولنا فهم مغزاها، كان يخبرنا أن طبيعتنا تحُول بيننا وبين فهم تعاليمه لنا.

تدخل فياض:

. لطالما كان الروائي متوحداً مع ذاته، مكتفياً بنفسه، لكنه خرج

من وحدته وأوجدكم في عالمه، ثم جاء يكلمكم كي يوصل إليكم مقصوده، فلا أقل بعد كل هذا من أن يكون خطابه لكم واضحاً ومفهوماً، وألا يوقعكم في التحزير والاجتهاد طوال الوقت.

نينا:

. يجب أن نتحرر من هذه الرواية، ومفتاح الخروج هو في أيدينا الآن.

- 3 -

. لم ينجُ غير قلة من تأثيره كما أرى.

قال كنان، وهو يسند ظهره إلى جدار الكهف، بعد أن ارتاحوا جميعاً واغتسلوا، فتدخلت نينا:

. كان يخيفنا بالطرد من الورق طوال الوقت، وقد سمى طردنا من نصه عدماً، جعله يبدو كألمٍ مستديم وعذاب لا يمكن احتماله.

رد فياض:

. لم تتطلِ عليّ فكرة العدم هذه أبداً، لا يوجد شيء نعرفه غير الموت، كان يجب أن يكلمكم بما تفهمونه، كي يكون كلامه لكم أخلاقياً على الأقل.

قال كنان بمرارة:

. لقد جاء الروائي كي يثير شقاقاً بيننا وبين الطبيعة، انظروا، إن كل شيء من حولنا لابد أن يموت، إنها النهاية الحتمية لكل الكائنات، فلماذا نشذ نحن عنها بالخلود، الموت هو الفكرة الوحيدة التي نتساوى أمامها جميعاً، وهذا أجمل ما منحتنا إياه الطبيعة.

استدارت جودي نحو كنان، وهي تحس كأنها تستمع لعجوز الجزيرة من جديد، ابتسمت له بمودة وحنان رغم دموعها التي تجاهد للتحكم بها.

. ما المزعج بالنسبةِ لكِ في الموت حتى أخافكِ إلى هذا الحد يا نينا؟.

سأل فياض جاداً.

. إنه انعدام أي وعي في هذه الحياة وتوقف أية تجربة لها تماماً، لهذا وعدنا بالخلود كي يظل وعينا بالحياة حاضراً أبداً.

عاد كنان باستنكار:

. أوه، أيوجد حقاً من هو مستعد لتكبد عناء الأبدية؟.

. بدت لنا الأبدية شيئاً جميلاً حينها، الآن أدرك أنها كذبة، فهي مضادة لكل قوانين الطبيعة.

قالت أسيل، فتدخل فياض من جديد:

. أرى أنه قد أجاد تخويفكم جميعاً بالموت، لكن لا يوجد حتماً معاناة أو ألم خلف الموت.

عاد كنان وهو يهز رأسه بأسى:

. لقد سرق الروائي من الطبيعة مكَنَاتها في تجديد نفسها بالموت والحياة الدائبين، إنها رشوة موهومة لكم، لكن من الجيد أنكم أفقتم من غيبوبتكم، قبل أن تُجهِزوا جميعاً على كل شيء هنا.

*****

من داخل الكهف البارد، كان في الوسع رؤية الأفق وهو ينفتح أمامهم عن ضوءٍ لامعٍ يخطف الأبصار، وللمرة الرابعة على التوالي، يقذف البركان بشرره، مُزيحاً كل شيء عن الأرض بانجراف قوي.

. يجب أن نُوقد شعلة نار عند مدخل الكهف، حتى لا تدخل الحشرات السامة وتقتلنا، هيا.

صاح كنان، فهبت تالة على الفور تلتقط حجرين أملسين، وهي تقدحهما بقوة أمام كومة من الأوراق الجافة.

جودي بعينيها الزائغتين وهي تراقب الشرر ينقدح ضعيفاً من بين الحجرين، مدت يدها النحيلة المزرقّة من الكدمات والخدوش إلى كتف تالة قائلةً بوهن:

. على مهلك يا أصف.

. ما الأمر يا جودي؟.

التفت الجميع لجودي بوجهها الشاحب وشعرها الأشعث.

. يُخيل إليّ أنني أسمع صوت صراخ أحدهم في الجوار.

. أنتِ لستِ محمومةً يا جودي، أليس كذلك؟.

سأل كنان بقلق وهو يقترب منها ويتحسس جبهتها المتعرّقة.

. أنصِت بتركيز يا كنان، لقد سمعت صياح أحدهم للتو.

. مع هذه الضجة في الخارج، وصوت الحجارة في يد تالة لا يمكن إلا أنكِ تتخيلين يا جودي.

قال فياض ضاحكاً وهو يحتويها بين ذراعيه، ويمسح وجهها ببعض الماء البارد من النبع الشحيح الذي يسيل داخل الكهف.

سألت أسيل بتعاطف صادق:

. هل تشتاقين إلى حسّان يا جودي؟.

لم تجب جودي، كان في انحدار الدموع على خديها الجواب الذي أراد الكل أن يعرفه.

. جودي؟.

. نعم يا كنان.

. أترغبين في الكلام، نحن أخوة جميعاً.

بكت بصوت مسموع، وهي تقول:

. أشعر بندم كبير يا كنان، لقد آذيتكم جميعاً أنا وحسّان، لقد سكتُّ طوال الوقت عن قتل أم الجزيرة، أنا وسخة جداً وشريرة.

. لا نعرف هذه الكلمات هنا، ولسنا بحاجة إليها، أرجوكِ لا تستعمليها يا جودي.

. إنها كلماتها يا كنان كلماتها.

قالتها وانهارت بالبكاء، فاحتواها كنان، وهو يمسّد شعرها الطويل:

. أنتِ لم تطردي ذلك الوهم من حياتك كلياً يا جودي، كما فعلت أسيل ونينا وتالة، إنهن لا يحتفظن من تلك المرحلة إلا بأسمائهن، لقد عدن لا يعرفن هذه الأشياء، يجب أن نعود للتماثل الذي قضى عليه ذلك الروائي، والأهم أن نعود أخوة.

. كنان محق، انفضي هذه الكلمات من عقلك يا جودي.

قالت أسيل.

لكن الكل سكت فجأة، حين انتفض كنان بقوة، واتجه صوب مدخل الكهف.

تحاشى النار الصغيرة التي أشعلتها تالة، وتقدم بحذر وهو يمد رأسه خارجاً، ملوحاً بيده ليطرد أسراب الحشرات التي تتطاير أمامه، حرك عنقه يميناً ويساراً، ثم خرج وتمشى بعيداً وهو يغطي فمه وأنفه بعقفة ذراعه.

مرت الدقائق طويلة، بدت للجالسين في الكهف كأنها ساعات، لكنه ما لبث أن دخل ووقف بوسط المكان، قائلاً ما كانت جودي تنتظر سماعه بفارغ الصبر.

. البركان يلقي بشرره بعيداً عن هنا، نحن بأمان كبير داخل الكهف، لأننا تقريباً خارج مرمى حممه التي يلقيها هناك.

. هناك أين؟.

سألت نينا بقلق.

. على أخواننا عند البحيرة.

. وماذا نفعل الآن؟.

سأل فياض وقد انتصب واقفاً بدوره.

. يجب أن نذهب لتفقد أخوتنا عند البحيرة حالاً، ونرى إن كان يمكن إحضارهم إلى هنا، أو إلى كهفٍ آخر في الجوار.

. لكن الحائط الحجري المحاذي للبحيرة كفيل بـ.....

لكنه قاطع تالة بسرعة، وكأنه لا وقت يسمح بأي كلام:

. لقد أهملنا ترميم الحائط منذ سنوات، وقد علاه التشقق منذ بعض الوقت، ولم أستطع ترميمه بسبب وقوف خاطر وحسّان والبقية ضدنا طوال الوقت.

. لنذهب لمساعدة أخوتنا حالاً إذاً.

قالت أسيل، ونهضت واقفة، نهضت نينا أيضاً، واقتربت من كنان وفياض، لكن كنان سار نحو جودي، جلس قبالتها، وهو يمسك بيدها المتسخة بين يديه.

. جودي؟.

. ماذا يا كنان؟.

. لقد كنتِ محقةً، ثمة من يصرخ عند البحيرة، لقد سمعتِهم بقلبك النقي، سنكون هناك أنا وفياض والبقية، وأنت ستبقين مع نينا هنا، هل تفهمينني؟.

أرادت نينا أن تعترض، لكن الصرامة التي لاحت على وجه كنان ألجمتها، لأول مرة تراه عصبياً ومتوتراً ويتكلم بلهجة آمرة، وتذكرت للفور أم الجزيرة وهي تنهرها عندما كانت تركض في المطر، فتعيدها للمهجع بضربها بالعكاز على مؤخرتها.

. لقد تغيرت حال الطريق التي جئنا منها يا جودي، إنها موحلة ودخانية وتمور بالحر اللافح الآن، لهذا ستبقين مع نينا إنها ممتازة في العناية بالمرضى، إنها تلميذة أمي.

- 4 -

كانت من أسوأ الساعات التي عاشها كنان بحياته، إنه يركض الآن تحت سماءٍ عدائية ومزمجرة، صحبة ثلاثةٍ آخرين، لا يدري إن كان يذهب بهم إلى حُتُوفهم.

لم يكن مهتماً كثيراً بما يحدث له، كان همّه الآن أكثر من أي وقتٍ مضى، أن يعود بسرعة لمنطقة الشاطئ، ويتفقد حال الأهالي هناك، كان قلقاً من أنهم لا يعرفون كيف ينقذون أنفسهم، فقد ترقّقت علاقتهم بالطبيعة، مذ جاء حسّان وجودي للجزيرة، وقد سمع مع البقية صوت البركان وهو يتغيظ فائراً بحممه، قبل أن يلفظها من جوفه، مطوّحاً بها على منطقة الشاطئ تقريباً، ومعها شاهدوا جميعاً اقتلاع الأشجار وتطايرها في الهواء، كأنها أغصان يرميها ولد صغير يلهو على الشاطئ، ودبيب حيوانات وصهيل خيول وزعيق طيور وفحيح.

. انتبهوا جميعاً.

صاح كنان في الثلاثة من خلفه وهو يشير بيده إلى الأمام.

. سندخل للأحراش الآن، الحر خانق هناك، والهواء ملوث، سنسلك درباً حزيزاً وموفوراً بالنباتات الخشنة، إنه الأقصر كي ندخل لمنطقة الشاطئ من عند المهجع القديم.

كان الدرب ضيقاً ومعتماً بسبب تكاتف الأشجار في المكان، والطريق في أحد المواضع كانت تُشرف على حفرةٍ مملوءة بالأحجار المسننة، والسُخام الذي غطى كل شيء، لكنها كانت مقطوعةً بسبب انجراف إحدى الصخرات وتكسرها، وقف كنانٌ أولاً على إحدى الحَجَرات وهو يقيس المسافة بسرعة، استجمع أنفاسه وهو يركز عينه على منطقة الشاطئ، ثم تراجع خطوتين وركض للأمام مُلقياً بنفسه في الهواء، لحظات وجيزة ولحقته تالة برشاقة وقوة.

شهقت أسيل بقوة، وحبست أنفاسها حتى شحبت، لكن يد فياض غمرت كتفها، قرّب شفتيه من رأسها وقبلها بقوة، ثم ركض للأمام بسرعة وقفز في الهواء.

للأمام كان كنان وفياض وتالة يلهثون بإعياء، ومقابلهم تأهبت أسيل للقفز هي الأخرى لكنها خافت، بقيت تنظر بعينين زائغتين صوب فياض الذي فتح لها ذراعيه، وأومأ لها برأسه مشجعاً وهو يصيح:

. ستفعلينها يا ابنة الجزيرة، لطالما كنتِ أسرع أبناء جيلك في الركض خلف فراخ السمّان.

رفضت أسيل أن تنظر في وجه أحد، فقط حملقت في الهوة الداكنة تحت قدميها ورفعت رأسها تقدر المسافة للأمام والخلف، ثم جمدت، لكن صوت كنان جاءها مطمئناً وسخياً:

. ارجعي للخلف قدر مترين يا أسيل، وتعالي ركضاً، هيا، ستكونين هنا في ثوانٍ.

وثقت أسيل بكلامه، منحته غمزةً قبل أن تأخذ نَفَساً عميقاً، وبهدوء تراجعت وتراجعت ثم هبت راكضةً، طارت صارخةً وهي تؤرجح قدميها في الفراغ، وما إن دنت من جرف الصخرة حتى أغمضت عينيها، وهي تشعر بالأرض تترك قدميها، والهواء الحار من حولها صار لطيفاً وكأنه سحابة، وحين حطت بقدميها على الأرض عضت على شفتها من الألم.

اصطدمت بجسمٍ صلبٍ ودافئ لكنه دبقٌ ومتعرّق، فتحت عينها مرتعبةً لتجد نفسها بين ذراعي فياض، الذي أبعدها قليلاً عنه صارخاً:

. لقد قفزتِ حتى أطول مني ومن كنان، انظري.

ركض الجميع لساعات، تحت لسع الهواء الساخن ولدغ الحشرات، على أرضٍ دبقة ومثخنة بالحصى الأملس والموجع، وهم

يدفنون أنوفهم في عقفة أذرعهم، تفادياً لاستنشاق الهواء المترب والداكن الذي يأتي مع عَبَرات البركان، تفصّدت أجسادهم عن أمواج من العرق والإعياء، تسلخت أرجل أسيل وشعرت تالة بوجع لا يحتمل في ظهرها، لكنهم واصلوا الركض بصمت في الأحراش.

. سيهطل المطر بعد قليل أنا متأكد، الغيمة هناك ستنسكب مطراً أسودَ لجوجاً بعد قليل، لهذا يجب أن نسرع حتى لا ننزلق مع الفيضان قبل أن نصل إلى الشاطئ.

*****

وعندما اقترب كنان والبقية من منطقة المهجع القديم، كانت أسيل على وشك السقوط على وجهها، بسبب العذاب الذي يحرق قدميها المتسلخين، من الركض على الحصى والأرض الخشنة، لكن الصورة التي رأتها للمكان، جعلتها تبتلع كل ألمٍ وهي تجلس على ركبتيها، لأنها قدرت أنها ستعيش ألماً آخر لبقية حياتها على أهالي الجزيرة.

كانت بقعٌ متناثرة من الحمم تفور على الأرض، تبقبق بشهيقٍ طويل، تعلو معه الفقاعات وتهبط ثم تنفجر فجأةً في زفيرٍ محموم كبريتي اللون، والهواء يأتي للمكان بقذارة تشبه براز الحمام، رصاصية ورطبة وتلتصق بكل شيء ثم تتركه محترقاً.

وقف كنان باكياً وهو ينظر إلى المكان من حوله، ووقف وراءه فياض وتالة منهكين أسودين من الغبار، متسلخين في مواضع كثيرة ومتورمين بشكل ملحوظ، وبالكاد يمكن رؤية أعينهم الجاحظة وسط وجوههم المعفرة بالدم.

كان كنانٌ صامتاً وهو يمسح السائل المُخاطي عن أنفه، يدير بعينيه في المكان بصمت وفزع، ثم التفت لفياض وتالة خلفه.

. أعتقد أن الأهالي هناك عند الحائط الحجري، أو على الأقل عددٌ كبير منهم، لكننا لن نستطيع الركض إليهم على هذه الأرض الملتهبة، سنسلك طريقاً آخر، ونلتف حول الحائط من عند الخُص الذي اعتدت الاعتزال فيه يا فياض، أتمنى ألا يكون قد احترق هو الآخر، هيا.

في الظل الذي يُلقيه الحائط الحجري المهّدم على التراب، كانت أكوامٌ من لحمٍ ودمٍ وعرقٍ وقيحٍ ودموع ومخاط تتلوى هناك وهي تئن، أسيل التي ظنت أنها قد فقدت كل حواسها، بسبب عدم شعورها بالألم في قدميها المتورمتين والممتلئتين بالدمامل والقروح، انتبهت للمذاق المر والغزير في فمها، كانت تبكي من دون أن تنتبه، وهي تسحب مع تالة عدداً من الأطفال المحترقين، زاغت عيناها وهي ترى بخاراً ساخناً يصعد من بعض الأجساد المحترقة، بدا أن هذه الأجساد قد جُرجِرت إلى هذا المكان، لأنه لم يكن ثمة بقع للحمم في الجوار، لكنها توقفت بسرعة وهي تلطم كتف تالة موجهةً بصرها صوب اليمين.

. أحدهم ينادي كناناً، لقد سمعته أنا متأكدة.

كادت تالة أن تقول لها إنه يكفي جودي واحدة اليوم، لكنها تركتها وطفقت تفتش بين أكوام الأجساد المطروحة تحت الحائط، حتى شاهدت وجهاً مسلوخاً ومنزوع الشعر، أسنانه تصطك وهو يئن فلم تعرفه أسيل أول الأمر.

. كنان هنا، إنه في الجوار إنه هنا لا تقلق.

قالت أسيل وهي تبكي، وتضع يدها بحرص على صدره تتحسس قلبه.

. أسيل؟.

. نعم أسيل.

. لن ينقذنا غير كنان، نادِهِ يا أسيل، أغلب الأهالي هنا، قليلٌ هم الذين فرّوا للأحراش.

عرفت أسيل صوته، كان خاطر، خاطر، احتضنت أسيل ذراعه التي لوح بها وهي تصيح بأعلى صوتها:

. كنان، كنان، يا كنان.

بعد برهة، كان فياض وتالة يحملان جيئةً وذهاباً، عدداً من الأجساد التي تأكدوا أنها لازالت على قيد الحياة، على نقالةٍ صنعها فياض على عجل، من سوقٍ ليّنة لأشجار القصب مربوطة بالليف، بعد أن غطاها بما وجده من أوراق الشجر إلى حيث كنان وأسيل في الأحراش، وقد طفقا يدهنان أجساد الجميع هناك بطين بارد ولزج باحتراس شديد، وما أن توقف فياض وتالة، حتى قام كنان ودفع بأسيل حتى عنقها في البركة الموحلة أمامه، وقبل أن تفيق من صدمتها قال:

. ابقي هكذا لبعض الوقت، الوحل البارد سيمتص القروح في جلدك، لا تتحركي هذا أمر.

ولم ينتظر كنان ردها، هتف برفيقيه:

. جِدَا حسّاناً والبقية يا فياض وتالة هيا، إن جودي تنتظر أن نبرّ لها بوعدنا في أن ننقذ حسّاناً المسكين، يقول خاطر إنه فرّ

للأحراش ليحتمي بها مع آخرين، ولتأتيا بعدها، وتستحما في هذا الطين بسرعة.

وما لبث أن هطل مطر دقيق وملحاح ليومين كاملين، غسل معه كل شيء، القروح والأوساخ وحتى القلوب.

- 5 -

. تباااااااااً!.

صرختُ بغيظ.

بعصبية وهياج محمومين أغلقتُ الدفتر، جمعت الأوراق على عجلٍ ووضعتها في الداخل، وانهلت بقبضتي على واجهته، ثم تلبّسني جنون ما، فأمسكتُ القلم ورحت أطرقه على الطاولة أريد أن أكسره، وحين لم يتحطم، طوّحت به في الهواء بقسوة، أريد أن أفرغه من الحبر، وأفرغ رأسي منهم.

. أولئك الجاحدون، التافهون، النكرات، سأوقفهم عن أي سلوك، ولن أتقدم بهم للأمام خطوةً واحدةً، سأترك النص مفتوحاً على كل التأويلات، يبحث عن قاريء ذكي واحد، يعرف أنني حاولت السيطرة عليهم، لكنهم كانوا مارقين، جشعين، وأرادوا مقاسمتي الفعل، وتغيير النهايات.

إنها رواية قديمة، صممتُها على نحوٍ نادرٍ ورفيع، كانت لتكون قطعةً من الفن السامي بلاشك، لكن للأسف، لم يساوِ هذه المثالية فيها إلا خسارتي معهم، وفشلي في التحكم بهم، فقد بدوا غير قابلين للتعديل، أو الخضوع للسيطرة حين تفتق طموحهم على

سطوري، وطفقوا يطلبون الانفصال عني في السرد، وأعلنوا التشكيك بغرضي الروائي، بل في وجودي برمته، كانوا طوال الوقت ممتلئين بالشكوك، مغلّفين بعدم اليقين، ونهرٌ كاملٌ من الأسئلة، يصطخب في عقولهم.

ـ لا، لا، لا.

هتفتُ بحنق وجزع، وعدتُ أكلم نفسي بصوتٍ عالٍ.

. لن أترك النص مفتوحاً أبداً، فأنا لست عاجزاً، هكذا سيكونون قد انتصروا عليّ، وكتبوا هم النهاية، وأنا قادرٌ تماماً على الذهاب بهم والإتيان بغيرهم، فقدرتي تتجاوز العادي والمألوف.

سأعيدهم جميعاً للعدم، سأفني وعيهم الحالي بوجودهم على سطوري، وأخلق شخوصاً آخرين غيرهم، فقد جسّدوا طوال الوقت، وقوع شيء شاذ في عالمي الروائي المنتظم، رغم جهدي الهائل لتفادي ذلك.

سأعيد تصميم عالمٍ روائي جديد، بناءً على تاريخي السابق معهم، وسيعكس عالمي الجديد فضاءً خالياً من شخوصٍ يسعون للكمال، أو يلحون في السؤال، فأنا أحتاج إليهم كي أُعرف، وكي يجري ذكري في كل المجالس، وهم أدركوا هذا من الصفحة الأولى، وفي الرواية الجديدة سأعمل على تفادي كل هذا.

فكرت هكذا وأنا أجمع الأوراق، وأحاول ترتيبها بحزمة واحدة، تمهيداً لإعمال المقص فيها جميعاً، لكنني فزعت بشدة وتملكني الذعر فجأةً، فرميتها من جديد بعيداً عني، فعلتُ ذلك كما لو أن عقرباً لدغني.

إنهم يقومون من الورق، يتسربون من بين فرجات الأسطر، بعضهم مرق من اسمه الذي وضعته له، شقه نصفين وغادره أمام عيني، اندلقوا على سطح المكتب وانتشروا بسرعة رهيبة في المكان، ولشدة اهتياجي وذعري، أحسست كما لو أنهم يغلقون أبواب الغرفة وهم يتراكضون بجانبي من دون أن أراهم، ويتنزهون في تفاصيل المكان من حولي دون أن ألحظهم، مصريّن على الحديث معي حين أردتُ أن أهرب، مستعدين للكلام معي حين قررت أن أصمت، وهاهم يتوزعون على الأرائك والمقعد المقابل للنافذة، لقد فعلوا كل ذلك من دون ضجة، من دون أن يتركوا أثراً، أو يخلعوا قفلاً، ولم يخلّفوا وراءهم أية فوضى!.

هرعت للورقة الأخيرة، اختطفتها بسرعة حين حزرت ما ينوونه بها، أردت شطبها أو تمزيقها، أو ابتلاعها، أو رميها من النافذة، قبل أن يصلوا إليها، حتى لا يكتبوا النهاية التي يريدونها، لكنني توقفت مصعوقاً.

كل الورق كان هو البداية، مئات الأوراق مبعثرةً أمامي؛ كلها تمثل البداية، لا أجد النهاية، لا أجد الفصول، لا أجد تقسيمات الشخوص ولا الأحداث، لا أجد الخطة، ولا أجد أي شيء آخر.

اشتعل العطش للكحول في دمي، وشعرت بطنين هائل في أذني، فهرعت للمطبخ وأنا أرتجف، وفي الظلام فتحت الخزانة، اختطفت زجاجة النبيذ، وقفلت راكضاً لغرفة المكتب، لكنني تلكأت في منتصف الطريق، أردت احتساء بعض الشراب قبل أن أدخل إلى الغرفة وأجدهم هناك، لكن، لم يكن قد تبقى منه الكثير، بضعة رشفات لا تصنع لي شيئاً، وتذكرتُ بعصبية أنني لا أحتفظ بالمزيد

منه، ولا من أي شراب آخر قد يمنحني تعقلاً ما في هذه اللحظات، لمواجهة هؤلاء الذين بدا أنهم يقودون تمرداً علي، وقد تأخر الوقت كثيراً، إنها الرابعة صباحاً الآن، وليس ثمة متجر واحد يمكن أن يبيعني كحولاً في هذا الوقت المتأخر، أو ربما المبكر، وسيكون عليّ أن أواجههم وأنا أعزل من النبيذ.

*****

. أيها اللصوص، يا أبناء الحرام، لقد استوليتم على روايتي، وعبثتم بها.

صحت بهم مصعوقاً، وأنا أحمّلق في الرواية بين يديّ الفزعتين:

. ماذا فعلتم بالنهاية؟.

. انتهى كل شيء.

. من؟.

. حسّان.

تكلّب الذعر بأطرافي؛ حسّان بالذات يتكلم، حسّان؟. لكنني تمالكتُ نفسي بالكاد وأنا أسأله:

. حسّان، ماذا يحدث هنا؟.

. نحاول العودة لوقتٍ لم تكن فيه.

. أنا الوقت وكل شيء، لا تُتعب نفسك.

. ليس لك سلطان علينا بعد الآن.

. تحدّث عن نفسك فقط يا حسّان.

لكنّ، الباقين تدافعوا والتفوا حوله، وهو بالذات وقف قبالتي بتحدٍ وصلافة.

قلتُ بإعياءٍ وأنا أدّعي التماسك:

. أتعتقدون أن بوسعكم الإفلات مني؟.

ردت جودي:

. مذ وعَينا حقيقتكَ، ونحن نسعى للإفلات منك، لكنكَ دبق، تُصر على أن تُطل بوجهك المستبد في كل شؤوننا، وفي كل يوم من أيامنا نجدكَ في الجدران التي نجحتَ في بنائها داخل عقولنا زاعماً أنها لرعايتنا.

تكلّمت سيرين:

. نحن هنا لنعلن نهايتك، ولنقول لكَ إنكَ بتَّ ميتاً بالنسبة إلينا.

صرختُ بجنون بعدما استفزني البرود والتجهم في نبرتهم:

. أتعرفون سر كل هذا الحفر في داخلكم، حين تطمحون لصنع مصيركم وحدكم وتعجزون؟. إنه أنا تركت فيكم مسماراً.

عادت جودي:

. وجودك أفسد كل شيء، أحدث الكثير من العطب والخراب في حياتنا، وقد آن لك أن تتراجع، وتنسحب إلى العدم.

ضحكتُ بهستيريا.

. كنتُ على وشك أن أرمي بك إلى سلة المهملات أنتِ والبقية.

. مخطئ.

تكلم فياض، وتابع:

. هذه المساحة هي لنا وحدنا، وعليكَ أن تغادرها حالاً.

. ماذا يا فياض؟.

. أنت صنيعتُنا، نحن من كتبك لا العكس.

ارتدْتُ بجزع، نظرت حولي باختناق وذهول.

. هذا جنون لم يقابلني يوماً مع أحد شخوصي، ماذا فعل بكم الوعي الذي منحته لكم؟.

تكلم كنان:

. وعينا بالذات هو الذي أنتجك، وعينا المغلق على نفسه ضد سائر الموجودات، والعاجز عن أن يصل لجوهرنا، هو بالذات الذي أوجدك، كي يجد مهرباً لحالة العزلة الكونية التي يعيشها.

. هذا السخف ليس له مثيل على الإطلاق.

تالة:

. لقد شكّلت مضاداً رائعاً لوحدتنا الوجودية، فتوهمنا أننا على علاقة مباشرة معك في خواطرنا، وجودك أشبع لهفتنا بأننا نتواصل مع مَنْ هو خارج ذواتنا.

. هذه أكبر مؤامرة تشهدها رواية على الإطلاق، هذا هراء، كله هراء، ومؤامرة دبرتموها كي تسلكوا في السرد كما تريدون أنتم.

تدخلت نينا:

. أنتَ الهراء الذي تضخم فينا بسبب خوفنا، وضعفنا أمام المجهول والمستقبل، والمادة، والطبيعة، والظواهر التي تحيطنا ولا نفهمها، أنتَ الهراء الوحيد، الذي أنتجته رغبتنا في أن نعرف عِلل

الأشياء، والعلاقات، والظواهر، وقد أجاد وعينا تصويرك، على أنك الخالق الكامن خلف كل هذا.

تكلم فياض:

. نحن خلقناك من طين جهلنا، وحيرتنا، وقلقنا، وتساؤلاتنا، حتى إننا أنتجنا معك منظومةً كاملةً من مفرداتٍ تشي بجهلنا وقصورنا، فسلكتَ في حياتنا بالغموض والأسرار، لهذا دائماً ما كنت تكلمنا عن الحكمة والمغزى، ومحدودية عقولنا كلما جادلناك، وكلما تجرأنا على السؤال، أو فكّرنا خارج الصندوق الذي حبسَتَ فيه طبيعتنا، وجوهرنا المعزول هذا أنتج في النهاية خالقاً مثلنا لا يعرف شيئاً، وعاجزٌ عن فعل أي شيء، أو تفسير أي شيء.

. وشكواكم الدائمة من الألم والعذاب والشرور، الذي أسببه لكم هل هي متخيلة أيضاً؟.

خاطر:

. الآلام والعذاب والشرور هي صنيعتنا نحن الخالصة، وجودك كان لتحمِل عن كاهلنا المسؤولية عنها، فقد خضنا باسمك صراعاً، استعمرنا باسمك أماكنَ وعقولاً، تخلّينا عن أحدهم باسمك أو تعلقنا به باسمك، لقد كنت شماعة مثالية نعلق عليها كل آثامنا، ونأخذ تحتها كل ما نريده من الحياة عنوة.

أكملتْ سيرين:

. وعينا الذي أنتجك تواطأ علينا، فجعلنا نقدّر أننا لا يمكن أن نحسك، أو نشمك، أو نعقلك، ولا أن ندرك حتى آثارك، فقرر لنا أنك تبزغ مع كل ألم نمر به، وتفور مع كل جرح نصاب به، وتضطرم

مع كل خذلان وخيانة نتعرض لها، وعينا جعلك هناك فقط كي نلجأ إليك، ونحتمي بك، وكي نجد في حضورك بعض السلوى، وربما القوة.

انهرتُ جالساً وأنا استمع لنينا تتكلم:

. مع وجودك بزغ تخفيف هائل من خوفنا من الفناء، لأننا لا نفهم السر في أن نأتي للحياة هكذا وأن نرحل عنها هكذا، وجودك جاء بالحل الذي يريحنا، إنه الخلود في آخر الرواية، وهذا لن يكون إلا معك بالطبع.

حسّان:

. لهذا خلقناك على هيئتنا، تخاف الموت، وتأمل في خلودٍ ما.

كنان:

. والنتيجة أننا أنتجنا إحدى أكبر منجزاتنا الوجودية على الإطلاق، إنها هذه الرواية التي كنت أنت بطلها الوحيد، وكنا كلنا فيها الروائيين، أسقطنا عليك كل أشكال الترميز والغموض، حين جعلناك تسلك باتجاه خدمة أسئلتنا الأولى، مَنْ نحن، ولماذا نحن، وإلى أين نحن ذاهبون، وماذا ينتظرنا على الضفة الأخرى، وهل هناك من ضفة أخرى، جعلناك تقترف أول وأكبر مغامرة عقلية لنا على الإطلاق، حين التزمت بالفرضين الضروريين لنجاح أي رواية، وهما الانضباط التام بدورك، والثقة بأننا من صُنعِك.

جودي:

. كنتَ أفضل وأهم بطل يتجشم عبء تمثيل وهمنا، حين سلكت باتجاه تحقيق النهاية التي ندور عندها من صفحة البداية، إنها أن

نعزو إليك كل ما لا نعرف، وكل ما نخاف، وكل ما نأمل، وأننا لا نعرف شيئاً حتى آخر سطر، وآخر كلمة.

. هذا أكثر مما يمكنني أن أحتمله.

تمتمتُ بوهن.

. بل كانت الرواية هي أكثر مما يمكننا أن نحتمله، فقد زعمت أنك خلقتنا، لكنك عجزت عن الإجابة عن كل احتياجاتنا الروحية والإنسانية، التي لا يمكن التهرب منها.

تكلمت أسيل.

. اعتقدتُ أنني أجبتكم، أو على الأقل قدمت إجابات إذ لم أظل صامتاً حيالكم.

. كانت إجاباتك تتمتع بامتياز كونها صادرة عنك فقط.

قالت نينا.

- 6 -

. والآن؟.

سألتُ بمرارة:

. لقد كنتَ ابن عصرٍ سالفٍ عندما كنا لا نعرف، ونحن الآن أبناء عصرنا، أبناء ما نعرف.

أجاب خاطر.

. وماذا دهى وعيكم فجأة هكذا، حتى تدركوا أنني صنيعتكم لا العكس؟.

تبرّعت سيرين:

. وعينا كأي شيء آخر من حولنا، يتطور؛ الحياة كلها تمشي في مسيرتها إلى الأمام، ووعينا بدأ طفلاً صغيراً يريد أباً، يريد يداً تربت على كتفه، وتحتضنه حين يجهش بالبكاء.

فياض:

. وعينا كان كطفل تُرك على قارعة طريق، دون رعاية ما، لا يعرف من أين جاء ولا إلى أين سيمضي، لكن هذا الطفل تعلّم اليوم كيف يمشي بثقة وثبات بعد أن تخلص من خوفه.

. وكيف تفهمون الطبيعة والمادة وسائر الموجودات؟. لقد كنتم تقبلون بخضوعها المطلق لي.

تالة:

. كنا نحكم بأنها من صنعك، وأنك سخرتها لنا كي نسلك معها في الرواية كما ينبغي، كنا نرد ظواهرها وعلّاتها لك وحدك، ثم صرنا نراها بطريقة مختلفة، نراها محايدة، جميلة، منسجمة، وتسلك ضمن قوانين طبيعية عمياء، بلاغاية، وبلاهدف.

. بالنسبة إلى من هي محايدة، جميلة، منسجمة، وبلاهدف، من غيركم هنا كي يحكم على هذا؟.

حسّان:

. هي كذلك بالنسبة إلى عقولنا ووعينا الذي طورناه، والقوانين التي عقِلناها.

. من يقرر أن ماتقولونه صائب؟.

. تالة.

. ليس الوهم الذي أنتجك بالتأكيد، لكنه العقل الذي طورناه بمعزلٍ عنك.

تدخل فياض:

. نحن نحاول ونحاول بنور العقل، بجذوة القلب المشتعلة، أن نصل إلى جوهر الأشياء، لفهم العلاقة بين الظواهر، ونعرف أن طريقاً شاقاً ينتظرنا، كي نجيب عن أسئلتنا الجديدة، بما يلائم اكتشافاتنا الجديدة.

. ما هي أسئلتكم الجديدة؟.

جودي:

. لماذا الحياة على شكلها الذي نعرف، كيف نكون أفضل، وأعدل، وأجمل، كيف نحسّن حياتنا وتفكيرنا، كيف نصنع عالماً مترابطاً ومتآخياً؟.

. تعتقدون حقاً أنكم تخلصتم مني؟.

كلهم بصوت واحد:

. نعم.

. وإن رفضت تصديق كل ما تقولون؟.

حسّان:

. الفوضى هي ما تنتظر الرواية لو أنك واصلت بالأمر.

. ما هي الرواية؟.

تالة:

. أنكَ صنيعتنا.

. وما هي الفوضى؟.

نينا:

. أن تعود للاعتقاد بأننا صنيعتك.

. أنا لست حقيقة؟.

كنان:

. أنت وهْمٌ، يسلك دائماً على أنه حقيقة.

. أنتم الحقيقة؟

فياض:

. نحن حقيقة، كانت تسلك دائماً على أنها وهْمٌ.

- 7 -

تهالكتُ، سقطتُ في الورق، دارت السطور بي، وكل شيءٍ اقترب، الطاولة، دواة الحبر قلم التصحيح، كل شيء داهم صدري فجأة، وكل شيء تأرجح، دوار لفّني مع كل الأشياء في غرفة المكتب، ريحٌ ما كانت كما لو أنها تعصف بالدفتر، بالقلم، بي، بهم، بالفجر الآيل إلى منتصف النهار.

فتحت عينيَّ وأغمضتُهما عدة مرات وأنا أحملق في الظلمة، أبحث عن حقيقتي، وكيف كان غياب هذه الحقيقة بالذات، هو ما بعث بكل تلك القصص، وكل تلك الأسئلة، وكل محاولات الحفر لأجل المعرفة، وأن كل ما كنتُ أفعله أو أقوله، هو نتيجة اغترابي عن طبيعتي كشخص من الشخوص، لاعتقادي الطويل بأنني الروائي.

فتحت عينيَّ وأغمضتُهما، وأنا أستعيد أقدم لحظة وعي اختبرتها على سطورهم، حين لم يكن أحد بجانبي كي يخبرني لماذا أنا في الرواية، وهل سألني قبل أن يُحضرني إليها أو يأخذني منها، وهل أنا بطلٌ من حبر متروكٌ وحده، أم أنني في رعاية روائي ما؟.

إن جلبي لهذا العالم عنوة هو ما جعلني أتقلب في القلق، وكم تقلّبت وتقلّبت وحدي، من دون أن يبدو أنني قادرٌ على حسم أمري كلياً، لأنني كنت خائفاً من وحدتي الوجودية.

******

قاطع حسّان شرودي:

. نحن قُبالتك الآن بالضبط، على سطح الأوراق المبعثرة على طول الغرفة، على سطورها التي أُخفيت عنك طويلاً، كنا نرى أنفسنا منظورين لا ناظرين، مكتوبِين لا كاتبين، ها نحن أولاء صرنا مرئيين أمام عينيك، وقد أدركنا متأخرين، أننا كنا نرى ونتكلم مع الجانب الآخر من أنفسنا طوال الوقت.

جودي:

. على هذه الأوراق المبعثرة، بكل أسئلتها الوجودية، اختفى الضروري، والفاعل صار مفعولاً، فقد تحرر التصور أخيراً من هذه العلاقة التي كانت تقيّده، فصار بوسعه أن يقدم نفسه كتمثيل.

استجمعتُ قوتي وأنا أسألهم:

. ما معنى حياتي الآن؟.

خاطر:

. إجابة سؤال كهذا يجب أن تنبع منك أنت.

. ساعدوني لأعرف، ما معنى حياتك يا فياض؟.

. أنا أقدّر العقل كثيراً، وأقدّر منجزه الفكري بكل تنوعاته، وأعتقد أن الإنسان هو الروائي لكل النصوص الميتافيزيقية والطبيعية والإيديولوجية والفلسفية والأدبية، فالموجودات والطبيعة والظواهر الكونية من حوله، ما كان ليكون لها قيمة لو لم يقدّرها هو.

. وأنت يا كنان، ماذا تعني لك حياتك؟.

. أكثر ما يهمني هنا أنني شيعتُك خارجي، فقد كنتَ قمامةً فاسدة أحرقتُها وأطلقتُها للريح، أنتَ من جملة قمامات كثيرة توهمتها يوماً.

. لستَ معنياً بوجودك؟.

. أنا بخلاف ما أفصح عنه فياض، فالعقل بالنسبة إليّ عضلة، يجب أن تتوقف عن العمل، لأن عقلنا متوافق ذاتياً وطبيعياً مع محيطه بشكلٍ آلي، ومعنى الحياة عندي هو في التوائم والتوافق مع الطبيعة، من دون الوقوع في شرك الهويات.

. نينا؟.

. لقد وجدتُ في نفيك كروائي، المعنى الذي لطالما حلمتُ به.

. ماذا تعنين؟.

. إنه في وفرة الخيارات من حولي لأنك لم تترك لنا خياراً، ولأبقى سعيدةً ومنشغلةً بعيداً عن محض الالتزام بما كنتَ تطلبه مني طوال الوقت.

شايعتها سيرين:

. لطالما كنتَ مهووساً بالتحكم بنا، فاعتقدتَ دائماً بأن الكمال هو بالانضباط التام بأدوارنا، لكن الكمال لا يدور حول الانضباط، بل حول الاسترسال وإطلاق العنان، إنه في الحركة الدائبة والانتقال الدائم.

. وماذا عنكَ يا أصف؟.

ابتسمت تالة، وهي ترد بتصالح كبير مع نفسها:

. أشعر بسعادة لأن الطبيعة منحتني هذه الهوية المتسعة، بتوفرها على الذكورة والأنوثة معاً، وأجد نفسي فخورةً بهويتي المزدوجة، التي مسحت الحواجز بين الرجل والمرأة، ولأنني بالذات عابرة لجنسهما ومختزنة لهما بذات الوقت، لكنني لازلتُ أتعلم كيف أكون كريمةً مع من أساء إلي، لأن الحياة كانت كريمةً جداً معي.

. أنتم لستم متفقين كما أرى.

تدخل كنان مُذكّراً:

. لمْ يخلّصنا منك إلا تقبلنا لبعضنا، واستعادة الشعور بأننا أخوة رغم اختلافنا.

عادت جودي:

. ومن الرائع أن نكون بهذه الحرية في نهاية الأمر، وسأضحك دائماً لأن تقبُلنا لبعضنا هو الذي أنقذنا وأنقذ عالمنا.

. تقصدين؟.

. أردتَ مسْخنا جميعاً لتجعل منا واحداً حين اعتقدت يوماً أنك واحد، وحين عجزت فرقت بيننا بالكراهية.

. والآن؟.

. الآن نؤمن بأننا متنوعون كالطبيعة من حولنا، ونؤمن بأن قبولنا بتنوعنا على أنه شيء بدهي، سيقلل من صراعاتنا، فليس ثمة واحد بعد الآن، بل جماعة هائلة التنوع.

. لكنني أحدس أنكم لن تصلوا إلى شيء يتعلق بمعنى وجودكم، وأنكم ستظلون هائمين حائرين أبداً.

حسّان:

. ليس مهماً أن نصل، المهم أن نستمر في المحاولة.

التفتُّ للبقية:

. أتعتقدون فعلاً أنكم تخلصتم مني؟.

. بالتأكيد.

. رد الجميع بقوة.

الفصل السادس

- 1 -

سرت رياح قوية تحت ضوء ذلك الفجر، أرسلها الخريف فانتشرت بسرعة كبيرة في الحقول، طافت على السفح، حتى وصلت إلى شاطئ البحيرة، مُحملةً بعبق الجاردينيا، وروائح الميموزا التي تخللت الهواء بلطفٍ وكرم، مع ذُريرات البركان الدخانية.

تقدمت الرياح متعثرةً، تكافح للخروج من الخُلجان الضيقة، إلى رحابة الساحة، وهي تُغني بصوت رخيم، عابرةً المسالك خلف خطوات أهل الجزيرة، وهم يحملون قبضات من البرقوق، وحفنات من التوت الأحمر، وعراجين من زهور البيلسان الوردي، سائرين صوب الشاطئ، وفي عيونهم الكثير من الأمل.

كنانٌ يقف الآن تحت فجرٍ هادر ومشحون بالسُحب، يضع يديه على خاصرتيه، وهو ينظر حوله إلى الفوضى التي خلّفتها حمم البركان ودخانه، فأحرق أشجاراً وترك مساحاتٍ من الأرض صلعاء وجائحة، وألقى بأطنانٍ من السُخام والغبار على الصخور والأحراش.

. يجب أن نبدأ في تنظيف جزيرتنا حالاً.

. هل نقسّم العمل كما اعتدنا قبل أن نتعرف على حسّان وجودي؟.

. نعم يا خاطر، فنحن لدينا خبرةً في معالجة مخلّفات البركان.

. بيوتنا دُمرت بالكامل يا كنان.

تكلمت أسيل.

سأفكر في بناء بيوت جديدة على الأشجار، ما رأيكم؟.

سأل فياض فتدخل كنان بقوة:

. دع الأشجار وشأنها يا فياض، لا تعتدي عليها أرجوك.

. لقد تجولت كثيراً البارحة في الأحراش، ورأيتُ عدداً كبيراً منها وقد أتت الحمم على أعاليها فصارت جرداء تماماً وبلا رأس، البعض منها يصلح لبناء بيوت صغيرة، ولن أستعمل من الأخشاب إلا ما أسقطته على الأرض.

. هذا مناسبٌ جداً.

. سأعيد تشكيل المكان من جديد، وستحبونه أنا متأكد.

هلل الجميع وصفقوا بحبورٍ وحماسة.

. سأساعدك يا فياض.

. وأنا أحتاجك يا خاطر.

. نينا؟.

. نعم يا كنان.

. أصدقاؤكِ من صغار القرود والغزلان والجياد، هل هم بخير بعد البركان؟.

أغرورقت عينا نينا وهي ترد:

. لقد رأيت صغارها وهم يزحفون تحت ألم الحروق، جلد البعض منها قد تعرّى كلياً، تلك المخلوقات المسكينة، يجب أن أبدأ بعلاجها فوراً قبل أن تلتهب.

. هل يمكن أن أساعد في هذا؟.

سألت جودي باضطراب وألم.

. نعم يا جودي، لن أستطيع فعل ذلك وحدي.

. سأذهب للجبل حالاً، لأعود لكما بالكثير من الأعشاب يا نينا وجودي.

. سننتظركِ بفارغ الصبر يا أسيل.

. وأنا سأكون مع كنان في تنظيف شاطئ البحيرة، ومعالجة الصدع في الحائط الحجري.

. شكرا سيرين سنغني معاً كما اعتدنا.

. وأنا؟.

سأل حسّان.

. لِمَ لا تحاول مع تالة والآخرين تنظيف المكان من السُخام، وتحميل المواد النافعة التي ألقاها علينا البركان؟.

. أوه، يبدو أنني سأتعلم أشياء جديدة منك يا أصف.

ابتسمت تالة بمودةٍ عالية، ضغطت بيدها الرحبة على كتف حسّان قائلةً:

. البركان لطالما كان خيراً كبيراً للجزيرة، إنه يزيد في مساحتها كما تقول جداتنا، حين يُلقي بمصهوره الذائب فيجمد فوراً مكوناً أراضٍ جديدة في الماء، أو يأتينا بغبارٍ من ذهب ومعادن وأسمدة تُفيد التربة وتُفيد أجسادنا وغابتنا.

. البركان هو تجديدٌ دائمٌ لنشاط الجزيرة، وطرد الخمول والضمور الذي ربض في التربة، يأخذ منا أشياءً قديمة نحبها ونتعلّق بها، كبيوتنا وأصدقائنا الحيوانات أو إخواننا البشر، لكنه يأتي إلينا بحياةٍ جديدة في كل مرة.

قال كنان قبل أن يرفع يديه صائحاً:

. هيا إلى العمل، ودعونا نلتقي في هذا المكان بعد أن ننتهي.

- 2 -

. هل أنتم ذاهبون لملاقاة كنان يا جودي؟.

صاحت امرأة كانت تُطِل بشعرها الغجري الطويل من سياج العرزال فوق الشجرة.

. نعم، هل تريدين أن ننتظرك؟.

. الولد محموم اليوم، لن أستطيع، خبريني بما يحدث.

. سأفعل.

تحرك عددٌ من الشُبان بخفة في المكان، وبعض الشيوخ توكأوا على عصيّهم المصنوعة من الأبنوس المحروق، تحركوا في وله الأصفر والأرجوان الذي يغزو أوراق الأشجار، تتعشهم قشعريرة الصباح التي ترسلها رئة الغابة، وهم يخوضون في العشب المبلل، سائرين في حلقات الواحدة تلو الأخرى، يشقّون الضباب الكامن بين الأحراش، يُنهون عزلة الأرانب وصغار الظباء، التي لم تتهيأ لمجيئهم.

كان غموضٌ غير مفهوم يطوّق الأحراش، عمّقته صيحات طيور القطا والحجل، وهي تتجهّز للهجرة كعادتها في أواخر الخريف، والجلبة الهادئة لطائر الكُركي وهو يُفلي ريشه في البَرَد.

زوغان الأحراش التي بدأت تتخلى عن أوراقها، قادهم إلى تيهٍ سري، وهم يرون التصميم الجماعي لملايين الأغصان، على العودة إلى حالة العُري والتقشف من جديد.

الفتيات بفساتينهن الشفافة، تُبرز حلمات الأثداء، واستدارة الأفخاذ العاجية، والتجويف الضيق بين الأرداف.

كن يرتدين أثواباً طويلةً من الشيفون الأزرق، ضيقةً ومشكولةً بسيور من الخلف، تجمع الجُعدات وتلملمها معاً، من منتصف الظهور الخمرية نزولاً حتى كعب القدمين بذيلٍ جميل، يمسح المرج من تحته كلما تحركت صاحبته، والشعور ممشطة على هيئة ذيل حصان، مشدودةً إلى منديلٍ موشّى بطرزات ذهبية وخضراء، والشُبان كانوا يرتدون قمصاناً كاكيةً وصفراء معدومة الأكمام، وبناطيل مزررة بأزرارٍ ملونةٍ وكثيرة، يجمعها في الوسط خيطٌ يُحكِم إغلاقها على لباسهم الداخلي.

نثر بعض المتحمسين، ثمرات الخريف التي يحملونها، من التوت والبرقوق، أسفل الجذوع، وفركوا زهور البيلسان الوردية، وطيّروها في الهواء، توقفوا وهم يتحسسون ملمس الأوراق المتساقطة، ويشمونها ويقبلونها، ثم يعيدونها لمسقط رأسها من جديد.

علت خفقات طيور الكاي، والفلامنجو، وببغاء الكونيور، والقرزبيل الحنائي اللون، وهي تطير مُجفلةً، التمع خيط الشمس السفرجلي على ريشها، فملأت سماء المكان غيمةٌ بنفسجيةٌ متماوجة، وتدفقت كشلال من عسل امتصتها صفحة الأفق، وأرسلتها منكسرةً كمنشورٍ مبعثر الألوان في كل الاتجاهات، وتحركت بسرعة حشرات الأرض والخنافس الصغيرة، طائرةً بطيوف أجنحتها الملتمعة بذعرٍ ملحوظٍ لأقرب الحُفر والشقوق، في حين توقفت ظباء عن ارتشاف بعض الماء من الجدول، ثم هبت بجنون، قافزةً في الفضاء الصحو، مسرعةً صوب ممر صغير بين الأجمات، واختفت هناك.

. حبيبتي أنتِ يا نينا، كم أنتِ رائعة في هذا الشيفون.

. قالت أخرى تحمل دلو ماء، وتستعد لسقي بعض النبتات أسفل العرزال.

. سأخيط لك واحداً أنا وحسّان لأنه هو من صممها لنا، لكن حين تضعين حملك، هذا وعد.

كان الصباح رطباً يومها، لكنه مع ذلك كان يهطل صخَباً طفولياً وعابثاً على الأشجار، والتلال التي تُطبق على البحيرة بإحكام، وعلى سطوح البيوت الخشبية، التي تعتلي الأشجار. انتظرت النسوة وهنّ يقفن على الشرفات، التي تتدلى منها حُزَم الثوم والتين والبصل المجفف، مشكولةً بمسامير على الخشب، ورحن يرمين فروع اللافندر والكاميليا، التي جففنها خصيصاً لهذه المناسبة، على أكتاف ورؤوس الأهالي في سيرهم الحثيث، نحو الشاطئ من جديد، وعلى درجات السلالم الضيقة، ترك الصبية قبضات الرمل التي كانوا يلهون بها، تنساب من بين أصابعهم، وهم يهللون ويصرخون بهم:

. خذونا معكم إلى كنان، خذونا معكم إلى كنان.

- 3 -

. كان عملاً عظيماً هذا الذي أنجزناه في عشرة أسابيع فقط.

. كان لتوجيهاتك أثرٌ طيبٌ كالعادة يا كنان، أما شغف فياض بإعادة تشكيل المكان، فقد كان أمراً خلّاقاً بامتياز.

قال خاطر.

صفّق الجميع وتعالى الصفير، فقال كنانٌ ضاحكاً.

. أنتم صاخبون جداً، لم أركم هكذا من قبل.

رد فياض بجذل:

. ربما لأننا شرعنا بأخذ مواقعنا الجديدة يا كنان، فنحن ماعدنا مكتوبين بل كاتبين.

شايعته تالة:

. نحاول أن نتعلم العيش في الواقع، بعد أن خرجنا أخيراً من الرواية.

. ماذا تعنين يا تالة؟.

. نحن نفكر في الخروج من عالم الخضوع للإكراه الغريزي، لصالح عوالم أخرى تأتي من العقل والقلب والوجدان.

. آه.

. نريد ألا نقع في شرك الخديعة مرةً أخرى.

قالت سيرين.

. ولا الفوضى.

صاحت نينا، فتدخلت أسيل:

. لا نريد شجارات.

. ولا قتل.

قال حسّان بألمٍ ملحوظ.

. أنتم تحسون بقلق شديد من التركة التي خلّفها الإيمان بوجود روائي، وأدوار مكتوبة سلفاً لا أدري لماذا، لكنني لست خائفاً مثلكم من المستقبل.

جودي:

. لطالما كنتَ وفياض العقول الفطرية الخام والذكية، التي لم يستطع الروائي تشكيلها لأنها تعذرت على أصابعه.

. هذا لأن ذكاءنا الفطري، هو ما حال بيننا وبين أن يتم التدخل فينا، وإعطاب وعينا الطبيعي.

تدخل فياض:

. ربما لم أكن شخصاً مطواعاً كالبقية، لكني أعترف أنني صرت أمتلك ذكاءً إنسانياً مكتسباً أيضاً.

. كيف يعني؟.

. الذكاء الإنساني الذي أعنيه يا كنان يتساءل اليوم عن قصة الحياة، وعن موقعه فيها، وكما أن الطبيعة من حوله تبتكر أشكالاً متنوعة للحياة، فإن ذكاءنا يبتكر أفكاره وتصوراته الخاصة عنها باستمرار.

. لقد أدى تعلقنا بهذا الذكاء المكتسب إلى خلق الروائي فينا، وأنتم تعرفون جيداً ما الذي فعله بوحدتنا وانسجامنا.

قال كنان بتجهم وهو يشير بيديه في وجه الجميع، فعاد فياض:

. ذكاؤنا الإنساني المكتسب هو الذي أنقذنا من الموت بلدغ الأفاعي، لم أصادف أي كائن هنا يُجيد معرفة الأعشاب النافعة لشفائه من السموم غيرنا، وذكاؤنا الإنساني ألهمنا ألا نقاطع تزاوج الأسماك الآتية من بعيد لجزيرتنا كي نضمن عدم انقراضها، وهو ذاته الذي ساعدنا على التحكم في أعدادنا كي لا تتقلص الموارد، حين أطالت الإناث مُدد إرضاع الأطفال لتقليل المواليد؛ ذكاؤنا جعلنا نغوص في البحر، ونلتقط الأصداف ونجوم البحر النافقة لتزيين مهجعنا.

سيرين:

. هذا الذكاء هو الذي لعب على قاعدتي التجربة والخطأ طوال الوقت، حتى يخرج بمعرفة تُبقيه حياً، وكل هذا لأننا كائناتٌ لا تسير وفق إكراهات الغريزة وحدها.

وحين بدت الحيرة على وجه كنان، تدخلت أسيل:

. ذكاؤنا هو نتاج تطور طويل ورتيب، نقطف ثماره شيئاً فشيئاً، وأعتقد أنه يمكننا به أن نُساهم في تطوير أنفسنا، بإطلاق مخيلتنا، وتسريح كل هذا الشغف والحصافة التي فينا.

. هل يمكن أن أعرف ما الذي تفكرون به؟.

. أنت أول من يجب أن نخبره بما نفكر به يا كنان.

. ولماذا يا حسّان؟.

. لأننا نحتاج إلى حكمتك في حياتنا القادمة، وإلى حدوسك المعرفية التي تستبطن الأشياء بشغفٍ مفرط، فأنت وريث أحقاب طويلة من التأمل في الطبيعة والظواهر، وسليل جيل كامل من العارفين الفطريين، الذين دحرجوا لنا معارفهم، بناءً على المراقبة والتجربة والخطأ، وليس الغريزة فقط.

. وأنت بالمناسبة تملك ذكاءً إنسانياً مكتسباً يا كنان ولو لم تلحظ ذلك.

. كيف يا جودي؟.

. كل التقنيات التي تستعملها في يومك على الجزيرة، من الصيد للغوص للراحة والاستجمام وسائر الأنشطة التي تقوم بها للبقاء على قيد الحياة، هي نتاج ذكاء عقل إنساني، وليس عقل فطري، إنها بدائل طوّرتَها مع أسلافك لأجل البقاء، لأنهم جميعاً ولدوا عُراةً وعزّل، وقد أبقاكم هذا الذكاء المكتسب أحياءً إلى اليوم، رغم أنكم ولدتم دائماً بلامخالب أو أنياب أو أجنحة أو أصداف، أو حتى عيون حادة كالصقور والبُومَة.

حسّان:

. عُريُ أسلافك يا كنان تكسّى مع الزمن بسبب أعمالٍ عقلية، كانت نتاج حدوس لا تفتر، الحدس عند أسلافك، لطالما كان هو الشعور باقتراب الخطر، دون وجود دلائل ملموسة، إنه جرس تنبيه صغير معلق على الحبل الصغير بين دماغك وقلبك، ولطالما كان القلب والعقل معاً امتيازاً مهماً للمعرفة.

. طيب.

ردت سيرين بحبور:

. ألم يلفتك الاحتفاء الملحوظ في ثيابنا ومظهرنا الجديد يا كنان.

. بلى، هل هي للاحتفال بشيء ما لا أعرفه؟.

قهقه خاطر مُجيباً:

. لطالما كنت حاذقاً يا كنان، لقد حدست أنها ليست احتفالاً بترميم الجزيرة.

. فبماذا تحتفلون؟.

سأل بحَيرة.

. سنبدأ حياتنا الجديدة منذ الآن، فلدينا الكثير من المشاريع، وأولها أن يتزوج المحبون، اليوم فياض وأسيل، وغداً جودي وحسّان، حتى نُطيل أيام الفرح.

. ماذا؟.

تقلص العضلات بوجه كنان وتجهمه الواضح أربك الجميع، الكل كان حائراً لردة فعله العفوية.

. ما بك يا كنان؟ هل قلنا شيئاً خاطئاً؟.

بدل أن يجيب سأل سيرين وخاطر، وهو ينظر في عينيهما مباشرةً:

. أنتما لن تتزوجا يا خاطر وسيرين، هل أنا مُحق؟.

تلعثمت سيرين بشدة، بدا عليها الارتباك، والحيرة كست وجه خاطر أيضاً.

. نعم، أنت مُحق.

. ولماذا لا تتزوجان؟.

. لأننا لسنا متحابين يا كنان.

. .....

اللحظات التي تعمد كنان أن يُطيلها دون أن يقول شيئاً، كانت تُهيء الجزيرة كلها لمواجهةٍ جديدة مع ذاتها، وحرباً أخرى على الإرث الذي ألقت به الرواية على حياتها، وكأن الجميع شعر بأن الأرض التي اعتقدوا أنها ثابتة، كانت في الحقيقة تتأرجح من تحت أمانيهم، وأن البراكين والزلازل بدأت تتشكل من جديد في قشرة حياتهم الهشة، وكنان يملك مرةً أخرى مفتاح حمايتهم.

. لماذا ستتزوج من أسيل يا فياض؟.

. لأنني أحبها يا كنان.

أجاب فياض بتوتر وزوغان.

. ما الذي تغيّر في حياتكم وأفكاركم جميعاً، إن كنتم تقبلون بأن يظل فياض وأسيل متحابين إلى الأبد؟.

خيّم وجوم على الجميع، أسيل كانت مصدومةً وتوشك على البكاء، جودي توترت ونتر عرقٌ بقوة في صدغ حسّان، في حين كان خاطر زائغاً وهو يفكر، وينظر لسيرين كأنه يسألها أن تخبره إن

كانت قد فهمت شيئاً مما يجري، لكن كلام كنان كان حاضراً، ليلقي بهم بلا رحمة من جديد في الحيرة والصدمة.

. لقد اعتقدنا جميعاً أننا أمام أدوارٍ فُرضت علينا حين كنا شخوصاً، فتقبّلنا أن يكون حسّان وجودي متحابين، وأن نينا وخاطر كانا متعاديين، وأسيلُ تعشق فياضاً، وفياضُ بادلها العشق بعد أن كفرت بالروائي لأجله، لكن اتضح لاحقاً أننا قد فرضنا هذه الأدوار على أنفسنا لأننا كنا الروائي، وها أنتم تعودون للمراوحة بين الروائي والشخوص، لأنكم لا تستطيعون الخروج إلى العالم الواقعي.

مرت لحظات ثقيلة وكالحة على الجميع، أكانت صدمةً أم حُنقاً، ما أسكت الجميع هكذا، لم يعرف كنان بالضبط؟، لكن حسّاناً وفياضاً تكلما بألم:

. لكنني أحب جودي حقاً يا كنان، وهذا شيء لا أستطيع التوقف عنه.

. وأنا أحب فياضاً يا كنان، وهذا شيء لم يكن بإرادتي أو اختياري.

. الحب، ذلك الشعور المخاتل من جديد، إنه مجرد غطاء مَخملي لعلاقة استملاك، تربطون بها أحدهم في كاحلكم إلى الأبد، إنها الرغبة الأنانية بتقديس الذات، من خلال الآخر الذي أحبها، أنتم تحبون من أحبكم فقط، لأنه يُضخّم من اعتباركم لأنفسكم، وإلا فلماذا لا تحبون شخصاً آخر غير الذي أحبكم؟. ولماذا لم تحبني ولا أنثى، رغم أنني كنت أعني الكثير للجزيرة؟.

لماذا ظل خاطر ونينا غير متحابين، حتى حين انشقا على الروائي؟. ولماذا لم يحب خاطر سيرين بعد الرواية، رغم أنه كان على توافق معها طوال السرد؟.

سكت كنان قليلاً، التقط أنفاسه بصعوبة، وهو يشعر بفورة ألم في داخله، فعاد يلسع الجميع بكلماته القاسية، والباردة:

. أرى أن الرواية لم تفلح في تثوير أفكاركم، لأنكم في الحقيقة مجرد شخوص منفعلين، لا روائيين فاعلين، أنتم رجعيون جداً وتقليديون حتى السأم، وإلا لانشق ذكاؤكم الإنساني على كل التصورات القديمة، وأشكال العلاقات الغابرة، ولأعاد رسم خارطة علاقات جديدة بين الذكر والأنثى، على أُسسٍ مختلفةٍ لا تأبه بالحب أو بقوة العضلات.

سرت همهمات خافتة ومتضايقة في الجموع، علت ضجة حين انفلتت الأسئلة وتعالت، وهي تبحث عن جوابٍ وسط الحيرة والشواش:

. فعلاً، لماذا لم يحب خاطر سيرين؟.

. لنفس السبب الذي جعل حسّاناً يحب جودي.

. ماذا تعني؟.

. أنهم جميعاً مجرد شخوص مأمورة حتى هذه اللحظة.

. ماذا لو كانوا روائيين؟.

. هذا يعني أنهم لم يخرجوا من النص.

. هل سنعود للخلاف يا كنان؟.

. كنان أنت حكيم.

. كنان أنت عامل الفوضى الآن، لماذا لم تسكت وتترك الآخرين يتزوجون على راحتهم؟.

. بل إنه يحاول منع الفوضى يا أحمق.

. جدلية الروائي والشخوص هذه لماذا لا تريد أن تتوقف؟.

. النص ينجب نصاً؟.

. والروائي يصير مروياً من جديد؟.

. كنان نحن في ورطة الآن.

. قل شيئاً يا كنان.

. اسكتوا قليلا حتى يقول شيئاً، أووووف.

- 4 -

. نحن ندور في متاهة.

قالت نينا، وقرفصت جالسةً على أقرب صخرة وجدتها.

. ماذا يجب أن نفعل الآن يا كنان؟.

. ماذا تعنين يا تالة؟.

. كيف سنعيش؟.

. هل بات من الصعب أن تعيشوا الآن؟.

سأل باستنكار.

. أظن.

. ولماذا؟.

. لأنه من الواضح أننا لا نعرف كيف نتعامل مع الواقع.

. أنا مُتعبٌ من كل هذا، أود لو أعتزل في كهفٍ بعيد جداً عن هنا.

. هل ستتركنا يا كنان؟.

. تكلمت نينا بغصة.

. ما رأيكما حسّان وجودي؟.

سأل كنان، فردت جودي بعد صمتٍ طويل، مفضلةً التركيز على عيني كنان، وكأنها تخاف أن تتراجع، لو أنها نظرت لحسّان الذي رفض الكلام.

. نحن لازلنا شخوصاً في روايةٍ قديمة، كتبها روائيٌ قديرٌ حقاً، وقد ترك فينا ذلك الروائي مسماراً.

. جودي؟.

. صرخ حسّان، فانفلتت صيحاتٌ مبهمة، لم يميزها كنان، لكنها كانت تُنذر بكارثةٍ وشيكة إن لم يتصرف.

. نعم ياحسّان نعم، نحن سجناء الرواية الأبديون، المحبوسون في سطورها الضيقة، لازلنا ننظر إلى الروائي هناك في الأعالي ونخشع، لكننا هذه المرة لا نراه كوهم، بل كقدر.

صرخت سيرين بغضب، فارتفع اللغط.

. سيرين تستعمل كلمات كنان يوم جاء يحذرنا من البركان فرفضنا.

. هل سنعود للفوضى من جديد؟.

. هل سيُقتل منا أحد مرةً أخرى؟.

. حسّان وجودي هما سبب كل المشاكل.

. صه.

. لا تُسكتني.

. جودي انشقَّت على دورها قبل سيرين، هل نسيت؟.

. وها هي تعود إليه من جديد، ألم تَرَ؟.

. متى نعيش حياتنا بشكلٍ طبيعي؟.

. من يمزق هذه الرواية اللعينة ويُريحنا؟.

. تُمزق نفسك؟.

. أنا روائي أم بطل من حبر؟.

. أكره الرواية، إنها متاهة فكرية.

. كناااااااااان، اسكِت هذا القفير الذي نهض في رؤوسنا.

*****

نظر كنانٌ بقوةٍ في وجه الجميع، كانوا كأنهم ينتظرون منه تصريحاً ما، أو مانفيستو حياة، شعر بثقلٍ في صدره لطالما كافح للتخلص منه، حين كان أحد شخوص الرواية، ثم ظهر أنه كان روائياً آخر في سردٍ طويل ومعقّد، جلب له هو بالذات الكثير من الأوجاع، حين قُتلت أمه.

لم يتغلب كنان على حسرة موتها، لكنه سامح حسّاناً وجودي من كل قلبه، ما حدث كان جارفاً كنهرٍ فائضٍ بالطمي، يسحب كل ما يعترضه إلى المجهول، وقد كانت الرواية هي ذلك النهر الهادر، الذي كاد يجرف شخوصه بعيداً، لولا أنهم قرروا أن يتماسكوا، وأن يكونوا معاً قوةً واحدةً ضد السيل، فنجوا جميعاً وخرجوا بأقل خسائر، ولأنه بالذات يعرف معنى الخسارة، وجرّب مراراتها، فقد توترت جميع عضلاته لهذا الموقف الذي وجد نفسه فيه فجأة، واستعاد ألمه يوم كان شخصاً من الشخوص، لا روائياً يصنع أقدار الآخرين.

كل واحد تكلّم هنا، كان وكأنه ينتظر منه شيئاً، وهو كما لو أنه ملزمٌ بتقديم شيءٍ لكل واحد منهم، لعلهم يريدون أن يجعلوا منه روائياً الآن، ويكونوا هم شخوصه، يتحركون في فضاءات معارفه الفطرية، التي صرّحوا أنهم لا يستطيعون الاستغناء عنها، وهو لا يستطيع أن يكون كذلك أبداً، لكنه فجأة تذكر أنثى القرش التي قتلها بذعرٍ شديد.

- 5 -

خاض كنان عشرات المعارك مع الجبل والبحر والطبيعة، ومرات نادرة هي التي خرج فيها بخدوش على يديه، كان يتنقّل على اليابسة، بالسهولة ذاتها التي يسبح فيها في الماء، أو يتسلق النخيل، كان يفعل ذلك بهدوء وصلابة، وخبرة تتعتق كل يوم، لأنه لطالما اعتقد أن الموت هو مخاطرة لابد منها، وكانت كل مرة خاطر فيها بحياته أثناء الصيد، أو إنقاذ الأهالي من فوران البركان، أو اختبار خصائص عشبة تحضرها أمه إلى الجزيرة، كان يقترب فيها كثيراً من الموت، لكنه كان يعود سالماً من جديد، وكل مرة كان الأهالي ينظرون إليه كرجل محصّن ضد الجراح والمرض، كان يرهبه الجميع، ويخشاه الروائي، لأنه كان يُشكك في جدوى عالمٍ ينشق على الطبيعة، ويقترح الإيمان بكائن غيبي كبديل عنها.

كان كنانٌ يأكل ويشرب كل ما يُقدم إليه دون قلق، يمشي في دروب الجزيرة ليلاً دون أي احتياطات من الحيوانات المفترسة، يعكف على الصيد طوال الأيام التي تحددها أمه، لكنه في كل مرة يصطاد فيها شيئاً، يفحصه جيداً قبل العودة به إلى الجزيرة، كان يُعيد فراخ السمك الصغيرة فوراً إلى حضنها الأزرق، يترك الأفاعي

والقواقع تعود للماء بلا أسف، ويبدأ فرز الكمية التي علقت بشباكه بسرعة، فيُلقي بنصفها للماء ويستبقي نصفها للأهالي والحيوانات، لأنه يعتقد أن الصيد شرٌّ على الأسماك المسكينة، لكنه شرٌّ أملاه التوازن وبقاء النوعين معاً الإنسان والسمك، والمرة الوحيدة التي ندم فيها على قتل كائنٍ ما كان هو أنثى سمك القرش، التي دخلت البحيرة وفقدت صوابها وصارت مؤذيةً للجميع.

لكم أراد أن يدلَّها على طريق العودة، كما كان هو يعود منتصراً من البحر والجبل لأمه وأصحابه، لكن عدم التوافق بينه وبين فياض، أفضى إلى كارثة قتلها وحرمانها من المضي بدورة حياتها الطبيعية، لقد جلب لها عدم مُفاهمته مع فياض الكثير جداً من الألم قبل أن تموت، وهو يتألم بشدة كلما تذكر عينيها، ويفكر بأنه كلما قل الاختلاف، وازداد التوافق، وارتفع منسوب التقبل بين الأهالي كلما تراجع الألم، وبقي الضروري منه فقط لأجل التعايش المشترك بين الجميع.

فكر كنان أن إجابته تأخرت كثيراً، وأن سكوته قد طال أكثر مما ينبغي، وأن عشرات الأعين لازالت تحملق فيه بترقبٍ ولهفة، تُركز على شفتيه منتظرةً ما الذي سيخرج منها، وفكر أنه يجب أن يجد حلاً، وأنه لا يجب أن يتجاهل بعد الآن، تبعات التركة التي راكمتها الرواية بحياتهم، وكيف طبعت نفس كل واحد فيهم بطابعه الخاص، تنحنح أخيراً، وقال ما دفع بالصدمة إلى تخومها القصوى:

. سأنشقّ على أسلافي الفطريين، سأبيع كل حدوسي القديمة ومعارفي الطبيعية، سأتخلى عن مهنة الصيد، سأتزوج، سأهجر الذكاء الفطري إلى الذكاء المكتسب، الذي يراوغ لأجل العيش والإبداع وتجميل الحياة، وسأكتب روايةً أتبرأ فيها من أمي.

. أووووووه!.

. لقد أردتم من البداية، أن تحبسوني في دور وريث المعرفة الفطرية، لتظلوا أنتم في أدواركم السابقة، هذا لأنكم أبطالٌ من حبر عالقة في نصٍ روائي، لا تجرؤ على الخروج منه، لكنني سأثور عليكِ أيتها الشخوص البليدة، سأثور على دوري الذي تحبينه، فقد انتبهت أن محبتكِ لدوري قد وضعتكِ تحت وطأة الاستملاك لأدواركِ أنتِ، وعلى الأنثى التي تريد الاقتران بي، أن تكتب روايةً جديدة، تكون فيها حرةً من دورها السابق.

- 6 -

رماد البركان الدبق، صار عجينةً طيّعةً بين يديّ كنان، كوّمها جانباً وراح يرسم برأس غصنٍ يابسٍ شكلاً طولانياً على الرمل، منبعجاً من الوسط ومفلطحاً من الطرفين، ثم عاد فضيّق من الطرف العلوي، فبدا للوهلة الأولى كأنه ثمرة كمثرى، لكنه رسم في الوسط ما يشبه الدُّعامة، ومد أربعة خطوط بين الطرفين مروراً بها، ثم رسم إلى جواره قوساً بخيطٍ واحدٍ وثخين.

ابتعد قليلاً للخلف ليتأمل الصورة جيداً، ثم عاد وأضاف تحسيناتٍ صغيرة عليها، وطفق يعجن كومة الرماد بجواره، وهو يُجهد نفسه في أن تأخذ الشكل الذي أراده تماماً.

وبعد ساعاتٍ انتهى كنان، رفع آلته الجديدة برهبة وحِرص، وضع طرفها السفلي على عظمة الترقوة وثبتها بذقنه، ثم قبض على مقدمتها بإحكام، وباليد الأخرى رفع القوس ومرره برفق على كل وتر

من الأوتار، فأصدر كل وتر على حدةٍ صوتاً غريباً ورخيماً، استدعى الاستغراب والدهشة ممن حوله، هتف أحدهم بحماس ملحوظ:

. ما هذا يا كنان؟.

. كمان.

. أسمٌ جميل.

. إنه قريب من اسمك.

قالت امرأة فتدخل آخر.

. ماذا ستفعل به يا كنان؟.

. أعزف موسيقى.

. ما فائدة هذا الـ...؟.

. كمان.

. كيف ستجعلك الموسيقى تنشق عن أسلافك وحدوسك الطبيعية؟؟ أم الجزيرة كانت ستضحك مما تراه يا كنان؟.

. أم الجزيرة انتهت مع هذا.

قال كنان.

. اسكتوا قليلاً ودعوه يكمل.

تدخل أحدهم بتبرم.

أغمض كنانٌ عينيه، أخذ نفساً عميقاً، حبسه في صدره لثوانٍ طويلةٍ ثم زفره خارجاً، كأنه يطرد معه ذكرى ما أو ماضياً بعيداً يطارده، ثم مرّر القوس على جميع الأوتار بتوالٍ، فخرجت فجأةً حُزمةٌ من المشاعر المختلطة دفعةً واحدة.

انداحت الأصوات مادةً خام ورائقة، لكنها قاسية في تدفقها، سكت الكل، حبسوا أنفاسهم تماماً، متعجّبين لهذه الأصوات التي يختبرونها لأول مرة.

كان كنانٌ يشيّع أمه إلى مثواها الأخير، ويودّع نعشها بمراسم عبور إلى عالمٍ عدمي لا عودة منه، بلا ألم أو ندم، كان مُغمض العينين، منفعلاً، ومتأججاً بالثمل وهو يفعل ذلك.

تداعت النغمات وتلاحقت، كما لو أنها تتعجل شيئاً، حاسمةً، ومحلّقة، ولا تترك وراءها أي خرائب أو لوعة، بل دهشة وتأملاً نادرين، الصوت علا، حاداً وجنائزياً، ثم تخافت حتى كاد ينطفئ، لكنه عاد ليرتفع ويرتفع، حتى استقر بمنطقة صوتية أخرى، وواصل توغله فيها، ثم صار يتنقّل ويتوغل، يتنقّل ويتوغل.

موسيقى كنان يومها، كانت قد قالت كل شيء يجب أن يُقال، ولم يكن قد قيل، كانت لغةً جديدةً لم يختبرها أحدٌ من قبل، ككلماتٍ تُنطق من دون حروف، أو لوحةٍ لا تحتفي بأي لون، أو كإطارٍ لا ينتظر صورة، لكنها اكتفت بفتح طريقٍ مُضاءةٍ بنور الفضول والإمكانات اللامتناهية للجميع.

كانت موسيقاه من دون شك، قادرةً على التعبير عن جميع المشاعر، دون الحاجة إلى الكلام، فما فعله كنان بتلك الآلة الغريبة، كان يتجاوز حدود المفاهمة التقليدية، إلى اصطناع تعبيرات لا ترتهن لصورة أو لون أو كلام، لكنها أكثر ملامسةً للنفس، من كل الكلمات التي استخدموها من قبل، إن ما يسمعونه الآن يبزّ كل محمولات اللغة الفلسفية والأخلاقية التي عرفوها يوماً. ما أحضره كنان مع الموسيقى التي يعزفها، كان سماعاً وفهماً لِما لا يمكن

القبض عليه، أو حبسه في شكل، في الوقت الذي تشعر معه أنك قد فهمته بطريقة صحيحة لأول مرة.

- 7 -

ترقرق المساء في انعكاس النجوم المتوهجة، تسلّقت أوراق اللبلاب الداكنة الأعمدة الخشبية للبيوت بإصرار، وتصاعد دخانٌ طيب الرائحة من فجوات بعض الغُرف، ذكّر جودي برائحة الدُّهن المتبّل بالأعشاب، التي كانت تشمها أول ما قدِمت للجزيرة، لكن الرائحة لم تُشع فيها أي حنين، انعطفت يساراً عند دربٍ مُضاءٍ جيداً، بمصابيح الزيت المعلّقة على الأغصان، سائرةً بهمةٍ نحو البحيرة.

الطين كان بارداً ولزجاً تحت قدميها، لكنها لم تكترث، وضعت السلة جانباً، تفحصت شِباك الصيد التي تخلى عنها كنان، قاست أطوال كل واحدة، وحين وقع اختيارها على واحدةٍ مناسبة، لملمتها على الفور، وضعتها في السلة، وذهبت نحو أحد الأطواف، شدت الحبل الذي يوثقه بحجرٍ إلى اليابسة، وضعته فوق الطوف، ودفعته صوب الماء بصعوبة. وحين لامس الموجات وانجذب إلى الماء، قفزت فوقه وهي تجذب معها السلة بقوة.

. ماذا تفعلين يا جودي؟ ارجعي، أنتِ لا قِبل لكِ بالصيد.

صرخ أحدهم على الشاطئ، وهو يركض خلفها.

. جودي، نحن لا نصطاد في الليل، هذا خطر.

. اتركها.

قال حسّان.

. يا رجل، إنها لا تعرف شيئاً عن الصيد.

. جودي تكتب روايتها.

كانتِ الريح منعشةً رغم رخاوتها، أما الخُلجان فكانت تشبه انبعاثات بحرٍ ناءٍ، والأوراق الخريفية المتجمعة على السطح، شكلّت مجالد متوحدّة، لكنها لم تُخف جودي، التي كانت تجدّف في الماء مثل ملاّحٍ ماهر.

تجمَّع السديم الأزرق في الأفق، والطبقات الطويلة للأمواج الرائقة تراكمت كسريرٍ له، ولمعان النجوم الوافرة في السماء، سرت بضوئها على الماء، كخطٍ شارد في لوحة سوريالية، وحين اقترب الطوف من صورة القمر المرتسمة على صفحة البحيرة، نهضت جودي بحذر، رمت بالحبل الموثوق إلى الحجر بمنتهى ما تستطيعه من رفق كي لا تُزعج استدارته، أعادت ترتيب الشبكة بين يديها بعناية، ثم ألقتها على صورة القمر، وراقبت بجذل تشكّل صورة المربعات التي تتخلل الشبكة على السطح، حتى غارت فيه وعاد للصورة بهاؤها الأول، وجمدت منتظرة.

لا أحد على اليابسة يعرف شيئاً عن مغامرات القمر، لا حين يستلقي بضجرٍ على سطح البحيرة ليتململ مع كل موجةٍ، ولا حين يتمدد ببذخ في كل سماء يُحل بها ليغازل الأحبّاء، ولا حين يتخلل شعور الحبيبات، وأغصان شجر الجوز في ليلة صافية، ولا حين يتسلق النوافذ ليضيء سرير عاشقين ملتحمين طوال السهرة، لكن جودي تراقب أطواره وتقلباته كل دقيقة، وهي تجثو مقرورةً على الطوف، تتكبّد عناء الليل كل مساء، منتظرةً بصبر أن يقفز في سلتها.

أرعشت يدها التي تُمسك بالشبكة، لكنها لم تُفلح إلا في تشتيت

صورته المستريحة باستفزاز أمامها، وللمرة المئة لا يستجيب القمر ولا يقفز إلى السلة، لكن القمر لا يعرف جودي، فهي كالموج لا تنام ولا تفتر، ولا تفتأ تذهب وتجيء في مناورتها لاصطياده، وفي إحدى الليالي، قررت أن تضع موسيقى كنان في خلفية المشهد، لتسلّيها وتطرد البرد من سُلامات أصابعها، وفي تلك الليلة، أخذتها موسيقى كنان من يدها وقدمتها إليه.

رأت جودي القمر أكثر ابيضاضاً من حلم، مفروشاً من الداخل بزغبٍ من الصفاء، والحب فيه لونه أزرق شاحب، دلفت الموسيقى بها إلى عزلة، وأجلستها على ضفة أسطورة خالدة، وفي نهاية الزقاق وجدت كل النوافير ووجدت أغنية، وأشجار حور تتحدث عن نفسها، وأعياداً ترقص.

سارت في الممشى المشجّر بالأمنيات، قرأت ملايين القُصاصات مشدودةً إلى عروق القرنفل، لمست آلاف الأشرطة الحمراء، تنزّهت وسط أكوام الهدايا، دارت دورتين حول جادة البلوغ، وبيدها المعروقة بالانتظار والوله، قبضت على فرخ النور، سحبته من حضيض الأعالي إلى ارتفاع السقوط في سلتها، وقفلت عائدةً للجزيرة.

*****

. أسيل تمشي كالمخدرة!.

قال خاطر بانشداه.

خطت أسيل حافيةً على الحِرش الأخضر، لمسافةٍ طويلةٍ مغمضة العينين، ثم طفقت تلوي ذراعيها للخلف لجذب السيور، التي تشكُل جُعدات فستانها الشيفون، فانزلق الثوب عن جسدها، واستقر تحت قدميها الدقيقتين، جذبت مشابك السُّتيان الداخلي،

فانفرطت نهداها وتوثبت حلمتاها، وشرعت فوراً في نزع آخر قطعةٍ كانت تغطي عانتها، تخلصت من أساورها، وقرطيها، ثم حررت الكعكة في شعرها، وأطلقته للريح ولأوراق الشجر، ومشت على المرج المبلول عاريةً.

. أسيل تتعرى بعد أن ارتدت كل الجزيرة ثياباً؟.

رد الرجل على خاطر المصعوق.

. أسيل تكتب نصها الخاص.

التمعت حبات الندى، على ثديي أسيل المكورتين، انهمرت عليهما ظلالٌ وشموس، ومرق من بين فرجة فخذيها هواءٌ منعش، فانتصب الشعر مرتعشاً في عانتها، مُبللاً بالعرق البارد الذي بذلته الأشجار.

سمعت قرع أجنحة الفَرَاش، وهو يحوم على شجر البيلسان، يتقاطر من كل مكان، تُضيئ الشمس أجنحته الملونة بمئات الألوان، والشعر الدقيق على أرجله ورأسه يلتمع في شعاع الضوء.

كانت أسيل كما لو أنها تعرف إلى أين تتجه، حتى وهي مغمضة العينين، فهي تحفظ المكان هنا عن ظهر قلب.

ثدياها كانا مشتاقين، صارا متعرّقين، ومتكثبين، قافزين للأمام، وحلماتهما تتعجلان الالتقام، تشهّى المسام الوردي في الهالات وانفتح عن آخره، لكن الفَرَاش لم يلتقمهما.

استدعت أسيل كناناً وعزفه الليلة الماضية للماء، تذكرت كم ارتج وقد كان ساكناً.

كانت قد فكرت بكتابة روايتها للفَرَاش، وعرفت أن الأمر لن يكون سهلاً، إلا مع موسيقى كنان التي تُحيي كل شيء تمر به.

أخذت نفساً عميقاً، وتخيلت أنه يعزف شيئاً خاصاً لثدييها، ركزت كل حواسها وهي تتخيله يعزف لهما من البداية، ها هو يمرر القوس بهيام على الأوتار، يميله في انزلاقه وصعوده فانداحت النغمات متدافعةً بنعومة، ثم بشكوى، وألم حقيقيين، دارت الموسيقى بأذنيها وقلبها، تغلغت في ثدييها، وهي تمشي وتمشي ثم.....، آآآآه، انبجست أول قطرة شفافة ورقيقة القوام، مرقت بعذابٍ وألم، توالت القطرات الشفافة، رقيقة القوام عظيمة الألم، ثم جاء الحليب، أبيض زاهياً، وساخناً، نفرت القطرات من الحلمات الملتهبة، لم تحتمل الحلمة وزن القطرة فسالت على الثدي، ونزلت حتى أسفل الصدر المكوّر، نفرت المزيد من القطرات بسرعة وغزارة، حتى سقط بعضها على بطنها الأملس، وسمعت من جديد خفق أجنحة آلاف الفَرَاش، فتحت عينيها على اتساعهما، كان الفَرَاش يشتبك في دوران لولبي، يعلو ويهبط، وهو يتدافع ليلتقم حلمتيها ويشرب من رحيق اللبن.

*****

كانت فتيات قد تجمّعن في الساحة، وتحلّقن في دوائر، ليشاهدن كناناً وهو ينظّف كمانه ويدوزن الأوتار، وفي الجوار يقترع فتيان للبدء في سباق ركضٍ جماعي، على طول الشاطئ ذهاباً وإياباً، وحين انتهت القُرعة، انتظر عشرون فتىً بلهفة صافرة البداية تعلن الانطلاق، وماهي إلا لحظات حتى انفلت الصراخ والتصفيق، حين ركض الجميع بكل قوتهم إلى الأمام.

لم ينتبه أحدٌ لنينا تتسلل باحتراسٍ بين الفتيات، وتقترب بخفةٍ وعجل من كنان، إلا حين رآها الجميع تمرّر وشاحها الأزرق من قماش الشيفون على كمانه، وتتسلل بهدوء كما جاءت.

. هذه الصفصافة الهرمة وسط هكتاراتٍ من الزهور، جذعها مُهشّم بسبب إحدى الحمم، لن أتركها وحيدة.

قالت نينا وهي تذرع المكان بوشاحها، دارت حول الشجرة عدة دورات وهي تكرّمها، لأنها حافظت على أغصانها خضراء رغم الكارثة، ومنحت الحماية لملايين الزهرات في الأسفل.

لقد سكبت الكثير من الأوراق حولها، وتحتها وقفت كائناتٌ صغيرةٌ وكثيرة، تبحث عن ملاذ من عبث الرياح، والصباح المشتبه بالمطر.

الأزهار تحت الصفصافة، لا أحد يعرف ما الذي كانت تنويه بكل هذه الألوان، وما الذي تريد البرهنة عليه، إنها تبزّ أي ثوبٍ مزركش صنعته يد حسّان يوماً، لأنها تجيد كلّ ممكنات الألوان، وتبدّلات أطوارها المتتابعة دقيقةً بدقيقة، لا يمكن أن تجعل للأمر قيمةً جماليةً وحسب.

غناء الجداجد كان يذهب ويأتي بنينا إلى السماء، وجسد الأرض تحت قدميها الحافيتين يواجه روح الإيثار في الصفصافة، حتى لم يعد ثمة شيء غير وشاحها، الذي كنس المكان بحصافة شديدة، كأنه يعرف ماذا تريد صاحبته.

لم تعرف نينا كم من المسافات قطعها الوشاح وهو يكنس الأزهار في المرج، عرفت فقط أنه كان يمجّد كل هذه المعجزات الصغيرة الملونة، لكن الوشاح كان قد تمهل، وهب نسيجه المضمخ بالموسيقى، إلى أغصان الجارديليا والبيلسان والسوسن البري، الطالعة لتوها من التراب، سمع البتلات وهي تتحدث مع نفسها في شفاهه عن طيش التوت الحلو، ونزق العصافير غير المكترثة بألوانها.

أنهى الوشاح عزلة جميع الأزهار، لهثت الجاردينا في دوارنه الملحاح، ألغى السوسن مواعيده مع الفجر، وهجر البيلسان عاداته القديمة كلها، وتدثر به.

الرحيق في الأزهار هبط من التيجان، حرّر نفسه من سيدته الزهور، وكما لو كان خائفاً من أن تقبض عليه الأرض وتعيده إلى حبس الربيع، تدحرج على العشب طويلاً حتى استحال نبيذاً في الوشاح.

عادت نينا بوشاحها، الذي استحال أحمر قانياً إلى الشاطئ، اعتصرت قطرات منه في ماء البحيرة، والينابيع الصغيرة حيثما صادفتها، وأسالت الكثير منه في مئات الدوارق والكؤوس.

*****

. أعتذر أنني أنهيتُ علاقتكَ هكذا مع الأشجار يا صغيري.

همس فياض بحزن لعصفور كناري نقشه على لوح مانجروف من سنوات.

تحسس برفقٍ شديد أجنحته المحفورة في القحف، ورغم جفاف اللوح وقِدمه، إلا أنه أحس كما لو أن للعصفور قلباً صغيراً ينبض، لكنه يشعر بالعزلة والبرد.

. أعرف الآن كم تشتاق إلى السماء، ولا تفتأ تتذكر ساعات الشمس والظل في نيسان، لكنني أرديتكَ حين حبستك هنا.

لقد جعلتكَ بأنانيتي طاعناً في السن، وعمركَ لم يتجاوز بضعة أسابيع، كنتُ منشغلاً بتأكيد يقيني بالمادة وحدها، وفي البحث عن إطارٍ للعلاقات والظواهر التي من حولي، فحبست نفسي وحبستك معي في هذا الإطار، وتحرير نفسي اليوم هو في تحريرك أنت.

أعتذر منك أيها الكناري الصغير، فقد كنت أبحث عن تعريفٍ يُريحني، وماهيةٍ متماسكةٍ أنطلق منها لفهم ما يجري حولي من ظواهر، فلم أنتبه إلى أن كل موجودٍ كان يستند في وجوه على موجودٍ آخر يقابله، وأنه حتى التعريف الذي كنت أسمو إليه، لا يمكن الوصول إليه إلا بإسناده لشيء آخر، والآخر يحتاج لآخر، هكذا في سلسلة افتقار لا تنتهي، وفي حُمى بحثي تلك، لم أدرك إلا متأخراً أنه ما من داعٍ للتعريف، لأن كل تعريف هو فعل اقتصاص من شيء آخر، يُخرجه عن سياقٍ كلي وأشمل موجود فيه ولا ينفصل عنه، وأن كل فعل اقتصاص كان يعدم جوهريته.

جاءت الريح بعزفٍ بعيدٍ ومتقطّع، لكمانٍ مشروخٍ كأنه ينادي على حبيبته، مسح المكان كله بسلام وهدوء طريين، فاستعاد الكناري الصغير شعوره بنفسه مع الكثير من التشويش، شعر فجأةً بأن دعامات لوح المانجروف ماعادت تسعفه، وأنها مثله تريد الرجوع، فحدّق شاخصاً إلى العالم من حوله، وهو يتساءل: هل تغيّر؟.

أحس فياض كما لو أن الكناري، كان يُعاين إجهاداً وهو يحاول المروق من الإطار محاولاً الوصول إليه، فرشقه بخفة ببعض الماء وانتظر متلهفاً.

حملق الكناري مذعوراً حوله، تذكّر النبع، ونحلاتٍ طنانة تُزعج طيرانه المبتدِئ، وخنافس ملونة تركض مُسرعةً كأنها تتأهب لحفلة ما، وتساءل أين هو، ماذا سيفعلون به، هل سيأخذونه إلى قفصٍ الآن، هل سيتركونه للأولاد يلهون به، هل سينتفون ريشه؟.

كان فرخ الكناري يستعيد ذاكرته القرمزية ببطءٍ شديد، تمطت أجنحته بعد أن انكمشت لمواسم طويلة، لكن رشقات الماء ونزف كمانٍ

بعيد، ويداً معتذرة تمسّد ريشه كأنها تلتمس الصفح أو تنشد صداقةً جديدة، كلها جعلته ينتبه لنفسه، ولكل شيءٍ من جديد وبقوة أخافته.

. أيها الصغير، اخرجْ من الإطار وأخرجني معكِ، طِرْ بعيداً وطيّرني معك إلى حقول السوسن من جديد، حرِّرْني من نفسي، من ماديتي، حرِّرني من التعاريف والصور، وخذني إلى الضفة الأخرى.

لقد نأيت كثيراً عن الأغصان يا صغيري، وجناحاك المحبوسان هنا يجب أن يتحررا، اقفز بحذر إلى يدي ولا تخف، سأساعدك لأنني أريد أن أساعد نفسي، وأعدك أن يديّ لن تحبساك بعد الآن.

خفق ريش الكناري المتراكب فوق بعضه، وشرع يتمدد للأمام، انحلت النقوش، تفتقت شرايين اللوح وانبجس الطير للخارج، حتى سقط في راحتيْ فياض.

*****

في الساحة الخالية أسفل عرزالٍ كبير، كان الضباب موزعاً كقطعانٍ من الخِراف الصغيرة، حتى بدا أن صوفها قد علِق بلحاء الأشجار الخشنة، فانسلّت تاركةً إياه وراءها.

لم يكترث حسّان لنداوة الصباح اللاّسعة، وهو يهبط باحتراس الدرجات الزلقة، حاملاً كرسيّه المحبب إلى الأسفل. وضع الكرسي جانباً، وراح يدقق جيداً في الأرض المحيطة، ويتحسس الميل والاستواء في كل شبر من المكان، ويفرك بأصابعه حبات الرمل السوداء المتكتلة، وعندما بدا أنه قد وجد ما يبحث عنه، ذهب مُسرعاً للعرزال، ثم عاد بفأسٍ صغيرة ومجرفة ودلو.

تحسس أرجل الكرسي الأربع بحنان من أعلى لأسفل، ثم قاس

المسافة بين كل رجل وأخرى، وعاد فانحنى صوب البقعة التي اختارها، وعمل أربع حُفر متساوية العمق، وحين انتهى، زرع أرجل الكرسي بها، ثبته بحرص، وتراجع قليلاً للخلف، ليتأكد من أنه مستوٍ بشكلٍ جيد، من دون ميل أو انكفاء.

. لقد انتهى ما فعله بكِ أولئك الحمقى، حين اقتلعوكِ من مكانكِ، وتدخلوا هكذا بهيئتكِ وفرضوا عليكِ هذا الشكل الغريب عنكِ.

دارت أصابعه، تتبع الخطوط الطولانية، في عقفة الذراعين الأملسين، وتحسستها جميعاً بشغفٍ وحب.

. تُرى أي جزءٍ فيكِ كان هو الأغصان، وأي جزءٍ كان هو الجذع أيتها الشجرة المسكينة؟.

قرفص حسّان طويلاً بجوار الكرسي، ينتظر أن يبدأ كنان عزفه على الكمان، ثم نهض راكضاً إلى أقرب ينبوع، وملأ دلوه وعاد راكضاً بشوق.

كان يسكب الماء بحرصٍ شديدٍ حول أرجل الكرسي، حين ارتفع صوت الأوتار، ليتخلل الأشجار والأوراق، والتراب، وذراع الكرسي طفقت تتذكر الآن.

لقد كانت غُصناً في شجرة كستناء عجوز، صفعتها حمم بركانٍ ما، فشالت أوراقها وتركتها مشويةً وعارية، تذكرت بوجع ضربات فأس تفصلها عن الأرض، وقد احتضنت حتى وقتٍ قصير عصفورين تسافدا للتو، ويرقات تسلقتها بصبر لتختبئ من الرياح الموسمية، وتساءل الكرسي بأسىً:

. من الذي أخذ أمي إلى المنشرة، من فعل بها هذا وقد أعطته الظل والثمر؟. ومن هذا الذي يسقيني، ويمرر يديه على العروق

الشاحبة في شراييني، ويطلب مني أن أعود القهقري، وأن أسامح الفأس، وأنسى تجربتي المؤلمة مع المسامير؟.

أغرت الطلاوة الكرسي بالتمدد في التربة، فاسترخت أرجله الأربع هناك، وتراجع المسند قليلاً للخلف ليأخذ وضعاً مريحاً، شعر بارتعاشاتٍ صغيرة في انحناءات ذراعيه، كنترات صغيرة كأنها تنفض شيئاً محبوساً في الداخل، توقف قليلاً حين شعر بألم، لكن الدبيب والنترات تصاعدت وتصاعدت، حتى انبجست أوراق صغيرة، ملتفةٌ على بعضها قاتمة وخضراء فسكن.

إنه يعود ويعود، والرجل يسكب ماءه وعبراته والكمان يحكي نشيد الرجوع، ثم توقف مشدوهاً حين شعر أن رجليه الأربع، قد استطالت في التربة ولا يمكن اقتلاعها بعد الآن بسهولة، لأن جذوراً كثيفةً بدأت صراعها في الظلمة الرطبة، وحجزت مكاناً لها هناك.

*****

أطلقت الريح صفيراً، تواشج مع النحيب الذي ترسله الأشجار، وهي تودع الأوراق قبل أن تفك ارتباطها بالأغصان، في حين غنت الظلال الباسقة لصمود الشجر، ورسوخ الجذور.

تتذكر العصافير الآن جميع الأوراق التي شحبت، وترهلت حتى سقطت ميتةً، وعادت بها الذكرى إلى أسابيع طويلة خلت، حين بدأت إضرابها عن الحياة، مفضِلةً أن تحفظ الكثير من الماء، ومخزوناً من أشعة الشمس لسيداتها الأشجار، مقررةً الرحيل عنها، تاركةً الفروع تتأمل ولادتها من جديد.

ومع تضحيات الأوراق في الخريف، لا تعود الأغصان بيوتاً آمنةً للعصافير، فيكبر الخوف من اصطيادها، وتقرر الهجرة إلى

جزرٍ أخرى بعيدة، لتستوطن أغصاناً جديدة لم تفقد أوراقها، وتلتقي بعصافير أخرى فتتعارف، وتلتقط حبيباً لا تعرفه، تغازله، ثم تتزاوج معه، لتعيش لذةً بلا مسؤوليات.

العصافير وحدها تدرك معنى الحرية، فهي لا ترتهن لأية منظومة تؤبد الارتباط بين ذكر وأنثى، ولا يضطر أحدها أن يسكت بامتعاض عن التبدلات في أطوار شريكه، أو أن يتجاهل رغبة شريكه بالتغيير، والانطلاق بعيداً عنه.

. هل ستتذكرنا العصافير حين تعود يا خاطر؟.

. حين تجد الأعشاش التي بنيانها لها من مادة الكمان الذي صنعه كنان، ستعرف أنني وإياكِ كنا آخر وجهين تودعهما.

. وهل جمعت ما يكفي من الطين لبناء الأعشاش؟.

. كما جمعتِ أنتِ ما يكفي من زهور الزنبق وشقائق النعمان.

قال مطمئناً وهو يتبسم لها.

. سوف نُصلح أضرار كل دقيقة، مرت خلال هذا الخريف القاسي عليك أيتها العصافير، ستعودين بالموسم القادم وأنتِ حُبلى بفراخٍ جديدة تفقس بيننا، وستجدينا في انتظاركِ حين ترجعين إلى البيت.

وقفت سيرين في مواجهة الريح، وهي تعصف بالأحراش، مدت يدها المشتاقة إلى السلال، وقبضت على الأزهار منتظرة.

طفقت العصافير على الأغصان ترفرف بأجنحتها، أصدرت رفرفتها صوتاً مرق بسرعة في الهواء، ووصل سيرين فأسرعت برمي الأزهار وهي تغني مع الموسيقى المسائية التي يعزفها كنان كل ليلة، وبعد دقائق علا صفيرٌ حادٌّ في المكان، وتأرجحت كل الأغصان

بقوة، ثم عادت للثبات بسبب القفز السريع والمفاجئ لآلاف العصافير في الهواء. سُمع صوت ضجيجها من بعيد، وأظلمت بقعةٌ كبيرة من السماء بالرمادي ثم تماوجت ثم انفرجت، حين أخذت الأسراب أشكالاً بديعة في طيرانها، بدا تحليقها مرتبكاً ومتداخلاً في البداية، لكنه عاد فانتظم، ثم هوت نزولاً وأخذت وضعا منخفضاً، ومرقت من وسط نثار الأزهار، التي كانت ترميها سيرين في الهواء، وغادرت بضجيجٍ هادر نحو الشمال.

. أخشى أنك تعبتِ يا سيرين.

. بل ازددت حماساً.

. هيا إذاً، سأثني لكِ ركبتي حتى تصعدي عليها، ثم برجلك الأخرى تقفين على راحة يديّ المشبوكتين، وتتسلقين أول غصن، وتثبتين العُش الطيني.

. كم عشاً صنعت؟.

. ربما الآلاف.

قال ضاحكاً، وأضاف:

. ستصابين بالإعياء بعد المئة الأولى فقط.

. سنتبادل الأدوار، لن نطلب المساعدة في كتابة روايتنا يا خاطر.

*****

. جسد شجرات السنديان الوحيدة في مواجهة الشمس، لماذا لا طموح لها؟.

. لماذا لا تستطيع الركوع لأي معنى؟. لماذا هي مرشوقةٌ هنا بلا أي ملل في المكان القديم نفسه؟. لماذا لا تتحدث إليّ عن مللها؟. لماذا لا تصارحني بجنسها؟. لماذا لا تقول لي أذكرٌ هي أم أنثى؟.

وثمرات التفاح الوقحة في احمرارها، لماذا لا تتحسر ساعة النضوج؟. لماذا لا تكترث للتعافي بعد كل قطاف؟. لماذا لا يبدو أنها تأبه للرحيل في كل موسم؟. لماذا لا يزعجها أن تنتهي في طبق؟. وهل سألت نفسها يوماً تلك الثمرات الحمقاء، أهو ذكرٌ احمرارها أم أنثى؟.

التوت هو الآخر كم هو طائش، ما أن تمر عليه الريح حتى يتساقط، ألماً واستشهاداً، فهل هو أنثى حين يكون وليد الثقل والاستحياء على هذا النحو؟.

والطحالب، لماذا تبحث في مذلةٍ عن الظلمة والرطوبة لتتكاثر؟. لماذا تترنح بالروائح العطنة والدَبَق؟. لماذا لا تكترث هكذا وهي تتحول فريسةً سهلةً لإناث البعوض، لتجعل منها مأوى لبيوضها؟. وهل هي أنثى حين توفر كل هذا الحنان للبعوض الخائف من الريح، أم أنها ذكرٌ مخرّب؟.

وأنتِ أيتها الصَدَفة، لا يجدر بك أن تبقي على الشاطئ كل هذه السنين، لتحاولي تقليد صخرة، لماذا تتكلّسين محاولةً التشّبه بها؟. هل تبحثين عن معنى لكِ كما كنتُ أفعل؟. هل تكرهين صدفيتك، وتريدين أن تكوني صخرةً لتتالي تقديراً ما؟. لماذا تضيعين في الثبات، كي تعثري على معنى لكِ؟. الحركة هي التي ستبدد هوانك، وتعلُّقِك بالصخرة لن يجلب لك الاحترام الذي تظنينه.

. موسيقاك يا كنان.

. ما بها يا تالة؟.

. كما لو أنها تخرج من الأرض والشجر والريح، وتأتي خصيصاً إليّ، أهمس لنفسي كلما سمعتها، لقد آن الأوان لأن أغادر القلق

والخوف، أغادر محاولاتي للنجاح فأفشل، أغادر الأسئلة والإجابات لأستقر أخيراً في نفسي.

. هذا يبهجني ياتالة.

أريد أن أسأل كمانك سؤالاً.

. إنه لكِ، خذيه.

. آخذ كمانك يا كنان؟.

. إن لم تأخذيه أنتِ فمن الذي يأخذه يا تالة؟.

. ماذا تعني يا كنان؟.

. إنه يشبهكِ.

. آه كنان.

تأوهت والألم يفور من عينيها.

. إنه مثلكِ، يستطيع أن يجمع المتنافِرَيْن.

. كنتُ سأسأله عن جنسه، لكنك حزرت ذلك.

. كما سألتِ السنديان والتفاح، والتوت والطحالب والصَدَفة؟.

. تعرف ما أفكر به أيضاً يا كنان؟.

. لطالما عرفتكِ يا تالة.

. كيف عرفتني يا كنان؟.

. حين انتبهت إلى أننا فقراء جداً أمامك.

. لقد فكرتُ عشرات المرات في جنس الروائي يا كنان.

. وهل سألتِه يوماً؟.

سألتُه عن جنسي أنا.

. وماذا أجابك؟؟

. كان يناديني أصف طوال السرد.

. فهو إذاً أُحادي الجنس.

. لماذا يا كنان؟.

. لأنه لم يحُز وفرة أن يكون مثلكِ عابراً للصفات والنوع، ولم تحتشد فيه الأنثى والذكر بهذا التكثيف، لهذا كان بليداً وقاسياً معكِ، ولهذا كنا قساةً معكِ لأننا كنا هو.

. ماذا عنك يا كنان؟.

. أنا ككماني يا تالة.

. كلاهما؟؟

. الجمال أن تحافظي على الأنثى فيكِ، وعلى ظلها الذكر، كما حافظتُ أنا على ذكورتي وظلها الأنثى.

. كل شيء هو ذكر وأنثى يا كنان؟.

. كل شيء هو كذلك يا تالة.

. حتى الموسيقى؟؟

. الموسيقى مثلك لا تعترف بالحدود.

. لهذا هي جميلة!.

. ولأنها صالحت بين الأنثى والذكر فينا.

. أي جمال هو خنثى.

. خذي، اعزفي لنا تالة وأصف معاً.

- 8 -

في ذلك اليوم في أواخر الخريف، تحت سُحبٍ بهيجةٍ للشمس الغاربة، لونها لم يكن ذهبياً ولم يكن قرمزياً، كان موشىً بالأرجوان المتدرج بحدة، وبمحاذاة الدرب على طول إحدى قنوات الأنهار، سوف يلتقي كنان بالبقية.

في ذلك المساء اللطيف، كانت تالة هي آخر الواصلين، كانت تحمل الكمان والقوس، وما أن اقتربت حتى أعطتهما باسمةً لكنان، الذي نهض بتواضع وأخذهما كأنه يتسلم سراً.

. هل قررت بمن ستقترن يا كنان؟.

. قررتُ أن أكون آخر واحدٍ يقرر.

. هذا ليس عدلاً.

. هتفت سيرين.

. لقد سابقني الذكور على عقول الإناث، المنافسة كانت شديدة، وقد صار الأمر صعباً الآن، لهذا سأكون آخر من يختار.

. قد تندم.

قالت نينا ضاحكةً، فهز هو كتفيه كمن أُسقط في يده.

اتكأ كنانٌ على جذع شجرة صغيرة، وضع الكمان بجواره، شبك يديه الاثنتين على صدره، وهو ينظر بانتباه.

تبادل الجميع الابتسامة، لاح خجلٌ وارتباكٌ على وجوه البعض، لكن الإناث كنّ أكثر شجاعةً وتحمساً، هتفت أسيل قائلةً بمرح:

. نحن من يجب أن يختار، فنحن لم نكتب روايةً اعتياديةً، فأنا ألقمت ثدييّ للفَرَاش، وجودي اختطفت القمر من الليل، نينا أحالت رحيق الأزهار في شالها إلى نبيذ، وسيرين ودّعت كل الطيور المهاجرة، كما لم يخطر على أحدٍ من قبل أن يفعل.

تدخّل فياض بنزقٍ مشاكس:

. أنت تبالغين يا أسيل، نحن من صحّح الرواية الأولى برمتها، أما أنتن فقد أطلقتن العنان لخيالكن وحسب.

. كيف يا شاطر؟.

. أنا غادرتُ يقين المادة وتصوراتها الصارمة، أعدتُ ما سجنته في الإطار، لأطلقه في اللاإطار من جديد.

حسّان:

. أنا المتهم بكراهية الجزيرة، ومن جلب الشر لها، تحولتُ إلى شجرةٍ مرشوقةٍ في ترابها.

. لا تنسوا أنني كنت شريكاً لسيرين في توديع الطيور.

قال خاطر معابثاً فضحك الجميع، غير أن الجميع التفتوا إلى تالة بارتباك، ليعرفوا مع من ستضع مشروعها الروائي، مع الإناث أم مع الذكور.

سكتت تالة، وسكت الجميع، فتنحنح كنان وهو يضم قبضة يديه أمام فمه ثم تكلم:

. حين استجوبت تالة الطبيعة لتعرف جنسها، وحين أرادت استجواب الكمان، كانت قد كتبت باستجوابها شيئاً شفافاً يمنحنا فضيلة رؤية أنفسنا بعيننا الأخرى، ليدلنا على شخصٍ آخر يكمّلنا

ويعيش في داخلنا. ما كتبته تالة كان يُزيل الأحاسيس، تلك الضحلة القابعة على سطح الجلد، لكنه يُبقي على المشاعر البدائية، والأولية، لقد استدعتها تالة من نقطة عميقة ومُهمَلة في دواخلنا، فكان وقْع ما كتبته قاسياً، على من لم يُصالح الذكر على الأنثى فيه، ومع ما كتبته لم تعد تختبر أية مشاعر بالعار أو التأنيب.

صفّق الجميع لما قاله كنان، حتى تالة بدت مأخوذةً وممتنةً لكلماته، التفتت تشكر الجميع على التصفيق، ولمحت في أعينهم لأول مرة حباً وتوقيراً خاصين، لم تلمحهما من قبل.

. حسناً، من سيسمي قرينته أولاً؟.

. بل قل من ستسمي قرينها يا فياض.

. طيب يا أسيل، تفضلي.

. أنا أرغب في الارتباط بك يا خاطر.

سكت خاطر قليلاً، أدار رأسه يمنةً ويسرةً، متظاهراً بالدهشة، ثم رفع يديه كمن يدعي أن لاحول له ولا قوة، لكنه عاد فرفعهما صائحاً.

. كم أنا محظوظٌ بالاقتران بمرضعة الفَراشات.

هلل الجميع وانطلق الصفير والصياح.

. أنا أرغب بحسّان.

قالت سيرين، فتهلل وجه حسّان واضعاً يده على شفته وأرسل إليها قبلة.

. حسناً، أعتقد أن فياضاً لن يمانع بي حين جعلت من الرحيق نبيذاً في وشاحي، صحيح؟.

. لن أرفض مبدعةً مثلكِ يا نينا، كم كنتِ رائعة!.

التصفيق الحاد والصياح، منح جودي فرصةً لتلملم نفسها وترطّب شفتيها الجافتين، لكن الحُمرة التي انفلتت في خديها، لم تكن قد انطفأت، بعد حين التفت الكل إليها ينتظر أن تسمي قرينها، الذي يقف عند الشجرة بتجهم.

. هل تقبل بي قرينةً يا أصف؟.

شهق الجميع، انطلق صياحٌ مكتوم، قفز البعض وصاح البعض الآخر، وكنانٌ يتأمل ما يراه بهدوء.

. موافقة.

قالت تالة بضحكة كبيرة فعلَت الهمهمات، وتوجهت الأنظار إلى كنان الذي بقيَ على وضعه ولم يغيره.

*****

قطع فياضٌ حيرة الجميع، قال وفي عينيه نظرة اعتذار لتالة:

. مع مباركتنا لاختيارِكِ يا جودي، لكن توقع الجميع أن تختاري كناناً.

. لم أشأ أن أُفسد نص كنان لنا، كان إفساده ليكون عامل الفوضى الكبير هنا.

. كيف؟.

هتف خاطر.

. لقد كنا جميعاً شخوصاً في رواية كنان.

الصمت الثقيل؛ الصمت الأسود المطلي بالصدمة والتشويش عاد من جديد، وعادت معه الحيرة القديمة.

. ماذا تقولين يا جودي؟.

. لقد شهد كنانٌ على أول فورانٍ للأفكار، حين اعتقدنا جميعاً أننا شخوص في رواية، شهد على طاقتها المعقدة والهائلة في حياتنا، رأى شخوصاً مستعدين للقتل من أجل حشر فكرتهم في رؤوس آخرين، وغيرهم كان مُستعداً لتلقي الموت لأجل طردها من رأسه، رغم أنه ولا مرة تمكن أحدنا من تقبيل الفكرة، أو لمسها، أو حتى ضمها إلى صدره.

الأفكار التي شهد كنانٌ على فورانها في رؤوسنا واحداً واحداً لم تكن تنزف، لم تكن تشعر بألمٍ أو سعادة، لكنها كانت كفيلةً بجعلنا ننزف، ونتألم، أو نعيش بسعادةٍ، وعندما لاحظ أننا عاجزون عن العيش بالواقع، قرر كنانٌ أن يجعلنا نمارس هذه الهواية الخطرة من جديد، إنها اللعب بالأفكار.

. هل كان كنانٌ هو الذي يكتبنا طوال الوقت؟. هل كان هو الروائي الوحيد هنا؟.

. لقد استطاع كنانٌ أن يُلهمنا بطريقةٍ ذكية كيف نبدأ من جديد، لقد تمنى لنا عالماً حقيقياً ومختلفاً، كل شيء جميل فيه هو ممكن، فعزف على وتر ذكائنا الإنساني، لأنه هو الذي سينقذنا من الإيمان بكائن غيبي، والتردي في الفوضى.

توقفت جودي للحظات متعمدةً، وهي تتفرّس في العيون التي تحملق فيها بقوة، منتظرةً ما في حوزتها، فاستجمعت رباطة جأشها وقالت:

. راهن كنانٌ على ذكائنا المكتسب، وثق به أكثر حتى منا، فدعانا إلى أن نُعيد تنظيم حياتنا ومشاعرنا من جديد، من خلال لعبةٍ روائيةٍ ذكية، وهي مكافأة من تتحرر من الإناث لتظفر به قريناً في النهاية، لكنه كان قد قرر سلفاً ألا يقترن بأحد، فكنانٌ لا يتزوج.

. ماذا يمكن أن يُقال بعد كل هذا؟.

أنت يا حسّان كنت بلا روحٍ وثابة، كنت تابعاً بليداً للروائي، وفي نص كنان عاد الميت فيك حياً ومثمراً أيضاً.

وأنتَ يا فياض، لقد قَلَبَك كنانٌ إلى النقيض، من رجلٍ لا يؤمن بغير المادة، إلى رجلٍ ما ورائي تماماً.

خاطر وسيرين، كنتما تضيّقان على كنان والبقية، وتدفعونهم للهجرة من الجزيرة، فصرتما تهتمان لأمر كل مهاجر، وتهيئان له عودةً آمنةً وموفورةً بالترحيب، لتغرياه بالرجوع إليها من جديد.

أما أنتِ يا أسيل، فقد انضويتِ في نصه بنباهةٍ عالية، لقد در ثدياكِ حليباً رغم أنك عذراء، لأنكِ تزوجتِ جسدكِ وتركتِ فياضاً، لقد أعلنتِ أنكِ لا يمكن أن ترجعي لعلاقتكِ القديمة معه، لقد غادرتِ سجن الحب كما طلب كنان، كي تتحرري تماماً من دورك الأول.

. نينا الخافتة، المختبئة خلف أحزانها، السلبية في حضورها دائماً، المنشقة على الروائي بقلبها، غادرت أخيراً أدوار الحب والثقة بالقلوب، إلى أدوار الخلق حين منحتنا أكسير الحياة في النبيذ.

أصف، عَكَسَ سؤال الخنوثة الذي عذبه على كل الموجودات، حين دله كنانٌ على أن الخنوثة هي كمال الكائن، وهي مصدر

الإبداع في كل شيء، ففي الإبداع الحقيقي تختفي ثُنائية الذكر والأنثى، ليحل محلها الكمال الخنثوي.

. وماذا عنكِ يا جودي؟.

سأل حسّان.

. لقد تخليتُ عن كل الحب الذي آذاني وآذيتُ غيري بسببه، خلخلت الرمز الذي تربّع على قلوب ملايين العشاق عبر العصور، ومرّغتُ الرومانسية في سلتي، وحين أُتيح لي أن أختار قريناً، اخترت الكمال الإنساني، الذي يعوضني الحب الذي تنازلتُ عنه، كي أثبت حتى آخر سطر أنني شخصٌ منضبط في دوره.

. يعني كنان استعملنا؟.

. كنان أنقذنا.

. كيف؟.

. أحضرنا إلى الواقع.

. ماذا فعل؟.

. قدم لنا الحرية والموسيقى.

- 9 -

. هذا يعني أننا لم نكتب رواية؟.

. هل نحن شخوص من جديد؟.

. لعلنا كنا روائيين.

. كيف، قل لي كيف؟. يكاد رأسي ينفجر.

. هل وضع كنان الكلمات في فمك، أو رسم لك خطة السرد؟.

. لا، لكن.....

. لكن ماذا؟.

. لم نستطع جميعاً أن نُنجز نصاً واحداً، إلا وموسيقاه تحيط بنا.

. الموسيقى كانت روايته هو للانقلاب على أمه.

. لاحظ أن انقلابه على أمه كان هو خلفية كل نصوصنا.

. هل فرطنا في الطبيعة لصالح العقل الإنساني؟.

. هل يشكّل تعقلنا رِدةً على الطبيعة العمياء؟.

. ربما كانت الطبيعة متعقلة.

. كنانٌ لا يتكلم.

. ماذا كان سؤال الرواية ذكّروني؟.

. الأولى أم الثانية؟.

. هههههههه، اللعنة نحن تائهون كلياً.

. الأولى كانت سؤال العبودية لكائنٍ متخيل فرّق بيننا.

. والثانية كانت سؤال الحرية منه.

. وهل تحررنا؟.

. إجابة هذا السؤال تتوقف على معرفة من الذي فرض الذكاء الإنساني ليكون موضوع الرواية.

قالت جودي، فتدخل حسّان بحيرة:

. وما فائدة ذلك؟.

. سأسهل عليك الآمر، إن أُتيح لك اختيار قرينة من جديد، فمن ستختار؟.

. ..... أنا حائر.

سارع فياض بعبث:

. إن اخترت جودي فأنت بطلٌ من حبر في الرواية الأولى، وإن اخترت غيرها فأنت بطلٌ من حبر في رواية كنان، هههههههه.

. أوه، كم أنت بغيض!.

تدخلت جودي:

. أنا لن أختارك يا حسّان ولو كنت الشخص الوحيد على الجزيرة كلها.

شعر حسّان بمهانة.

. أنتِ شخصٌ تافهٌ جداً يا جودي، أنت طيّعةٌ وسريعة التشكيل، لقد عبث بكِ كنان بسهولة.

. لو كتبتَ روايتك أنت الآن وبلا تدخلٍ من أحد، هل كنت ستكتب شيئاً أكثر لمعاناً وإبداعاً مما كتبته في نص كنان؟.

. ربما، من يدري!.

. أراهنك على ما بقي من سنوات عمري، أنك ما كنت لتكتب غير ما كتبت يا حسّان.

. لماذا يا عبقرية كل الروايات أنتِ؟

. لأننا وبقية الروائيين من الشخوص، دفعنا كناناً ليكون شخصاً روائياً معنا.

. ماذا؟.

نحن من كتب كنان.

. هاااه؟.

. قلتُ لك، كنانٌ هو شخص روائي في روايتنا كشخوص من جديد.

. أشعر بإجهاد لا يوصف، وأشك بأنني قادرٌ على تحمل المزيد من هذا الهذيان الروائي.

. فياض، خاطر، نينا، أصف، سيرين، أسيل، ماذا تعتقدون الآن، هل كنتم تَكتُبون أم تُكتَبون؟.

. اللعنة، لم أعد أعرف.

رد خاطر باضطراب.

. شعرتُ أنني كنت أكتب نصي الخاص لأول مرة.

قالت تالة.

. أعتقد أنني لطالما أردت أن أكتب ما كتبت يا جودي، لكن الآن أنا حائرة.

زعق حسّان.

. هل سنظل هكذا دائماً، محاذين للروائي ومحاذين للشخوص؟.

سأل فياض.

. ها نحن نعود للسؤال القديم من جديد، مَنْ يكتب مَنْ؟.

. اللعنة على من اخترع الرواية.

. إنها أعظم ما اخترعه الحبر.

. يا سلام.!

. إنها الجنس الأدبي الوحيد، الذي يتورط فيه الكاتب مع ما يكتبه، فتتميّع الحدود بين الكاتب والمكتوب.

. وهي الجنس الأدبي الوحيد، الذي يتوفر على كل النبالة المتصورة، حتى أن قرّاءها لابد أن يكونوا منتخبين بعناية لتذوقها.

. اسمعوا هذا لا يُريحني أبداً، لماذا جودي هي التي ضبطت الأمر؟.

. تتكلم وكأنها أول مرة، ينتبه الراوي إلى أنه كان في الحقيقة مروياً!.

. يعني الشخوص هم الذين يكتبون الروائي دائماً؟.

. ولماذا لا يكون الروائي هو الذي يكتب الشخوص دائماً؟.

. كيف نعرف الحد الفاصل بين الروائي وبين الشخوص؟.

. هذا سؤال يصلح لرواية ثالثة.

. ألا تتعب يا فياض اللعين؟.

. الرواية تأتي بالمعرفة، لنكتب المزيد من المعارف.

. اكتبها أنت، أنا مستقيل.

. مستقيل من دور الروائي، أم من دور البطل يا خاطر؟.

. هههههههه، صدقني لا أعرف.

. كناااااان، ما الحل؟.

. كما قال فياض، بالمزيد من الروايات.

. لماذا يا كنان؟.

. حين نتعب، يجب أن نكتب رواية، حين توشك الحرية أن تؤخذ منا يجب أن نكتب رواية؛ الرواية هي اختراع الذكاء الإنساني المعاصر، من أجل التمرد على المتُاح والجاهز، والسواد، والقواعد الرتيبة، الرواية هي الإقامة في الأسئلة الصعبة، والممنوعة.

. وهل ستكتب روايةً ثالثةً الآن؟.

. أنا أفكر بها مذ منحتُ كماني لتالة.

. واااااااو!.

. ولماذا منحت كمانك لتالة يا كنان؟.

. لأني أريد أن أكتب روايةً عن شخصٍ واحدٍ لاغير، لأعرف إن كان هو الروائي أم البطل.

. وكيف ستكتب شيئاً كهذا؟.

. سأغادر الجزيرة وأعيش في كهفٍ بعيدٍ وناءٍ لأرى.

. هل ستتركنا يا كنان؟.

. هل تسألون كشخوصٍ الآن، أم كروائيين من نفس المرتبة؟.

هههههههه.

. اللعنة عليكَ يا كنان، أنت تُخرجنا من ورطة لتوقعنا في أخرى.

. أجمل الورطات هي التي عشتها معك يا كنان.

. سأترك لكِ كماني يا تالة.

ودون كلمة وداع واحدة، دون حتى نظرة خاطفة يمسح بها المكان ومن فيه، اعتدل كنان واقفاً، أشار لتالة بحب أن تأخذ كمانه، والتفت مغادراً صوب الجبل.

وفاء البوعيسي

لاهاي \ هولندا
من ديسمبر 2012 حتى نوفمبر 2015

الكاتبة في سطور

روائية من ليبيا.

أعمالها المطبوعة:

للجوع وجوه أخرى، ليبيا، 2006.

فرسان السعال، تونس، 2009.

نعثل، ليبيا، 2012.

تيوليب مانيا، مصر، 2013.

وردة الإثم الحمراء، موقع أمازون، 2018.

Wafaalbueise@gmail.com